HAZEM MASSAOD
HM
E-Books

رواية

عصام منصور

رحلة السماور

" العالم الخرب "

الرواق للنشر والتوزيع

رحلة السماور – العالم الخرب

عصام منصور

الرواق للنشر والتوزيع

رحلة السماور – العالم الخرب

عصام منصور
الطبعة الأولى : يناير 2018
رسوم الغلاف : محمد مصطفى
الغلاف : كريم آدم
التصحيح اللغوي : محمد حمدي أبوالسعود
رقم الإيداع : 26103/2017
الترقيم الدولي : 9789775153968

186عمارات امتداد رمسيس 2- أمام ارض المعارض – مدينة نصر
هاتف: 0220812006
rewaq2011@gmail.com
facebook.com/Rewaq.Publishing

إهداء

من أحد المصريين، إلى السيد (ج. ر. ر. تولكين)، وتلميذه المسمى (ج. ر. ر. مارتن). أخلع على قدود صنائعكما حلل الثناء، وأرتجي أن أضيف إلى أدب الفانتازيا ما عالجتماه، لعل وعسى ألا أروم أمرًا معضلاً كؤود المطلب.

الأب والابن

- «قام واخدني من إيدي للسما»

يمكننا حسب شكل المآذن، وتواريخ دواوين الحكومة، أن نقول بكل ثقة: هي سنة 1879 بمدينة مصر المحروسة.

ذات يوم حار للغاية.

الشمس تحل محل كل فكرة، بداخل أي مخلوق، في أي مكان، يفعل أي شيء؛ بحرارتها، ونورها، ووهجها، وسخونتها، وقيظها؛ محيلة الزمهرير أمنية غالية، والبرودة حلم يقظة. ورغم أن الوقت ما زال ضحى، وقد كشف الكهل عن جل فراشه ليطهره شعاع النجم المضطرم، إلا أن الحرَّ أوحى بساعة هاجرة ملتهبة، تليها ظهيرة مشتعلة حقًا.

الكهل الذي ناهز الخمسين كان حسن الصورة، به ضعف ونحافة، وضيء الطلعة، رغم بشرته القمحية المائلة للتجعد؛ بعكس وحيده الأزهر اللون مثل أمه، الوضاح المحيا، مشرق الجبين.

يوم جمعة هو أيضًا. لذا كان الابن في عطلة من دراسته، يرمق مع والده الشعاع العريض القادم من النافذة الشرقية، بتلك الغرفة الفسيحة العتيقة، التي تضوع فيها نهارًا رائحة المبخرة الفضية الصغيرة، ذات المسامير النحاسية اللامعة، حاملة طيب العود والعنبر الذكي إلى الأنوف المتشهية؛ وتنبعث منها ليلاً نفحة الأخشاب القديمة المندّاة، كبقية عقارات منطقة (الناصرية). وهي إحدى مناطق (مصر) (القاهرة)، العاصمة الأبرز بين عواصم القرون الوسطى الأخرى التي ولدت معها، حتى شبت هي عن الطوق، وازداد عدد سكانها، وبيوتها وحقولها، وأفراحها ومآسيها.

كان الكهل قد أمسك هذا الصباح عن الكتابة.

شيء ما أصابه بالسأم أو الإرهاق.

ولم يبدِ رغبة بالمواصلة، أو حتى تكليف ابنه (محفوظ محفوظ النحاس) بكتابة مذكراته عنه.

وامتد تيار تقاعس الرغبات صوب النزوع للكلام والحديث، فاكتفى كلاهما بتأمل شعاع الضياء الأصفر، والشرود وسط جسيمات ما مجهولة واضحة المسارات تطوف بجنباته، كنحل منمنم يتفقد هندسية خلاياه النورانية.

الابن يفكر في النضال من أجل البلد، وفي البحث عن المعرفة المفسرة لما ينبع منه وقت الخطر، وفي أن نشاطه قد يورط والده في مغبة فقد جديد. الأب يفكر في النضال من أجل النهوض، ومبارحة فراش اليأس. في تحدي فودين اشتعلا شيبًا على جانبي وجهه، وكاهل يضيق قوسه يومًا بعد يوم في أعلى ظهره، لأجل البحث عن شخص عزيز عنده. يفكر في أن مغامرة كتلك، ربما يسبب جنونها مشكلة لولده ووحيده، الذي منحته له هذه الدنيا على مضض، وأن القبض على المجمرة الساخنة المجاورة أهون عليه وأريح.

في شمس (أغسطس) الغنية، قال الوالد، وقد اتخذت لهجته نمطًا أقرب لحديث المسنين الطيبة، في الآونة الأخيرة:

ـ ميزة الصيف إنه بيخرّج من العضم رطوبة الشتا.

كانت الأفكار تصطرع في مخ الابن، وحياته المشغولة بالبحث وصراع الرحلة، تجلب عليه شجنًا وحنينًا يخلو من الغبطة.

من هو؟

القدر كما يخبره الشيخ الصوفي لا يعبث، وكل شيء فيه محسوب بدقة. لا مصادفات ولا احتمالات. كل شيء يسير نحو غاية مقدرة سلفًا، ولكنها محجوبة نسبيًا، مغلفة أسباب وطرائق سعيها شكليًا، فيلتبس الإنسان ولا ينقذه إلا الإيمان.

الإيمان بأن لكل شيء سببًا.

ولكل فعل هدف. حتى أبسط الأشياء وأحقرها أهمية من أن تشغل الأنفس.

ـ لقينا فايدة واحدة لجهنم الحمرا ديَّت.

قالها الابن مبتسمًا معلقًا على عبارة رطوبة الشتاء، بينما الأب يفكر أن والده أعطاه الإشارة لكنه أغفلها.

والده علّمه ما سيعلّم به ابنه، لعله ينقذهما معًا من حيرة طالما أرّقت لياليه.

لا أحد يعرف عمله قبل الزواج والاستقرار، والانتظام في العمل بطائفة النحاسين، حتى ترقى لدرجة نقيب الطائفة ومعاون شيخها الأوحد. لا أحد على الإطلاق.

لقد جرّب وسأل شيخ الطائفة، الذي عمّر طويلاً، حتى كبر هو واشتغل نفس مهنة أبوه، وسأل كل من عاصر الأب، الذي لو كان قد نجا من الطاعون، لوجد ابنه جدًا في حياته المنعدمة الأقارب. ولكن المرضَ الأسود حصد روح هذا الجد، ليسلمها أمانة مطوية لخالقها.

ولكن ولده ما زال يمتلك من هو في مقام جده.

إنه تاجر العطور الذي كان يؤيه هو قديمًا في (الإسكندرية)، وزوجه خادمته وأم (محفوظ)، التي لن يغفر لنفسه ما فعله بها عندما سرق منها ابنهما الوحيد.

ـ أكيد السما في (إسكندرية) أزرق صيني. وهوا البحر أحسن.

قالها بتثاقل بعد فترة صمت طويلة. يمتد الصمت محببًا بين كل عبارة وردّها بينهما. التعبير يوحي بجمال الطقس، ولكن يعرف أن ابنه قد فهم خصوصية قصده، بخلو السماء هنالك من القرص الأحمر الحارق، خاصة في ساعات العصاري.

ثمة دومًا أمل ضئيل بكل نائبة. سيرسله يومًا لجده الشكلي. لأمه الحقيقية. وسيروم مسامحته عما اقترف في نوبة يقظة مغيبة.

سبق وأن أرسله لأمه وهو بعد غض الحداثة، ولكنه أرسله بعدها لما هو أبعد، لدى صديقه النوبي المتزوج من ـ وفي ـ الجنوب السوداني، وأدى هذا لذهابه إلى التهلكة في أقصى غرب العالم.

إلى الحرب اللعينة.

لو كان يعرف لما أجبر ولده على خوض أولئك الخطوب.

هل ولده يكن له بغضًا خفيًا؟

إنه لا يلمس منه إلا كل الحب والتقدير والاحترام، الذي يمنحه الأبناء لآبائهم أولاد البلد الأصلاء، عادة.

ولكن ما قاساه ابنه فاق ما قاساه هو. لقد تعرض هو للغربة وللحرب، ثم الجنون في شبابه، لكن ولده تعرض لكل هذا وأكثر وهو بعد طفل!

ـ أي مكان فيه أمي لازم ربنا يخليه جنة يا ابا.

قالها الابن ردًا على عبارة سماء عروس المتوسط، بينما انشغاله بمصيره يثير جنونه في الخفاء وأعماق النفس.

شغفه بالقوة، أو الحب، أو السفر، أو الثقافة والمعرفة، لم يعد بنفس قوة شغفه بمصير وطنه كله الآن.

لقد شعر قبل أن يقبل الانضمام للفتيان، بأن مصيره لا بد أن يرتبط بمصير البلد؛ ولم يتردد طويلاً أمام عرض زميله وصديقه في مدرسة الإدارة والألسن، والتي ستنقسم، ثم تسمى مدرسة الإدارة المنبثقة منها فيما بعد بمدرسة الحقوق.

ونقل (محفوظ) الابن ملكات الكتابة والخطابة، التي تطورت لديه في مدرسة الحقوق، إلى الجمعية، التي انضم لها منذ عامه الأول في الدراسة، وقد آمن بأن أهدافها تتسق تمامًا مع أهدافه: الدعوة إلى الإصلاح والتغيير. الخديوِ (إسماعيل) قام قبل نفيه بنهضة، تدهورت في النهاية بشكل ينذر بالخطر، ويوقظ الشعور الوطني ونضال الفتية.

ـ خد 70 مليم من الكيس، وهاتلي النهارده رطلين فاصوليا انجليزي. ماتنساش تشوف طلبات النحاس الخام والقصدير، اللي هيقول لك عليها (محمد راضي) في الورشة.

قالها الأب بعد فترة سكون وتأمل أخرى، بينما يداعب رأس النسر الأبيض، المستكين بين يديه كصقر عربي مدرب على القنص. صار يقترب منه أكثر مؤخرًا. قالها دون أن يعرف هل سيحقق ابنه شيئًا مختلفًا.

هل يصبح حلم الابن أنضج وأفضل مصيرًا من حلمه.

لقد أحب (مصر) كما لم يحبها مخلوق من قبل، ولكن نيلها الصبور أخبره أن الحالَ تسير إلى الأسوأ، وأن الرجال سيجاهدون من أجل الآخرين، وليس من أجل بني قومهم؛ فهل يسير إلى الأحسن مع ابنه الوحيد.

لقد حارب هو من أجل السلطان في (القرم)، وحارب ابنه من أجل الإمبراطور الفرنسي. فمتى نحارب من أجل نيل الاستقلال التام، دون أن نكون مرغمين على الحرب؟ وهل سنظل أتباعًا إلى الأبد؟ متى الحرية؟!

ـ أمرك يا والدي.

هل يقولها بإخلاص؟ إن حساسيته الخارجية تجعله يحتاط لرطوبة الشتاء، وألم ندبته، وحساسيته الداخلية توهمه بأوجاع ابنه القديمة، عندما تغرّب وهو بعد طفل، والأطفال لا ينسون المآسي مهما كبروا. إنها تَحفر في أرواحهم المستوية الفطرية، أخاديد من الألم والتنبه لغدر الدنيا، كما تحفر الفؤوس القبور العميقة.

ولكن نفس حساسيته تمنعه من مصارحته أو حتى طلب الصفح. أو لعل السبب مخالطتها بالكِبر. ولا يدخل الجنة من حمل قلبه ذرة من كبر، كما أخبره قديمًا مجاوري الأزهر الشريف. لقد

سبق وطلب الصفح والمعذرة بالفعل، ولكنه لا يقتنع بأنه فعل. لم يطلب بتذلل أو بمشاعر قوية تجعل المسامحة حارة. حلالاً.

ـ مش عايز أيتها حاجة يا (محفوظ)؟

سبق وأن منحه بالفعل أكبر نعمة في الكون.

يفكر (محفوظ) الابن.

صحيح أن الشيطانَ الحارس جعله شخصًا خارقًا تقريبًا، لكن هناك شكًا عميقًا في كونها محنة لا منحة.

ولكن حتى كونك رجلاً خارقًا قد لا يجدي مع الخديوي فتيلاً. الخديوي قام بالانفتاح على الحياة الأوروبية، ولكن هذا نفسه سلاح ذو حدين، حد حضاري لصالحه، وحد نبه النفوس للحريات ورفض الاستبداد. وهذا لم يكن لصالحه. أو لصالح أي حاكم في هذا العصر في الواقع.

(محفوظ) الصغير لم يعد صغيرًا منذ أن كان صغيرًا! وقربه من الأفغاني جعله يدرك أن الرجلَ أحد أنعم اللـه على هذا القُطر، وأن (الأفغاني) الأصل والاسم، سيكوّن مع انفتاح الخديوي جناحي طائر مرقع، اسمه التغيير.

داعب الريش الناصع.

ـ خيرك مغرقني يا أبو (محفوظ).

كان حديثًا تقليديًا بين (محفوظ) و(محفوظ). بين الابن والأب.

أم لم يكن؟

ـ غيرش بس الدرويش غايب عن نظري بقى له جمعة. امبارح بس حن عليا وجالي في المنام.

ـ دستور.

ألفياها لدى الباب.

ـ ادخلي يا (فرحانة) يا بنتي. محدش غريب.

تدخل والخجل يغض طرفها، وقد صارت شابة ظريفة الهيئة، ذات طباع مصرية هادئة، وصوت عذب، قد أفرغت في قالب الجمال، ووسمت بميسم الحسن. تفك الخط وتحفظ بعض السور القرآنية:

ـ سي الأستاذ (محفوظ). إزيك يا سي (محفوظ) أفندي؟

ـ تعيشي يا (فرحانة). عايزة حاجة؟

ـ إنشاللـه ما اعدمك. أنا كنت هخطف رجلي لسوق الجمعة، وقلت أشوف الأسطى (محفوظ) يكون محتاج أيتها شيء.

ـ كتر خيرك يا بنتي. (محفوظ) النهارده معانا. إلا انت ماقولتليش يا ابني حلمت بإيه؟

يتردد لحظة في وجود (فرحانة) ثم يقرر تجاهلها كما يفعل دومًا. تلقائيًا لا يصنع لها قلبه المشغول وزنًا، رغم أنه ممتن لها لخدمتها والده طوال أيام دراسته. طفق يقص حلمه ببساطة، وهذا أسعدها كي تستمع له للحظات. فهو مشغول طوال الأسبوع بالدراسة، ولقاءات أصدقائه من الأفندية الجادين، ولا تتمكن من أن تحصل على دقائق معدودات، في حضرته الوسيمة ولغته الخاصة، اللهم إلا هذا اليوم فحسب. اليوم جاءت مرتدية منديلاً جديدًا فوق رأسها:

ـ شفت يا ابويا حارتنا، وكنت قاعد على قهوة المعلم (عزيز) مع الأسطى (مختار) النابوليجي. ماكانش فيه ناس في القهوة ولا الحارة. وشوية وجه الدرويش. قلت دا شيء كان على الكيف والله. قام واخدني من إيدي للسما. وأنا لا كنت فرحان ولا خايف، دماغي كان مش منظوم. ووسط ضلمة ما يعلم بيها إلا ربنا، شفت النجوم بس كانت ملونة. ولقيته بيناولني نجمة منهم. بصيت لها لقيتها بقت شمعة بس غريبة شوية. قال لي «اللي تملكه اليد تزهده النفس، إلا المَيه دي. خد اشربها يابني. سمّي اللـه المغيث الرزاق» الشمعة كانت زي الكريستال بس الكريستال داهوت ميه، وماسكة فيها النار من غير ما تنطفي. حاولت أشربها ماقدرتش، وحسيت إني متكدر وإن المسألادي تقيلة. أتقل من آخر يوم في رمضان. قال لي «ماتخافش. هاقول لك تشربها منين. من ناحية النار»، قلت له « كده أتحرق»، قال لي «الميه دي تستاهل تتحرق لها». خفت لا يشربهاني بالعافية. قمت مقرب الشمعة السحرية دي من بوزي، وأنا خايف لا النار تمسك في شنبي، الميه كانت ريحتها أحلى م الكولونيا. بس أنا كنت خايف من النار.

ـ وبعدين يا سي (محفوظ)؟

ـ صحيت. خلصت الرؤيا.

واصل الأب مداعبته لرأس النسر دون تعليق، وألقى هذا نظرة ذات سمت غاضب دائم على (فرحانة)، ثم حلق نحو الإفريز. ومنه إلى الجو.

ـ خير يا ابني. الدرويش عمره ما يئذيك، دا راجل بركة وهيحرسك، حاكم أنا شفت كرامته بعيني. ماتنسيش يا بنتي تسلمي على الحاج (راضي)، وعدي على أخوكي وانتي راجعة م السوق وَكّليه، لأحسن بينسى ياكل من حبه للشغلانة.

ـ من عيني يا عم (محفوظ).

ثم وعلى غير عادتها في التطلع الخجول أبدًا لقدميه، رقيت ببصرها هذه المرة لشاربه المهذب، ثم تجرأت ونظرت مباشرة في عيني (محفوظ)، الشاب الطرير، وقد حملت عينيها الفاتنتان ودها ورجاءها:

ـ فوتك بعافية يا (محفوظ) أفندي.

اكتفى بهزة رأس رصينة، وغادرت هي في طرب كأنها في ليلة العيد، ولكنها لم تتجه للسوق مباشرة، بل إلى حجرتها لتختلس النظر عبر المشربية. طافت بذهنها أحلام وردية بهيجة، وتخيلت بفخر اليوم الذي تكون فيه زوجته أو بالعامية المصرية (حرمته) و(جماعته)، ملكه هو فقط ولا أحد سواه، تهبه وحده مخزون العمر كله من الحنان والاحتواء والعطاء، وبعد دقائق من ارتجافها وضربات قلبها الجبارة، شاهدت (محفوظ) الابن يخرج من البيت ويلوح بكفه القوية لوالدها ملقيًا السلام، ورغم الثواني القليلة التي استغرقتها مغادرته للمنزل، ثم عطفة الحارة، فإن الزمنَ نفسه بدا كأنه يتحرك ببطء وتهادٍ، ناقلاً لها مشهد كل خلية في ظهره المفرود وقامته العملاقة وحلته النورفولك الرمادية، المصنوعة من قماش التويد السميك، كل خلجة، وميل، وإشارة، والتفاتة تقاسي الولع بها، فلا ترحم فؤادها النضر الرهيف. كل صوت فائق الرجولة، تصيخ له عاشقة أضناها الانتظار، وبعد ثلاث خطوات يرتدي طربوشه، ليختفي رأسه عن نظرها، ثم يختفي جسده كله في انعطافة الحارة، وأصابعها الرفيعة تعتصر الأرابيسك في حب متعَب.

ـ قالوا استنى لحد ما ييجي الترياق من العراق.

التفتت بسرعة كادت تسقط معها قُلة الشرب القريبة، وهي تضع يدها فوق صدرها. كانت أمها (ستهم) هي من ألقت المثل الشعبي. دخلت بينما تظهر من ورائها صديقتها هي، (علية)، مليحة القسمة. ابتسمت في حياء. بينما فاض صوت أمها حنانًا:

ـ يا بنتي دا لسه تلميذ معجباني.

ـ بكرة يبقى أفوكاتو كبير يا امه.

ـ غير كده عامل ابن ذوات وبيتكلم في السياسة. يعني هيروح في أبو حديد.

ـ انتي بس اللي بتخافي من عم (محفوظ).

ـ بسم اللـه الحفيظ!

تحرك دائريًا أصابعها السبابة والوسطى والإبهام مضمومين فوق رأسها. أحيانًا تستبدل بهذه الحركة ما يشبه بصقًا هوائيًا خفيفًا في جيب صدرها، وهذا عندما تريد إنقاذ نفسها من التأثيرات الماورائية:

ـ الراجل غلب معاه أبوكي علاجات. مافيهوش حاجة وراقد، يبقى أكيد بسم اللـه الرحمن الرحيم هو اللي مسبب له العكوسات، ولو فضل ساكت على روحه هيجيله لُطف. خشي يا (علية) شوفي لك صرفة معاها، أحسن دي بورّيه منها. البت طابت واستوت يا ناس. ماله يعني (برغوت) ابن اختي؟ إكمنه بيشتغل شربتلي؟

تغادر مصطنعة الغضب وسط ابتسامات الشابتين. تقترب الصديقة وتهمس لها:

ـ بتحبيه يا بت يا (فرحانة)؟

ـ يا ألطاف اللـه ومين بس مايحبهوش يا (علية)، دي الناس على الأرض بتحبه، والطير في السما بيضلل عليه. يا سلام لو عترت على قلبه.

ـ فينه دا القلب؟

ـ من بعد ما رجع من بلاد الخواجات، بدأت تجيله جوابات بالأفرنجي على عنوان بيتنا، غُلبت أعرف من البوسطجي جاية من أنهون، ومن ساعة ما شفت لهفته عليها وأنا باسلمها نوبة لأبوه، ونوبة ليه، وشاكّة إنها جاياله من واحدة خواجاية.

فما تمالكت الصديقة أن ضحكت:

ـ يا اختي تفي من بقك، سي (محفوظ) راجل مصلي وعارف ربنا. خوجاية ايه دي اللي تعشقه ويعشقها؟

ـ أعمل ايه بس يا (علية). احترت وياه. طب قولي لي انتي أسوّي إيه؟

ـ بعضشي حب وبعضشي ملاغية.

ـ أديني قدامك أهو على البهلي. حطيت له كحل، ولبست المنديل. وهو عقله مش هنا.

ـ يكونشي. استنجلينا زي أبوه.

ـ فشر يا بهيمة الزرايب!

وارتفعت ضحكات (علية) حتى أمسكت صدرها، رغم انهيال (فرحانة) عليها باللكيمات والركيلات الرقيقة ردًا على خبثها، ثم لم تلبث أن خارت قواهما فوق الأريكة الخشبية العريضة وهما تتبادلان المرح. وينبض في قلب (فرحانة) البِشر والأمل.

* * *

غدامس

- «كان يسكنها أناس برؤوس كلاب»

تمهل الجواد وحوافره تنثر الرمال الذهبية الناعمة، احتراما لجذبة محنكة للجامه، من رجل بدا كملك أو أمير، ينتصب في خيلاء على صهوة فرسه، وقد صمتت الصحراء كلها في حضرته كأنما هي التي تهابه لا العكس. رجل في ميعة الشباب، أحاطت بقوامه السَّبْط وشِطاطِه المعتدل عباءة بيضاء ناصعة، يضوع منها عطر تونسي خشبي، بينما غطى نصف وجهه لثام أحمر أنيق، تبرق فوقه أعين صقر غاضب، كانت تجوس في الأنحاء، بخبرة، لو تضاءلت لحظة، أو تهاونت ثانية، لضاعت التضاريس من مخيلته، ولضل طريقه إلى الأبد، وهلك عطشًا وجوعًا، وتمزق لحمه وسط وحوش البيداء.

وعلى خاطر العطش، تذكر حلقه الجاف حاجته لبعض السائل. هواء الصحراء شديد الجفاف ينظف كل شيء، بما في ذلك العرق واللعاب. استخرج من جرابه بعض اللبن كعادة كل الطوارق، وجرع كفايته. هم يشربونه حامضًا. مر إلى جوار جبل (قصر الغول) في طريقه إلى (الظاهرة)، مستقر الطوارق خارج (غدامس). هم فرسان متفردون لا يختلطون كثيرًا بالعرب والبربر[1].

الأجنبي وصل إلى الواحة التي تجري من تحتها الأنهار، ولكن مثله لن يتحمل طقسهم طويلاً. وهو لا يريد أن تصليه درجة الحرارة، التي تتجاوز الأربعين بكثير، قبل أن يعلم لمَ جاء، وماذا يروم. انتدبوه لأنه يجيد الإيطالية، والأجنبي لا يجيد الطوارقية حتمًا، لكنه يبحث عن معلومات نسب قديمة. أي إيطالي هذا الذي يبحث عن تاريخ طوارقي قديم؟

جذبة أخيرة أقنعت الجواد بالتوقف. أتى عبد، وساقه إلى جوار مهارى الطوارق كي يشرب، فأقبل الجواد على الماء بسعادة ونهم، وأتى عبد آخر، وأشار للفارس ليدله إلى مكان انتظار الأجنبي. كان جالسًا في استراحة ظليلة وسط لفيف من الطوارق الملثمين المرحبين، والذين أغرقوه بما عده الأجنبي كرمًا مبالغًا فيه، وذلك حينما أولموا له ذابحين خروفًا سمينًا، يحاط بكرات الأرز والمزيد من اللبن الحامض، الذي لم يستسغه الأجنبي، مثله مثل كل سائل هنا ممتزج بالأملاح والزئبق والحديد، وما خفف عليه عدم ارتياحه، كان الهواء الصافي، النقي، المنعش للصدور والأرواح. وحينما دخل فارسنا الاستراحة، رأى ذاك الإيطالي الناحل، العصبي، رقيق البشرة متناسب الأعضاء، في لباس ديني وقور، فأقبل عليه وصافحه في هدوء، وكان أول ما تبادلاه بالإيطالية حينما قال الثاني:

- هل تجيد الإيطالية أخيرًا؟

أجابه من وراء لثامه:

- نعم.

زفر الإيطالي في ارتياح جم، وقال برجاء:

- أنقذني إذن من هذا الترحاب الشديد، كما أنني أملك كثير من الأسئلة.

وفي صمت اصطحبه الفارس بعيدًا عن الوليمة، وبمعاونة عبدين، ركب على واحد من تلك المهاري السريعة، التي قد تسبق الخيول. قاده عبد أسود عملاق إلى الصحراء الهادئة، وقد ظللت رأس الأجنبي سقيفة ملونة، متصلة بما يشبه المقعد الذي يجلس عليه، فوق ظهر الناقة الرشيقة؛

وفي الصمت المسالم والهواء المعقم، الذي أنبت سكينة شملت ثلاثتهم، قال الطوارقي المنتصب على جواده، بإيطالية مفهومة:

ـ هات ما لديك.

شعر الأجنبي بالحاجة إلى التعارف أولا، فوضع يده على صدره، وقال:

ـ الأب (مارشيللو). يعرفني الجميع في (البندقية) بالراهب الدومينيكاني، لكن علومي وتبحري، أشمل بكثير من أفكار راهب فينيسي عادي.

رمقه الطواري نظرة جانبية حتى يفهم ما يقوم به، ثم قال باقتضاب:

ـ (أخنوخا).

لم يقنع (مارشيللو) بهذا البرود، وأراد كسر الجليد ببعض الاستطراد، الذي يجد الأوربيون فيه حميمية ما:

ـ لقد وصلت (غدامس) أولا بطبيعة الحال. ولفت انتباهي أن السكانَ بضعة آلاف فقط، لكن ما أثار دهشتي تلك البيوت المتلاصقة، والشوارع الضيقة المسقوفة، المظلمة، في وضح نهار الصحراء البراق. عجيب. هناك نتوءات مثلثة على البيوت، ذات الأبواب المنقوشة بطلاسم وتعاويذ، لماذا؟

ـ لطرد الشياطين.

ومع الكلمة، تناهت إلى مسامع الأب (مارشيللو)، صرخة حادة بعيدة من قلب الصحراء، فارتعد بدنه، واضطرب فوق المهري اللامبالي، لكنه لم يلحظ أدنى تغير على العبد أو الفارس، فعزا الأمر إلى حيوان ما، وعاد يتساءل:

ـ سمعت أنكم تنتسبون إلى قبيلة (أوراجن)، التي هي إحدى فروع القبيلة الأم (فوغاس)، فما معنى (فوغاس)؟

كان مستمرًا في النظر إلى الأمام، حيث الأفق اللانهائي. أجابه في صبر وأناة:

ـ اشتقاق من (فغسي) المفترس. الأجداد من أصول نصف بشرية ونصف حيوانية.

انعقد حاجبا الأب. تذكر ما قرأ عن منشأ الطوارق:

ـ هل تقصد القصة التي تقول إن الصحراءَ في الماضي، لم تكن صحراء، وإنه كان يسكنها أناس برؤوس كلاب، ينبحون كالكلاب، لا يعرفون اللـه، وإن ملكهم (عكار) كان عاتيًا جبارًا؟

ـ تلك قصة قديمة، تحكيها العجائز للأطفال. الآن خبّرني عما أتى بك إلى الصحراء.

أدرك الأب (مارشيللو) أن هؤلاءَ الفرسان الطوارق، عمليون بالفعل، أكثر من بقية الغدامسة العرب والبربر، وأنه لا وقت لقصص العجائز. في الواقع عليه أن ينهي الأمر، ويخرج من هذه الصحراء الصامتة التي تثير قلقه:

ـ إنني أبحث عن سليل لعائلة قديمة يا (أخنوخا)، لا أعرف من يكون ولا أين هو، لكني أعرف عن جَدَّيه. ما لدي أن الجَدَّ قد تزوج بواحدة منا، أعني واحدة صوفية.

فكر الفارس أن الإيطالي مشوشٌ، أو أنه ربما صوفي في الباطن رغم غرابة الاحتمال. والأول يواصل:

ـ وتلك الصوفية كانت تحيا هنا، قبل أن ترتحل مع أسرتها، وقبل أن تتزوج هذا الجد المجهول. ما أريده تحديدًا اسم هذا الجد، فقط اسم. الاسم سيوصلني إلى العائلة التي أنجبها، والتي سأصل عبرها إلى السليل.

رفع الفارس كفه اليمنى نحوه وهو ما يزال ينظر إلى الأمام، وقال له:

ـ أمهلني.

نظر إليه الأب في فضول شديد ومهابة، واحترم صمته الذي طال. كان الطوارقي يتذكر، ويوقظ ذاكرته القوية، والتي راحت تستعرض تواريخ من يعرفهم من الطوارق، وأشهر قصصهم وأخبار أجدادهم وجداتهم، بينما تدور قافلتهم الصغيرة في قوس واسع حول (غدامس)، تلك النقطة الخضراء وسط البساط الأصفر الوهاج. بعد فترة احتسى فيها كل من العبد والأجنبي بعض اللبن الحامض، قال الفارس من تحت لثامه:

ـ لا ريب أنها الجدة الكبرى لـ(أخيا). أدرج هذا في قبره على يد ذئب، ولم يكن قد أخبر أحدًا سواي ـ للغرابة ـ عن قصة جدته (مبروكة) رحمها اللـه، والتي تنقلت مع إخوتها، بعيدًا عن حرب قديمة دارت هنا، حتى استقرت عند أعراب المشرق. لا أعرف لِمَ أخبرني عنها، ثم أنت تسألني الآن عنها. هل لديك تفسير؟

شرد الأب (مارشيللو)، وأجابه:

ـ قد يكون لدي تفسير يا بني. قد يكون. وهل تعرف أين يقطن أولئك الأعراب؟

ـ إنهم في كل مكان في المشرق. لكن لو أردت الوصول لشيء عن تلك العائلة تحديدًا، فما عليك إلا أن تصل لأبناء عمومتنا من طوارق الصحراء المصرية، ومن هنالك ستعرف المزيد لا ريب. الطوارق يعرفون تاريخهم جيدًا. الطوارق يعرفون أجدادهم جيدًا.

ـ أشكرك يا بني. أشكرك شكرًا جزيلاً، ويمكنني أن أدفع لك ما شئت.

عاد ينظر إليه بتلك النظرة الجانبية، ثم قال:

ـ لا أريد مالك. إن طريقكَ طويل وستحتاجه أكثر مني، لكني أريد أن أعرف لماذا؟

ـ لماذا ماذا؟

ـ لماذا تبحث بهذا الاهتمام عن ذلك الحفيد، أيها الصوفي؟

ثم تعجب أن نعته بهذا الوصف، الذي يناسب المعنى الإسلامي في ذهنه أكثر من المسيحي، لكن الأبَّ لم يتعجب إطلاقًا، بل شعر بحبور مباغت مع اللقب، وابتسم عندما دل قلب هذا الطوارقي عقله على هويته الحقيقية، وهو يجيبه:

ـ حتى نمنع قوم (أنوبيس) من الاستيقاظ. حتى نمنع الفناء.

ورغم غموض الإجابة، واحتياجها لألف سؤال آخر، فإن الطوارقي اكتفى بالصمت. الصحراء علمته الصمت، أمام رجل مولع بالثرثرة لا يريد أن يتكلم، وأمام الأسرار العميقة. الصحراء علمته مهابة إرثها القديم.

* * *

أورطة أخرى

ـ «آيسكوليه. آيسكوليه!»

ديسمبر 1862 السودان

كانت نصيحة الدرويش.

لم أكن قد أتممت عامي الخامس في هذه السنة الكئيبة الثانية والستين وثمانمئة وألف، عندما وجدت نفسي في تلك الأصقاع الجنوبية.

(دنقلة).

كلما كنت أسأل الوالد عن الدرويش في ورشته للمشغولات النُّحاسية، والتي كنتُ شبه مقيم فيها أعاونه، كان يضحك ويقول لي إنه غير موجود مثلنا، وكنت أعجب لقوله غاية العجب، لأنني كنت أراه كما أرى (رُخ) مثلا. طائر أبي الأثير كثير الترحال. وعبثًا حاول أن يشرح لي الفارق بين المخايلة والواقع، وأن الدرويش يقتصر ظهوره على دنيا الأطياف فقط، وهي دنيا ليست لها ذات قواعد الواقع.

لكن بعد تبعات النصيحة تبدّل موقفي كثيرًا، وصرت لا أحبذ ذِكر الدرويش، اعتراضًا وبرمًا من قرار الوالد الذي ترتب عليها، حيث أرسلني إلى هنا مع العم (إدريس الحاج) صديقه منذ أيام حرب (القِرم). صحيح أن العمَّ (إدريس) حاني الخلق، طيب المعشر، رقيق الجوهر، باسم المظهر، وأن زوجه العمة سودانية الأصل (جميلة) ذات الغضاضة والصباحة، قد بدت لي كأمي بالضبط في عنايتها بي ورعايتها الفائقة، حتى ولو لم أر أمي نفسها، إلا لمدة أسبوع واحد حالم في (الإسكندرية)، قبل ذلك التهجير الإجباري إلى الجنوب، فإن (دنقلةَ) لم تبدُ لي ودودًا إلى هذا الحد، لم تبدُ وطنًا مرحبًا، برجالها الذين يرتدي الواحد منهم شقة من الدمور، تبرز أسفلها سيقان سوداء عارية، حافية، بلا بنطال أو أحذية، وبنسائها المتحليات بالحجول والخلاخل.

فشا اختلافي سريعًا بين الأطفال السود من أقراني، فكان هذا مدعاة لظهور عنصرية سوداء ضدي، ما كنت أحسب أنها موجودة لدى السود، كما هي عندنا نحن البيض في الشمال ضد كل المختلفين. ضد الأسود والأحمر، والقصير، والسمين، والأعرج، والأبرص، والأحول؛ وحتى بين الأسوياء، استطاعوا ببراعة وحذق استنباط عنصرية أبغض ضد الفقير منهم!

ربما أيضا لا تحمل لي ذكرى (دنقلة) شيئًا طيبًا، عندما عرفت بعدها بسنوات حفلت بالمغامرة المهلكة، أن نفسَ هذا العام قد قبضت فيه روح أمي العزيزة، بسبب داء (الكوليرا)، الذي تفشى أولا في عروس المتوسط، فقضى على الحر والعبد، السيدة والجارية. أمي التي كانت آخر ذكراها ذلك الأسبوع السكندري قبل هذا المنفى السوداني، أسبوع من السحر اليومي بلا انقطاع. هل حقا عشت أياما كتلك؟ هل وقعت أيام (دنقلة) في مقارنة ظالمة لها مع أيام (الإسكندرية)؟ ليست (دنقلة) كلها سوء ويأس وبأس، في المنام والرفقة والطقس، فالعم (إدريس) هو أعظم إنسان بعد أبي والدرويش، والخالة (جميلة) هي الأعذب بعد أمي القبطية عجيبة الروعة، لكن كيف أنسى حكاياها. حكايات (كاترينا) كما يسميها الوالد؟ كيف أنسى قصصها المثيرة لشغف أهل الكون أجمعين؟ كيف باللـه عليكم؟

أسبوع كامل من الانتباه، والإصغاء، واليقظة شبه التامة، لم أرَ له مثيلاً مع أمي التي كانت جارية وأُعتقت عند زواجها بأبي، والتي ورث جلدي عنها بياض البشرة، وورث هيكلي طول القامة، رغم أنني لم ألقها إلا هذا الأسبوع القديم! وذلك انبهارًا واستملاحًا بحكاياتها وقصصها العجيبة اليومية لعقلي الصغير الحالم. حتى إنها رافقتني إلى الطريق ذات مساء، عندما توقف (قراجوز) مرح بالجوار، وراحت تتسمع صوته المنبعث من زمارة مضحكة، ثم ما أعقبه من أقاصيص خيال الظل، مكتفية بوصفي أنا الحماسي لما يدور. وهكذا كل مساء، يقظة وانتظار بلا ذرة ملل، كي تأتي الليلة الجديدة من السحر واللذة، حتى إن العمَّ (مختار) صديق والدي، الذي كان يرافقه في الثغر لبعض تجارتهما في أثناء إحضاري، تعجب عندما وصل لعنوان الحاج (راضي) العطار كافل أمي، ليتسلمني في نهاية الأسبوع؛ إذ وجدني منهك القوى شبه نائم، وهو يأخذني بلا

مقاومة مني، على الرغم من سيل القبلات، الذي ودعنا به أنا وأمي العزيزة أحدنا الآخر. كانت عيناي الربع غافيتين تراقبان عينيها العمياوين في هناء ووداعة وتشبع، وهما تنظران كالحلم إلى اللاشيء. تدمع في صمت، كأنما يعرف قلبها أنه اللقاء الأخير، ويعرف أنفها أنها آخر مرة سيشم فيها رائحتي، وأننا سنفترق إلى الأبد. والعم (مختار) يبتعد بي عن الدار. ألوح لها مبتسمًا وهو يبتعد، وتلوح لي دون أن تراني وهو يبتعد.

لم أكن أعرف أن الوالدَ يُكفِّر عن بعضِ ذنبه تجاهها، وكان عقلي الغر يقنع آنذاك ـ بيسر ـ بحجة أن كفَّ بصرها مرض يحتم عليّ تجنبها طويلاً؛ كمبرر فرقة وبُعد. ليس لأن والدي كان فاقدًا لرشده وهو يقترن بها، وقد خيل له أنها حبيبته الوحيدة المفقودة (ملك جهان).

لكن هأنذا ابن آخر يسير على درب أبيه. هو فقد والديه وأنا افتقدت والديّ، أمي أبعدتها الظروف عني، ثم لحقت باللطيف الخبير، دون فرصة جديدة للقاء آخر أخير، وأبي احتجب عني في وساوس الماضي، بنفيي أنا وذلك الجني الرابض في أعماقي. صحيح أنه عُني بتدريبي كل عنايته، ولم يدخر وسعًا ولا مجهودًا حتى يطمئن تمامًا إلى قدرتي على السيطرة عليه، وإلى مدى إظهارى للمسؤولية قبل أن أناهز الإدراك تجاه هذه القوة الخارقة، بل وعُني بتثقيفي كذلك، إلا أنه لم يخبرني أن القدرَ قد يجبرني على السير على نفس خطاه، كل خطاه.

حرب؟

أنا أيضا سأخوض الحرب؟

هذا ما جرى وهو ما دفعني دفعًا لحفظ كل ما مر بي منذ هذه اللحظة عن ظهر قلب، حتى أدونه متى وفّر لي الزمن فسحة من طمأنينة وإدراك واستقرار. فحتى في أعجب أحلامي لم أتخيلني أنا الطفل ذا الخمسة أعوام طرية، في حرب ضروس في أقصى وأقسى نهاية العالم المعمور.

لقد هربت من المحروسة كلها إلى هذا الركن الهادئ من الخديوية المصرية، فهل تطارد الأقدار ذوي المصائر المكتوبة بهذا العناد حقًا؟ أم لعل القدرَ كان أن آتي إلى هنا بالذات، والآن تحديداً، حتى يمكن لهذه الحرب أن تلتقمني في فيها الأبخر الأسود العميق، فلا أعود (محفوظ) الصغير محب القراجوز؟

هنا في (دنقلة2).

التي بذلت أسرة (محمد علي) النفيس والرخيص لجعلها مع بقية الأراضي السودانية، جزءًا متحضرًا مهمًا من المملكة.

ورغم كل هذه الدماء والأموال والمجهودات، سيرغمنا الاحتلال الإنجليزاوي فيما بعد على التخلي عن (السودان) المصري بمنتهى البساطة.

كانت نصيحة الدرويش.

فالرؤيا كانت واضحة بعد انقطاع ووحشة. كان العم (درويش) يرتدي بياضًا شاهقًا، من عمامته مرورًا بمسبحته اللؤلؤية الضخمة، انتهاء بطرف جلبابه وذيل عباءته، وطلب من والدي فيها ما نصه: «يسير الولد بسيرة والده، ولا يسير بسيرة والده! أبعد ولدك مع النوبي حتى يشب عن الطوق يا (محفوظ) يا ولدي. أبعد (محفوظ) الصغير حتى ينقذ ما يمكن إنقاذه».

ولم يكن أبي يعرف من النوبيين سوى العم (إدريس) صديق معارك (القرم)، والذي رحب برعايتي بحبور وانشراح بالغين حتى أتجاوز طفولتي مع عقبه، فجاء بي هنا. إلى جوار النيل البكر، وسط نخيل التمر، وفي بيته المبني من الطين النهري، أزرع وأفلح معه أرضه الصغيرة لاستنبات الفول عصرًا، وذلك بعد هذه الكتاتيب البدائية. وفي (الكُتّاب) كنا نجلس على حصيرة خشنة، بالية، بجوار زير ماء مغطى بالخشب، وقد علق فيه كوز الشرب بحبل مهترئ، وكل منا يمني نفسه بغمس الكوز للشرب عندما يرتل بشكل صحيح، بلا جدوى، في ما عداي، حيث كنت الوحيد الذي يفلت من مقرعة سيدنا الشيخ، فيفوز بالشرب في أي وقت يشاء، بعد أن أنال رضا الفقي، ولكن سيدنا الشيخ لم يكن يجيد غير حفظ القرآن، ولم أسمع منه حديثًا نبويًا واحدًا، بيد أنني كنت أخشى حتى أن أفكر في هذا كيلا يقرأ أفكاري، وكنت أتعجب من عدم وجود بنت واحدة في الكتاتيب، حتى أخبرني العم (إدريس) في مرة تفسير ذلك البسيط، وهو أن تعليمَ الفتيات من المصائب العظيمة! فلم أقنع بالسبب، رغم أنها كانت ثقافة العصر كله.

وفي كثير من الأحايين كنت أعاون (سعد) شقيق الخالة (جميلة) الأصغر في عمله بالحدادة، لخبرة صغيرة اكتسبتها أصابعي في ورشة أبي لنقش النُّحاس، وعندما يحين وقت الغداء يفك كل منا صرة الطعام، المكونة من منديل معقود على رغيف وبعض الجبن وبرتقالة، وفي الأمسيات يستمع لي في إعجاب وأنا أُملي عليه العلوم التي علمنيها أبي، حتى ولو لم يفقه منها كلانا حرفًا، بينما أتحاشى دومًا الكلام عن سري الخفي.

لم يحذرني الوالد في حداثتي القصيرة معه إلا من شيئين: إفشاء سرّي، والحرب. الحرب التي قاسى فيها الويلات، ولاقى فيها شياطين الماضي التي تطارد لعنته ولعنة نسلنا وجدي الأكبر. (ابن النحاس) الذي نحمل تباعًا ابنًا بعد ابن وجيلا بعد جيل، وِزر مغامرته الغابرة. ما الذي حمله على أن يقدم على ما أقدم عليه حقًا؟ هل يكفي الفضول كي تؤاتي المرء منا جرأة السقوط في المجهول عينه؟ خوض غمار عالم مختلف في كل شيء عن عالمنا الذي نعرفه؟ أم أن المكتوبَ على الجبين لا ريب ولا شك ستراه العين كما يقول المثل يا جدي؟

كانت الخالة (جميلة) تحنو عليّ كما لو كنت ولدها بالضبط، وكان هذا من الأشياء القليلة التي عمقت ذكرى أيام (دنقلة) بالتفصيل. كيوم حديثها معي في أحد نهارات (السودان) المشمسة الحارة، حين يكاد عرق الرؤوس يغلي فوق الجباه. فبينما أنكب منحنيًا فوق أرض الفول الصغيرة بفأسي القصيرة، كانت هي قد أنهت للتو وضع ثمار التمر الهندي في وهج الشمس، حيث ستصير أقراصا كبيرة من (العرديب) الذي تنتجه نساء (دنقلة) كلها، ثم ولت وجهها صوب موضعنا بجوار الساقية، تعلو وجهها بسمتها المنيرة، حاملة فوق رأسها لفافة الغداء الكبيرة، وقُلة الماء مربوطة تتدلى على ظهرها؛ وبينما تتأرجح ببطء، سبقتها أنا صوب شجرة السنط، وجلست مسندًا ظهري إلى جذعها الصبور، بينما أتأمل كلب الحراسة الأشهب، الذي لا يني عن النباح ليلاً لإبعاد الذئاب، والعدو نهارًا بين الزروع لمطاردة الفئران أو أية دويبة مذعورة؛ كانت لا تزال بعيدة قرب البيت الصغير، فرحت أتفكر كعادتي بانتظارها.

هذا الكلب ينام في العراء ولكنه شديد الإخلاص لنا، مجبول على وفاء نادر، وهو كسائر الحيوانات بغير حاجة لأثاث، هكذا أنبأتني أفكاري الطفولية الخاصة، هو بغير حاجة لتعليم أو صنائع أو حتى حديث منطقي هادئ، علمني والدي أن عادات الحيوان ـ لعلة غامضة ـ أقل شأنا

من عادات البشر؛ تختلف عادات البشر أنفسهم في ما بينهم، ففي المحروسة يجلسون على المقاعد، بينما هنا لا يحتاج الدناقلة لهذه الكراسيّ، أما الحيوانات جميعًا فلا تحتاج لمقاعد من أي نوع!

عندما فرغت، كانت الخالة (جميلة) قد وصلت وهي تلهث بنوع من الرضا والسعادة، رغم الجهد الجهيد الذي بذلته، يطارد الأشهب طرف جلبابها الزرعي الواسع، كأنما يطارد أحلامه الخاصة. تضع لي وللعم (إدريس) الطعام، وهي تربت عليّ وتطعمني بيدها السمراء اللامعة، محاولة إضحاكي بأي شكل لإخراجي من عبوسي المستمر، وعندما نهض العم (إدريس) من أسفل الشجرة الظليلة التي تجمعنا على الغداء لاستئناف العمل، يتبعه النابح النشيط، استبقتني الخالة، وراحت تلاطفني وتثير الدعابات، فرقّ قلبي لمحاولاتها الدءوب المفضوحة طيبتها، والتي أعرف أنها لن تقلل همي، ذلك الهم الذي يبدو غريبًا ومتناقضًا على أي طفل، وحاولت الرد على كرمها مصطنعًا الفضول كي أبدو مهتما، فسألتها ذلك اليوم:

ـ أخبريني يا خالة. ما الصوت المنغم الذي ترامى إليّ من غرفتك ليل أمس؟

غشاها الحبور الكبير، كما لو أنني استيقظت من غيبوبة، أو أقاموا حفل ختاني، وأسرعت تقول هاشة باشة، وقد بدت في حالة انشراح كبرى:

ـ إنها الموسيقى. ما أجمل الموسيقى يا ولدي. إنها بئر الحماس ومنجم السلام، لا تعرف الفلاحات هنا شيئًا عن الموسيقى إلا طبول حفلات (الدلوكه)، ولا أنا كنت أعرف عنها إلا اسمها، حتى تزوجني عمك (إدريس)، وهنالك في (النوبة) غنّى لي وهو يعزف على عوده النحيل الموسيقى الحقيقية، تلك الأوتار تسكنها الجن لا ريب يا ولدي، ومنذ أن غادرنا بلادكم إلى بلادي هذي، وأحب شيء أحتفظ به هو هذا العود النحيل. ما أشهى الموسيقى! لا أعرف من أين تأتي الألحان، ولكن منذ علمني عمك العزف وأنا أبتكر بعضها كلما شعرت بالضيق.

ـ وكيف تكون شهية؟ ألها مذاق على اللسان؟

كنت ذكيًا كما أخذ الجميع يخبرونني مصرّين طوال الوقت، ولكن لا يغني الذكاء عن المعرفة، وهذا ما لم يخبرني به أحد إلا نفسي.

ـ لا يا (محفوظ) الغالي، تشتهيها الروح لا اللسان، فكما يشبع الرسم العين، والأكل الأمعاء، تشبع الموسيقى الأذن. وتأخذها إلى عالم بعيد نظيف هادئ لا شقاء فيه، كلما شعرت بتوعر الحياة التأجت لذلك العود النوبي.

ـ هل هذا العالم الهادئ عند منابع النيل؟

ـ لا يا ولدي. أخبرني عمك (إدريس)، أن وادي النيل في (مصر) المحروسة و(دنقلة) العُرضى، هو فقط الأرض الطيبة، أما الأرض البعيدة والجبال الغامضة والغابات الظليلة، ففيها المسوخ المخيفة والمسوخ العجيبة!

هل تراه يقصد ما رآه في (القِرم) عندما أخبرها بهذا؟ وهل هناك أعجب من المِسخ بداخلي؟ ولكن في أيامي الأخيرة في (دنقلة)، رسمت همومي سحابة أكثر كثافة على وجهي، كأنني أستشعر ما ستحويه بطون الأيام التاليات.

ذات مساء بارد، وبينما يصلنا أريج العجين الثري الذي تعده الخالة باقتدار، كما لو كانت تعزف نوعًا غذائيًا من الموسيقى، ناداني العم (إدريس الحاج) للعشاء وهو يهش الدجاجات، وقال لي متفقدًا يومي ونحن نجلس على الطبلية المصنوعة من الأخشاب المتينة القديمة:

ـ علينا أن ننتهي سريعًا من جمع محصولنا، فحركة التجارة بين (كردفان) و(مصر) في ازدياد.

ـ وما علاقتنا بالتجارة بينهما يا عماه؟

ـ معلوم أن لنا علاقة. إن طريقَ الأربعين بين (دارفور ـ أسيوط) قل استخدامه. لذا فالتجار سيسلكون الطريق المار بنا. (الأبيض ـ الدبة).

ـ وهل سنبيعهم الفول؟

ـ كلا. فقط التمور والعرديب. أما الفول ففي السوق.

ـ إذن آتي معك إلى السوق. ماذا يباع فيه؟

ـ جميع أنواع الأقمشة، والطرابيش، والأحذية، والأواني الزجاجية، والبن، والسكر، والتوابل.

ثم إنه لاحظ أنني أجرّه عامدًا لحديث لا أهتم له فعليًا، وبنظرة يلتمع فيها الذكاء، سألني مباشرة:

ـ يا (محفوظ) كيف حالك؟ هل هناك ما ينغص عليك يا ابن الغالي؟

شعرت بالحيرة لثوان، وشردت في قربة لبن معلقة على جدار البيت الريفي، أسفلها منخل لتنقية الدقيق وغربال لتصفية القمح، ثم تذكرت كل مخاوفي وأحزاني دفعة واحدة، فأطرقت صامتًا بإجابة بليغة، فربّت عليّ الرجل الحنون، وقال مبتسمًا ابتسامته البيضاء المطمئنة:

ـ إنك تقضي وقتك بين الحقل والحدادة، وفي الليل المسامرة بهذه التلقينات التي علمها لك والدك العظيم، لكنك ما زلت كتومًا حريصًا محاذرًا، كأنك تخفي الكثير، تتظاهر بالحديث الطبيعي وبالكَ مشغول دومًا. يا (محفوظ). أما الغربة فنحن نعاملك كالولد بعد أمر اللـه بانعدام الولد، أعرف الغربة لأنني نوباوي ولست دنقلاوي كخالتك. هذه الغربة مآلها الكف والانتهاء، فلست قائمًا بيننا إلى الأبد، بل حتى ميقات معلوم، وأما المعرفة، فقد رزقك اللـه بها على يد والدك، صديقي، عافاه اللـه، وأما الحزن فاصبر يا ولدي. ستلقى والدك قريبًا بإذن اللـه. أما علمت أن والدكَ (أوججي)!

لربما كان متعمدًا المناورة، وربما لا، لكنه نجح في إخراجي من همي، كي أتطلع إليه بفضول طفولي، وقد آنسني ذكر وسيرة أبي. تطلعت إلى طاقيته النوبية الملونة بزخرفة بديعة، زخرفة هي العتبة الأولى للفن، وأنا ألقي نحوه بتساؤلي الشارد:

ـ ما أوججي؟!

قال بحماس عجيب نقله لي بطريقة سحرية ما، مفسرًا كلمته النوبية ذات اللهجة الدنقلاوية:

ـ أوججي تعني (شجاع). والدك أوججي عظيم وبطل مغوار، شق لنا طريقنا في حرب (القرم) بفروسية ملحمية.

جلست القرفصاء وأسندت ذقني المنمنمة على كلتا قبضتي مصغيًا، وأنا أتوجه إليه بأجمعي كعادتي عند الاهتمام بحديث:

ـ أحقًا يا عماه؟

ـ بالطبع. وهل كذبتك قط؟ أيام الجندية القديمة، كنا نواجه الموسكو الكفار الأشد بأسًا بين جيوش الأرض، في معركة (سيفاستوبول) الرهيبة، وبدا والدك كرجل خارق عندما سحق مغاوير الأورطة الروسية عن بكرة أبيها، وبمفرده.

صعقت من الحماس والوله والجذل، وهو يروي ويروي ما جرى، لربما أضاف له من خياله، محاولاً تفسير القوة الغريبة التي غشيت والدي، ثم ورثتها أنا سرًا، لكني كنت أعرف التفسير الحقيقي وأرتجف كي أكتمه، فلا يبدو عليّ فهمًا لما يرويني. حقًا كنت أسبق عمري الحقيقي كثيرًا في طبائع التفكير والحرص والتخطيط، التي احتملتها من عقل أبي أيام التدريب القديمة.

يا للفخر. والدي (النحّاس) أوججي، وليس مجرد حرفي فقير.

خاض حربًا في الشمال المظلم البارد. وأنا أيضًا سأخوض حربًا في الغرب البعيد الملتهب.

نعم. اندلعت الحرب في القارة الأمريكية بالعام الفارط. في هذا العصر وُجد الرجال كي ينحروا على عتبات إله الدم والنار المقدسة، حتى ولو لم يؤمنوا به. وصوّب الإمبراطور الفرنسي قريحته نحو المحروسة ضيعة الأورباويين الجنوبية الدافئة، التي يهيئها لهم أفندينا الحالي خير تهيئة، بعد تخلي الإنجليز والإسبان عنه، فانتفض الوالي ومن بعده أفندينا لإشارة إصبعه الإمبراطوري المتورد والمنعم بالصحة، وأرسلا أورطة جنود لدعمه. الأورطة الورطة. فقد كانت هذه التجريدة تتربص بأرض سودان (مصر)، من أجل التجنيد الإجباري أو قل الخطف المنهجي، وكان من الممكن أن أفلت منها كطفل حتى آخر لحظة، بل إن العمَّ (إدريس) حاول تهريبي بالفعل، مشفقًا، قبل إلقائهم القبض عليّ في نفس سنة وصولي (دنقلة)، وعندما سمع باقترابهم وتمشيطهم لـ(دنقلة) من (سعد)، والذي جاء عدوًا وهو يلهث كفرس رهان، صرخ العم بي:

ـ آيسكوليه. آيسكوليه!

أي الساقية. عندما ينفعل العم (إدريس) الطيب، سواء سعادةً أو حماسًا أو هلعًا، فإنه يتكلم بلغته النوبية الأصلية، التي حفظت منها كثير المعاني، ولا ريب أن الانفعال كان انفعال الرعب والخوف، هكذا انطلقت أعدو تحت جنح الليل نحو الساقية القريبة لأختبئ. أعدو وسط الفول المزروع، وأستشعره بقدميّ الحافيتين باردًا رطبًا، أستشعره للمرة الأخيرة ربما. الأرض تنبت ما نبذر بلا توقف، فيذهب الحصاد وتمر في الحلوق الثمار، وتبقى الأرض. الفول رفات الأرض، وزروعها بقاياها التي تبقينا.

خلتني أفر، ولكن الجنود الذين اقتحموا الكوخ وقبضوا على (سعد)، واستجوبوا (إدريس) بعنف، لم يجدوا منه أي ملمح يشي بأنه سيخون الأمانة ويسلمني، ولكنهم عثروا على ثياب طفل طويل هو أنا، هكذا خرجوا بالعم (إدريس) أمام الدار. رأيتهم من بعيد على نور القمر. أجبروه على الركوع في قسوة، وهتف قائدهم إنهم سيردونه قتيلا ما لم أخرج فورًا. كنت أعلم أنهم سينفذون وعيدهم ببساطة، وكنت أعلم أنني لن أترك العم (إدريس) يصل لهذا المصير. كانت تعليمات أبي ما فتئت تدوي في أذني مشددة:

ـ لا تختبر قوتك. ما زلت صغيرًا. لا تغتر بقوتك ولا تظهرها إلا إذا تهددت حياتك أنت فقط. هل تفهم؟ أنت فقط.

هكذا ظهرت لهم مستسلمًا، حاولت إقناعهم بأنني طفلاً ما زلت، حدثًا ما زلت، ولكن بنيتي الفارعة ـ أو بياضي المختلف ربما ـ جعلتهم يضمونني إلى (سعد)، ويجروننا كالأنعام أمام ولولة الخالة (جميلة) المنهارة، والممزقة لنياط القلب، على شقيقها وعليّ، والتي بدا معها أننا نساق إلى الجزارين؛ وأمام دموع العم (إدريس الحاج) اللاهبة لجنبات الروح. وأجبرت نفسي على الابتسام، وأنا أقول له بينما أبتعد إلى مصيري:

ـ لا تخش يا عماه. لا تخش.

أعطاني مسبحة من الكهرمان ارتديتها حول عنقي وأنا أغالب دمعي، وكان آخر ما رأيته منه عندما بكى وهو يصيح بي:

ـ راسلنا يا ولدي. راسل أباك الغالي. لا تضِع مني ومنه.

وسالت قطرتان من عينيّ المتبسمتين.

ومن بعيد سمعت صوتًا ينبعث من الدار، يعد في العادات السودانية أعظم رد فعل لأكبر داهية: الدق على النحاس.

كنت آمل أن يفرجوا عني على الأقل في نهاية الأمر بعد توقيع الكشف، لكن من قال إن الحملةَ ـ بالعند فيّ ـ لن تضم 22 طفلاً تحت سن التجنيد وحتى البلوغ، لأسباب تغيرت ما بين معاقبة وإعجاب بالقوة والطول، وبين خدمات مدنية متنوعة في أثناء الرحلة البحرية الطويلة؟ هروبي وحده جشمني هذا الاختطاف، حتى لو لم يكن في نيتهم أخذي.

مرحبا بك مع تصاريف وألاعيب القدر الماهرة. لو كنت تختبئ في ثقب سوداني، ستندلع حرب مجنونة في (مكسيكا)، بلادك ليست طرفًا فيها، لكن (نابليون الثالث) سيلمحك هنالك مختبئًا، وسيطالب بمجيئك قبل أن تعرف وتنوي حتى الاختباء، لتشارك خصيصًا في الحرب عبر المحيط، فقط لأن أوارها تنتظرك أنت بالذات على أحر من الجمر!

لم يخبرني الوالد أنني سأذهب لحرب مثله، ولم تخبرني أمي أن بياضيَ وطول القامة الموروثين عنها يؤديان إلى التجنيد القسري، ولم يخبرني الدرويش لماذا نصح (النحاس) الأب بإبعادي، ولم يخبرني مخلوق أن (مكسيكا) حارة كالجحيم!

أو بالكنزية الدنقلاوية: حارة كالإييج!

* * *

في الغرفة الخشبية

ـ «البدن سليم والنفس معطوبة»

قبل أغسطس 1879 بسنوات عديدة. نحو عقد من الزمان.

رآها.

(محفوظ النحاس) في مكان أشبه بمعبد فرعوني، مزخرف بزهور اللوتس الملونة، يجلس القرفصاء، وقد أحيط بأعواد من بخور مبهج منعش الروائح، بينما، وفي بهو المعبد الواسع والذي يتألق بنور الشمس، تجلس (مُلك جهان)، مليحة المعارف لدنة المعاطف، محاطة بطبقة مذهلة الروعة من سحاب أبيض وفضي، كأن السحاب ينبت من تربة شعرها المُرجَّل، وكان يتشكل أحيانًا في هيئة بشرية، كأب حنون يحيط رأس ابنته بيدين من سحب كثيفة بطيئة التموج.

فشعر بروحه مستقرة ساكنة، وخواطره هادئة مهادنة، وابتسم في ارتياح جم، وقال برقة المهتم لا المغتم، وهو يرنو إليها:

ـ حبيبتي، قرة عيني، حبيبة العمر.

ابتسمت فأشرق وجهها بالحبور والعطف، نظرت له مليًا، وقالت بصوت ملائكي يبعث نسيمًا من دنيا الأساطير:

ـ كيف حالك يا أعظم الناس وأوفى الرجال؟

ـ الآن فقط عادت إليّ روحي وعدت لها يا منية النفس. ويبدو أنني لن أمسك عن جلد الذات بعدما رحلتِ يا (ملك جهان).

ـ منذ أن عبرت وأنا في كرب مقيم، وما أن تمكنت من رؤيتك عند صخرة الأبدية، حتى خفف لقاءك ألمي.

ـ مثلك لا يعرف الكرب والألم، ولا ريب أنَّ الجنةَ ستكون مستقرنا معًا. لو قبض اللـه روحي الآن سأكون في رحمة بمغفرته وبلقائك.

ـ منحك اللـه طول العمر والصحة يا (محفوظ). ويا ليتنا نلتقي في الجنة حقًا. ليتني أخرج من هذا المكان الموحش.

تلاشت ابتسامة (محفوظ) في بطء وحيرة، وقال بقلق امتزج بحبه وعشقه:

ـ أي مكان يا زهرة القلب، وجوهر الروح؟ هل أنتِ في عالم البرزخ بعد أن قتلك السحرة الملاعين؟

طفق السحاب المركوم حولها يصير أكثر خفة وشفافية، يفقد تماسكه وكثافته على نحو مزرٍ. وبدأ صوتها يخفت ويتلاشى تدريجيًا، وهي تغمغم بالتركية العثمانية:

ـ بني أولدرمديلر أسطا (محفوظ). بني أولدرمديلر!

أي لم يقتلوني يا أسطى (محفوظ). لم يقتلوني.

امتزجت كلمة (يا أسطى محفوظ) بصوتها الندي، مع صوت فتي ذكوري حاد، ففتح (محفوظ) عينيه بانزعاج وتوتر مباغتين، ليجد نفسه وقد غفا كعادته في الأماكن المفتوحة، كما هو الآن أمام ورشته، ومن بعيد عينا النسر الأبيض (رخ) الذي يصاحبه تحدق فيه بحدة، فوق حافة (غية) حماماتها تضطرب بالخوف منه، قبل أن يحلق مبتعدًا؛ بينما صبي الورشة (محمد)، الضامر، بادي العظام، حسن الملامح، يكرر ندائه الذي اخترق حلمه الغريب:

ـ يا أسطى (محفوظ).

حملق فيه لوهلة حتى انتبه إلى ما رآه، وأنه كان مجرد حلم عزيز بعيد المنال، فقال لمساعده ببعض الجفاف، وهو يرشقه بنظرة قوية:

ـ جرى إيه؟

أشار إلى طبق نحاسي عليه سورة الصمدية، محاطة بزخارف عثمانية:

ـ كله آلسطة.

كان أول أعمال المساعد تحفة بديعة بالفعل، تستحق إشادة كبرى وربما مكافأة، ولكن الرؤيا كانت قد أصابت (النحّاس) ببلبلة واضطراب واضحين، فأشاح بيده في صمت بما يفيد عزوفه عن التركيز الآن، فانسحب الفتى باحترام وقد فهم إشارته على الفور. وجملة الحلم تتردد في ذهن (النحّاس) مرارًا بنفس التركية ذات اللهجة الأرستقراطية ما معناه:

ـ لم يقتلوني.

شعر بالأمل يرج قلبه بعد أن رآها أول مرة منذ طوتها الغبراء.

ولكن كيف يأتيه أمل زائف كهذا، وهو مجرد حلم؟ حلم أيقظ حِدادًا طال كبته.

إنه يتذكر المشهد المرعب بحذافيره.

لقد تمزق جسدها الشاحب بطريقة غير عادية، بل ولا يمكن تخيلها ما لم تُر رأي العين.

تمزق أشبه بالتلاشي، على يد رجال بلا حدقات، كانوا يومًا سادة نظام قديم عظيم، ثم لم يلبث أن سقط النظام، وتبقوا هم بكل فسادهم وعفنهم وشرهم، ولأنهم كالفطر لا ينمو إلا على المواد العضوية الحية والطازجة والمتفتحة، فقد كانوا بحاجة لنظام جديد كي ينخروه، ويمارسوا فيه ما اعتادوه من تغوّل واستعباد وشراهة واشتهاء، لذا جاءوا إلى عالمنا، وفكر (محفوظ) في حديثه للذات: «قد قادهم لأرضنا جدي الأول سامحه اللـه. وقاومتهم في غمرة انتقامي وسط حرب (القرم)، ولكن تبقى كبيرهم وفرعونهم الأعلى. حتى انتقامي لم يتم ويكمل». وهكذا رحلت (ملك جهان) بوسيلة فريدة وبشعة.

كان كبير هؤلاء السادة يصوب شيئًا ما نحوها، ويطلق شعيرات الضوء من فمه، والتي تصاحب لغته وتعاويذه الغامضة، وتلك الهالة تحيط به، ومن فورها تفتتت النبيلة التركية، واستحالت أثرًا بعد عين[3].

لن تعود (ملك جهان) بالأحلام والأمنيات. فنِيَت بسحر ما ولن تعود.

ثم تذكر جنونه في (الإسكندرية) من فرط ما اغتم وكمد على فراقها، فصعبت عليه نفسه، واغرَورقت عينه بدمع مر، فأخفى وجهه، وبارح الورشة مسرعًا صوب الجنوب الغربي، ومن (النحاسين) قطع منطقتي (الموسكي) و(عابدين) كلهما، حتى وصل لخط (قناطر السباع)[4] الحي الذي يقطن في أكبر مناطقه. (الناصرية)، والتي وصلها سيرًا على الأقدام. وقرب داره في الشارع الذي يؤدي إلى (عطفة ثابت)، كان المعلم (عزيز) صاحب المقهى الوطني، يغازل بطريقته الشعبية فتاة لطيفة التكوين، ترتدي ملاءة اللف والبرقع:

ـ يا بخت اللي قاني.

سمعته الفتاة فألقت عليه نظرة جانبية باسمة وهي تواصل مسيرها، فألقى الرجل أنبوبة الغاب التي تصنع منها شُبُك الدخان، وهو يجذب شعيرات بارزة من أسفل عمامته، وينهض هاتفًا:

ـ يا جمال النبي!

وهنا مر به (محفوظ) ساهمًا، فانتبه له المعلم وأسرع يعتدل ويحييه:

ـ يا مرحب يا اسطى (محفوظ).

ولأول مرة في حياته لم يرد (محفوظ) التحية، وهو يواصل طريقه شاردًا واجمًا، فارتفعت حواجب الجميع في دهشة وهم يرمقونه، خاصة أنهم يعلمون جيدًا مدى دماثة الرجل، إضافة إلى حجم شهرة المعلم في الحارة، حتى إن (ست الدار) بائعة الخس علقت في جزع:

ـ اسم النبي حارسك يا ابني. دا حتى لسانه بينقط شهد.

عاد المعلم (عزيز) البدين البطين للجلوس فوق المصطبة الرحبة، والتقط القصبة ذات الأربعة أقدام وجذب منها نفسًا، وهو يهز رأسه متعجبًا من تصرف (محفوظ)، وأطلق النفس دخانيًا كثيفًا، وهو يرد على سؤال خفي ألقاه على نفسه:

ـ هو الشهادة للـه ابن أصول.

وبينما يتساءل عما أصاب جاره وزبونه، عادت (ست الدار) ترش الماء على الخس وتصيح بندائها اليومي التقليدي:

ـ خسك يا مليجي.

أما (محفوظ) فقد واصل طريقه حتى غرفته، كأنه يفر من العالم كله. أو كأن العالم هو الذي تطاير من بين أصابع كيانه.

ثم ترك العنان لتلك المآقي الممتلئة المعذبة، ولم يغادر فراشه طيلة هذا اليوم، وهو ينظر إلى يديه وجسده. مواصلا أفكاره المريرة الغضبى: لماذا استعصى عليه هذا البدن يومها، ولم يسعفه لإنقاذ محبوبته الرقيقة؟ كيف لا يتمخض أي جسد عن قوة خارقة، لإغاثة ملهوفة بجمال تلك النبيلة؟ كيف؟

وفي اليوم التالي عندما تأخر مروره الصباحي المعتاد على جاره الحاج (راضي) العطار، مؤجر المسكن، وصاحب محل العطارة أسفله، ووالد صبي الورشة (محمد)، جاء هذا الأخير يدفع أطرافه المتقاربة ليطل عليه في توجس. فتح (النحاس) الباب بعسر وسرح فيه نظره، ثم شعر أن ساقه لا تستطيع حمل جسمه، فسقط أرضًا مغشيًا عليه، وأصاب الحاج (راضي) العطار مس من الجزع، وصرخ وهو يسرع لرفعه:

ـ لا حول ولا قوة إلا باللـه. أسطى (محفوظ). استر يا رب.

مرت ساعة، ثم استيقظ النحّاس على أَرَج بخور (ستُّهم) زوجة الحاج (راضي)، وابتسامة الرجل وابنته الطفلة (فرحانة)، وجاره يقول له مداعبًا:

ـ أهو انت من ساعة ما المحروس راح (السودان)، وانت مش على بعضك كده.

وقالت الأم وهي تطوح بالمبخرة:

ـ حقه بطلوا ده واسمعوا ده، أكيد عمل ومعمول له.

سألته (فرحانة)، وهي تقفز على حافة الفراش:

ـ حاسس بإيه يا عم (محفوظ)؟

تأملهم في امتنان، ومسح على ضفيرة الصغيرة، ثم غمغم:

ـ مافيش. يمكن بس علشان على لحم بطني من امبارح، فالجتة ماستحملتش.

ضربت (ستهم) صدرها في وجل حقيقي:

ـ يا ندامة، قوام يا (فرحانة) هاتي حلة المحشي، لازم الجدع يتأوّد. دي عين وصابتك يا سي (محفوظ).

هرولت (فرحانة) صائحة:

ـ من عينيا.

وخرجت أمها وراءها وهي تؤكد أن الأمرَ يرجع للحسد والعين، بينما مال الحاج (راضي) على (النحاس)، ونظر إلى عينيه مباشرة:

ـ فيه إيه يا سي (محفوظ)؟ سرك في بير يا اخويا.

ـ البدن سليم والنفس معطوبة.

ـ بس لو تصارحني. أنا عارف ان سرك مع (إدريس) النوبي، و(مختار) النجار. خلاص. تاهت ولقيناها، تحب أشيع لك لـ(مختار القناوي)؟

دخل هنا (محمد) صبي الورشة، وهو يقول بقلق عظيم:

ـ خير يا اسطى (محفوظ)؟

ولكن ولي نعمته لم يكُ يمتلك أجوبة لأي شيء.

فرغ جرابه منها، وترك عقله يغرق وسط علامات الاستفهام، فاستسلم الجسد للحزن واللوعة، وقد أخذه وجد تنفطر له المرائر، فكانت بداية رقوده الساكن الطويل.

رقود امتد حتى عاد ولده من رحلته الطويلة، وحتى كبر، هو و(فرحانة).

ولكنه يتذكر شيئًا غريبًا، لا يقوى عقله المحزون على استيعابه الآن:

«كبير خدم السحرة زاره في فراش الموت في آخر عمره، وأخبره بأن الحماية ستنتقل إلى نسله من البكري إلى الأبكر، لأنها خالدة ومتسلطة».

كذا أخبره سادة العالم الغامض في أرض الظلمة عن جده الأول.

وكذا أصابه التحير.

فهو لم يكن الابن البكري، فكيف إذن ورث القدرة السوداء؟!

وبقي سؤاله معلقًا في سماء الغرفة الخشبية العتيقة.

* * *

أيام لاسين

ـ «الحقيقة أن الشيطانَ ذاته هنا بأعماقي»

فبراير 1863 المحيط الأطلنطي

تقلب الموج بنا أسفل النقالة الفرنسية (لاسين Laseine)، والتي يقولون إنها على اسم نيل كنيلنا ولكن في بلاد الفرنساوية؛ ومعه تقلبت بي أحلام اليقظة والسبات، هكذا رأيت الحلم الأول للدرويش، بعد أن كنت ألقاه يقظًا وأنا أصغر.

كنت في سباتي أراني نائمًا، ويد تمسدني تدعوني برفق حتى أفيق، فصحوت داخل الحلم شاعرًا باللذة والسلام، وابتسمت عندما طالعتني طلعته الأنيسة وثغره الباسم، وجلبابه الأبيض الجميل عليه عباءة من نور وعمامة حمراء زاهية؛ وببطء وهدوء شديد، قال لي بحروف من الرقة تنسج لحنًا:

ـ تهيأ يا بن الغالي. حان وقتك. وانتهى الغفو.

شرعت أتمغط وأتمدد في نعاس وابتسامتي تتسع، وأنا بعد مستلق هانئ، أتثاءب كسلا، وهو بأرديته النورانية التي يرفل فيها، يجلس في تؤدة:

ـ الوقت. ما أمتع الوقت بصحبتك يا عماه. كلما بعدت عني بثت في وساوسي البرم منك والغضب، لأنك أبعدتني عن المحروسة، لكن كلما رأيتك تبخر كل النفور وتحول إلى حب ووداعة، ورفقة من المتعة المصبوغة بالبلسم.

ـ استعد. وانفض عنك ضعفك. حان طور الرجال. يا بن الغالي. ويا حفيد القدماء.

ـ ومن القدماء؟

ابتعد خارجًا من المكان، وقد تبين لي أنه قصر واسع، فخرجت منه، لأجد خيمة بسيطة قبالته، فولجتها، ووجدت الدرويش وخلفه خلق كثير، كأن الخيمة تسعهم رغم أنها لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تحوي

ما يزيد على ثلاثة أنفار، وهي من ألعاب الأحلام. رغم أنني أشعر أن هذا واقع. واقع أكيد.

فكررت عليه السؤال عن القدماء، وأجابني:

ـ هذا حديث يطول، ولكن إليك قبس يسير يروي الفضول. كان البشر قسمين: ضيوف وقدماء، الضيوفُ كانوا جددًا على هاتين الأرضين، وكان الباقون ينمون في العلم والعقل. ومن هؤلاء جاء الهرامسة، ومنهم والدك (النحّاس).

ـ ومن الهرامسة؟

سألت في دعة. أجاب في روية وصبر:

ـ كان الأول توت.

فأنجب هرمسوت.

الذي أنجب أنونتوت.

وأنونتوت أنجب أشجوليم، وكان الابن البار لتوت الذي كان لا يزال حيًا، وساعده في مآثر زمن الطوفان.

وأشجوليم أنجب أنغسوت.

الذي أنجب ذا القرون، ذلك الذي حفظ الأرض من البرابرة الساعين لتجفيف أنهارها، عندما عاونه الجن البحري القادم من عالم القمرين.

وذو القرون أنجب آرشبائيل.

الذي أنجب كوروشيل، ملك الجيوش والمناطق الأربعة.

وكوروشيل أنجب بعد عدة أجيال هرمسيل.

الذي أنجب بعد عدة أجيال جدك الأكبر الشيخ بن النحاس، والذي تنتهي سلالته بوالدك النبيل (محفوظ النحاس).

تزايد الخلق عليه، وكلهم يسألونه عن سر رجل اسمه (الحلاج)، يحتجون عليه بأنه فقيه من النسل المحمدي، فقال لهم ليهدئهم:

ـ ستعرفون عندما تشربون. ولا تكتفوا بالتذوق. وربما عرفه قبلكم هذا الصغير.

وأشار صوبي. وتزايد تكاثر الخلق من حوله حتى اختفى بينهم، فغادرت الخيمة، ولكني لم أتقهقر للقصر، بل شرعت أسعى في البستان الرحيب المحيط بها، أسعد بركل أوراق الأشجار المتساقطة. أتأمل الثمار المتدلية، وأتفكر ما إذا كان هذا حلمًا.

ثم استيقظت في عالمي الحقيقي، مع ذكرِي لماهية التوهم.

يمكنك أن تتفهم حيرتي من رؤيا كهذه للدرويش العزيز، ومعناها، ومدى فائدتها أو صدقها برغم غموضها، لكنك لن تفهم أبدًا شدة هلعي وعميق رعبي، من أحلام اليقظة الحيوانية الموحشة.

كانت وطأة هذا على نفسي أن كادت تتلف، وتتردى في مهاوي التخبل الوحشية، وبقوة عظيمة جدًا، استطعت الحفاظ على عقلي من الجنوح للماليخوليا.

أي هول هذا. أي جنون!

أن ترى الموت والعذاب والخوف واللامنطق في أحلام السبات، لهو النقاء عينه بالنسبة لما رأيته في كوابيس اليقظة، على الأقل ستستيقظ، وتضحك أو تذكر اللـه قليلا فتهدأ نفسك، لكن أن يستمر الجنون الكابوسي بين يدى اليقظة، وفي وضح النهار، فهذا ما شكل لعنة فوق الطبيعية نالت من أول نشأتي فدمرتها تدميرًا.

بدأ هذا الرعب بعد أن صرنا في أعالي البحار، أي المحيط الذي تستخدمه كل البلدان على قدم المساواة في السفر والتجارة. قبله كنت مأخوذًا لا أعرف أي شيء عما يجري لي ومن حولي.

(سعد) هرب فلا أدري هل نجح أم جندلوه، ونقلنا أنا والباقين تم فورًا من (دنقلة) و(بربر) ومناطق سودانية أخرى عبر البحر الأحمر إلى (إسنا) و(السويس) فـ(الإسكندرية)، حيث تم تزويدنا من إدارة المهمات بالقلعة بما يلزم الجيوش من ملابس وأسلحة وأدوات، ومن هناك أرسلت رسالة بكثير من التوسلات إلى مسكن والدي في المحروسة، لأخبره بما آل إليه أمري، دون أن أعلم هل وصلت أم أنهم أخذوا الرسالة لتهدئتي ثم ألقوا بها في الهواء، وذلك قبل أن تبتلعنا (السين) متوجهة صوب أمواج البحر المتوسط، في شهر يناير المنصرم.

بيْد أنني لم أعرف أن موظفَ البريد، قد ألقى رسالتي بإهمال ساخر عندما لم أدفع ثمن البوستة، ولم أعرف أن شابًا يحمل عيني عُقاب، قد التقط الرسالة وهو ينظر إلى ظهري اليافع المبتعد، إلا بعد هذا بسنوات طوال.

صُرفت لي كسوة وبطانية من حسن الحظ، فبرد طوبة كان لا يحتمل وقتذاك، والرياح الغاضبة تكنس دفء الأجساد وحتى المشاعر؛ وكنت طفلاً لا أميز أشياء كثيرة، فكنت أعتقد أنني قيد اختطاف ممنهج، ولا ريب أن والدي سينجدني بمجرد أن تصله رسالتي، التي أوصاني العم (إدريس) بحتمية إرسالها، ولم أحسب أنه التجنيد الذي استحدثه الوالي (سعيد) في عموم القُطر، وأن هذا التجنيد سلطته فوق كل ما يمكن أن يفعله أبي، حتى ولو كان بطلاً (أوججي)!

ودعنا أفندينا شخصيًا في ميدان (محمد علي)، الذي زينته الأعلام والغصون الخضراء، ثم نقلنا البابور[5] والليل بسرية إلى قرية صيادين تدعى (العجمي)، حيث قبعت (السين) جاثمة بقلوعها الستة المطويات. وفي البحر الأبيض وجدت أنني أعمل كالسخرة. لم تشفع لي بشرتي البيضاء بين أقراني السود، بل ورأيت مع الجنود السودان من هم أكثر بياضًا من لوني، وأعني وجوه العساكر الفرنساوية، التي كانت تشبه باطن الفول النابت من شدة شحوبها، بينما تشبه العرديب حال لفحتها الشمس، والذين التحقوا بنا عندما توقفنا فيما بعد في (طولون)؛ وبعد التنظيف مع طفلين آخرين وجندي ضامر، ونقل أجولة الأرز والبامية والفريك والفحم، كنت أسقط في ركني سقوطًا من جسامة الإنهاك والتعب.

كان الركن في مخزن التموين بعيدًا عن ذعر الطفلين الأزلي وغطيط الضامر، وكان هو البديل النفسي لي الذي يبقيني آدميًا كما كنت. يقع بين صهريج كبير بجوار جدار المخزن، وبين تل من أجولة الملوخية والكشك الصعيدي، وراء أحد الأعمدة الغليظة بالضبط، ولكني لم أكن أرى الجدار ولا الصهريج ولا الأجولة ولا العمود، بل كنت أرى عن يميني بيت أمي (كاترينا) الحميمي، وعن يساري غرفة أبي الخشبية العتيقة الواسعة، وأمامي حقل فول الخالة (جميلة) الأخضر البديع. كلما تذكرت الموت المقبل علينا، كلما زاد همي من انكشاف أمري وخروج وحشي الشيطاني، ترى ماذا سيفعلون بي؟ هل سيحاولون قتلي مباشرة؟ إذن سينطلق وحشي لسحقهم سحقا. هل سيعتقلونني أو يجرون علي التجارب المخيفة؟ أم يربطونني في ثقل ويقذفون بي إلى وحوش الأعماق، كما فعلوا مع جثمان ذلك الجندي المتوفى من المرض وسوء التغذية؟

كل هذه الأسئلة كانت تثقل روحي بأثقال مكبلة، وكانت تجعلني أتشكى لرُكني من آلام الروح والجسد. كنت ستبحث مثلي عما يعوضك عن تحرشات الحياة، سترى وتتسمع بقايا طين الفول الذي تنبعث منه رائحة (دنقلة)، خط سير فأر القرصنة الليلي على سقط المتاع، مدى تناسق الزوايا التي تنسجها العنكبوت خريجة مدرسة الهندسة، اصفرار كومة القش التي تستند إليها مؤخرتك

المربعة، العظمية، الملمس اليودي الخشن لكعبيك الصارخين، صوت سعالك المتشقق.. وأخيرًا، رعد يناير الضاحك يملأ السماوات، دون جندي درَك واحد، يمنعه من هذا الانفلات وهذه الصفاقة.

لكنه كان مأوى لحيوان، يفكر كحيوان.

تلك الأحلام.

كيف أنسى تلك الأحلام؟

وفي العمل الشاق الذي منحت فيه لقب (نفر)، كنت أنحني كما كنت أفعل في أرض الفول الطري، لكن هذه المرة وأنا أحمل أجولة فول جاف نصفه متعفن، من المخزن إلى المطبخ، وأنا أحمل جوال فحم بعد جوال لتوصيلها إلى غرفة الحريق، بينما التفاهم بيننا وبين رطانة الفرنساوية يجري عبر رجال من بلد يقال له (الجزائر). وفي الغرفة يعمل الرجال بهمة لتغذية الوحش المروحي، الذي يعمل كالشيطان لدفع عابرة المحيطات هذه تجاه وجهتها. كان الأمر قديمًا يعتمد على عضلات المجدفين الذين يديرون عجلات المجاديف الجانبية الخشبية، ثم قوة الرياح المنطلقة وسط الأشرعة الرحبة، ولكن العلم كشف لنا عن مفاجأة حاسمة، وهي قوة المحرك البخاري. لكن من قال إن جهدَ الرجال سينعدم تماما، فنحن لم نألُ جهدًا لسد رمق هذا الشيطان الشره، الذي لا يتوقف عن التلظي وتحويل الفحم والأخشاب لطاقة، عبر تسخين المراجل وإشعال ثورة غضبتها، فيتكون الضغط الخارق للبخار الذي يدير بدوره محور التوربين، فتتحول في النهاية الطاقة الحرارية المتأججة التقليدية، إلى ميكانيكية خلابة دقيقة. فكنت أرجع منهكًا كما لو أنني خضت حربًا كاملة بمفردي، أفكر كيف أن الحروبَ ليست كرًا وفرًا فقط، بل عدد من الأعمال الإنشائية والعمالية البحتة كذلك. أرجع وأستلقي في ركني، تمسدني أمي عن يميني وتترفق بي الخالة من أمامي، ويعلمني أبي علوم الأقدمين ويحفظنيها حتى لو لم أفهمها في حينها عن يساري. وكنت أتضاحك مع (كاترينا) وأتبسم لـ(جميلة) وأومئ لـ(النحاس)، فتراني أعين عقاب لامعة، وسط بشرة سوداء كظلام الكهوف، وتتربص بي في عجب، حتى باغتني صاحبهما فجأة جالسًا أمامي:

ـ مع من تتحدث يا فتى؟

صعقني الفزع وبهتتني المفاجأة، وفر أبواي وكافلتي بانزعاج من حولي، لكني تبينت على بصيص ضياء غاز الاستصباح، القادم من المطبخ البعيد، طيب أرض النيل في ملامحه السودانية، ووجهه المربع وأنفه الأقنى. كان (عبد اللـه سودان) أحد سواعد فريق غرفة الحريق المجاهدين:

ـ لا أحد.

ـ هيا. لا تزيد الأمر سوءًا وملاً.

كذا قالها بحميمية عجيبة، وابتسامة ودود مطمئنة، وهو يفترش القش إلى جواري ببساطة أخجلتني أنا، الطفل ضئيل الشأن، وأحقر مرافقيهم قيمة لا ريب. قلت ببعض التردد وأنا أفسح له قليلاً:

ـ مجرد لعب.

صمت للحظة كأنما يتذكر ألعابه هو، ثم قال بطريقة الكبار حينما يحادثون الصغار:

ـ في يوم ما صحبني أبي إلى الشمال. حيث (أسوان) والشلال الأول. كنت مبهورًا بالنقوش القديمة الملونة في تلك السراي الواسعة، وقال لي أبي إن صديقًا له شرح أسماء أولئك الآلهة، وكنت منجذبًا بشكل خاص للآلهة الأسطورية ذات الرؤوس الحيوانية. فسألته عن ذي رأس

الصقر، فأجابني بأنه (هورس)، وعن ذات رأس الهر، فكانت (بست)، أما ذو رأس اللقلق فكان (توت) إله القلم.

خفق قلبي على الرغم مني، وقلت له في حرارة، سحقت كلاً من تحفزي وتحفظي:

ـ إنهم المصريون القدماء. قومي وبلاد قومي.

ـ آه. إذن فأنت مصري، وتبدو متعلمًا كذلك.

ـ أجل. ولكنني كنت أقيم مؤقتًا عند العم (إدريس الحاج) وزوجته الخالة (جميلة) في (دنقلة)، هل سمعت عنهما؟

بدا على (عبد اللـه) صمت مفاجئ ودهشة، قبل أن تلتمع أسنانه الكبيرة مجددًا في الإضاءة الخافتة، وهو يصافحني في قوة:

ـ إذن فنحن أهل. (جميلة) هي قريبة لزوجتي، و(إدريس) كنا نزوره في (أسوان) قبل تجنيده منذ سنين. أنا وزوجتي نقيم بالقرب من أرض (جميلة) في (الخنَّاق)، وهي محلة صغيرة على اثنَيْ عشرَ ميلاً من (دنقلة).

لم تكن مفاجأة تامة، فكل المجندين تقريبًا سودانيون، ولا ريب أن بينهمَ روابط الدم القبلية؛ ولكنه كان خبرًا مستحبًا بالتأكيد، لعل الوحشةَ تذوي بمعرفته.

لكن ما برحت الوحشة تهاجمني.

تلك الأحلام.

كيف يمكن أن أنسى أحلامي وقتها، بل إن شئت الدقة كوابيسي.

كنت أرى نفسي على حقيقتي كضارٍ. البشر ينازعهم شقان، شق حيواني وشق نوراني، أنا كنت أغوص عميقا في شق ذي خَطْم ونابين.

شق ابن آوى.

شيء ما كان يهمس في أذني بلغة غير مفهومة، وعندما كنت أستعيذ باللـه، لم تكن الهيْنَمة لتتوقف.

خشيت أن أكون قد أصبت بهلوسة بسبب البحر. يقولون إن البحرَ يصيب البشر بالأمراض. لم يقرأ لي أبي قديمًا الكثير عن البحر المحيط، لذا لا أعرف كل شيء، واقتصر فزعي عند الاستيقاظ من ذاك الكابوس، ولم يمتد لوعيي إلا بعد أن تكرر الكابوس ثلاث مرات.

في الكابوس الأول كنت أنبح.

أراني ليلاً على سطح النقالة الخاوية إلا مني، أنظر صوب الموج وأنبح في الظلام بصوت كلبيّ حقيقي.

وكان نباحي يؤلمني ويعظم عليّ، ويثير حنقي ورعبي العميقين، فكنت أنبح ودموعي تسيل وتسيل، ثم إن وجهيَ يبدأُ في التحورِ، وأطلق زمجرة مخيفة، وعندها استيقظ صارخًا أو باكيًا أو كليهما، ثم أمسك عن البكاء مرغمًا، كراهة أن يراني أحدهم على هذا النحو.

وتكرر الكابوس مرتين أصحو بعدهما بنفس الطريقة المأساوية.

وفي ليلة ليلاء استيقظت على صوت لهاث. لهاث حيواني.

ثم اكتشفت أن هذا اللهاث غير البشري صادر مني بالذات!

فناديت على (عبد اللـه)، ولكن صوت عواء مريعًا تردد في المخزن، صدر من حنجرتي بدلا من النداء!

عواء غير آدمي قسمًا باللـه الرحيم.

وشهقت شهقة رعب كادت تذهب روحي الطفلة. ثم سقطت فاقدًا الوعي.

كان (عبد اللـه) هو من أفاقني في جزع وفرق، وحاول سؤالي عن سبب سقوطي، وعن سماعه صوتًا أشبه بنباح كلب ما، إلا أن الصمتَ كان هو إجابته. كنت أخشى أن يخرج صوت المسخ مني مجددًا. كنت مذهولاً مصدومًا زاهدًا في الطعام. وقدر هو أنني مريض، خاصة بعد وفاة أحد الجنود من حُمى ما، ربما هو الإسقربوط. خمن وتوقع، واستأذن لي حتى أتوقف عن العمل مؤقتًا، ووافق الطبيب الفرنسي مخافة إصابتي بعدوى مجهولة؛ ورغم العزل والرعاية ازداد الأمرَ سوءًا.

في اليوم التالي خيل لي أن أنفيَ ليس على ما يرام، فإما أنه متورم وإما أنني أتوهم أشياء غير حقيقية. منعني خوفي العميق من لمسه، وبحذر بحثت عن مرآة في المطبخ، فلم أجد إلا سطح ماعون لامع، وببطء أملته تجاه وجهي حتى أستكشف ما هنا، فكان الهول.

لقد صرخت ـ أو بالأحرى عويت ـ حتى انقطع نفسي وانقطع وعيي من جديد، وسقطت أرضًا في إغماءة سببها الرعب الحقيقي، بينما الدنيا تدور من حولي بلا توقف.

هذا لأن وجه كلب طالعني على السطح المتشقق الباهت.

وجه مسحوب لكلب أسود متصل بعنقي الأبيض.

بعد عدة أيام من الإفاقة والغياب، والهذيان والحمى، بين محاولات الطبيب، وتلاوة القرآن على رأسي من شيخ الأورطة، قلت لـ(عبد اللـه) في وهن:

ـ أنا جننت. أو إنني لست ببشر. الحقيقة أن الشيطانَ ذاته هنا بأعماقي.

قال بانزعاج وقلق:

ـ (محفوظ). عهدتك أنضج وأذكى، عهدتك رجلاً لا طفلاً. فما الذي أصابك يا صديقي؟

ـ لا أعرف. شيء ما لعين حدث لي. لا أعرف. اتركني وحدي.

لكنه أبى تركي إلا للضرورة القصوى، وهي العمل البحري العسكري، وكان يخبرني بمسير النقالة حتى يخرجني من وهني وصدمتي، وعجزي عن الفهم والعودة لطبيعتي، يخبرني كيف أننا توقفنا في ميناء (طولون) الفرنسي الشهير، ثم أقلعنا مجددًا برفقة ثلاثين ألف جندي فرنساوي، ويقص عليّ أيامه في وادي (النيل)، ويُسر إليّ باضطراب بعض الجنود القادمين رأسًا من الأدغال إلى هذا المحيط المالح، وكيف أنهم يسمونه (النيل المالح)، أو كيف أن طفلاً آخرًا استخدموهُ بدلاً مني، ولكن شاء حظه أن ينظف روث الخيول، الذي ازداد عن حاجة خنزير التنظيف. هموم ومسرات صغيرة، يحرص معها على إسعادي بأي ثمن، حتى إنني أشفقت عليه من محاولاته المستميتة، وأقنعته أنني بخير جسمانيًا؛ وحتى أنجو من هذا العطف الذي لن أستطيع رد جميله، ما كان علي إلا العودة للعمل، والانغماس فيه بكل طاقتي لعله يكون هو نفسه سلواي.

بعد أسبوع من هذا الأمر، عادت رؤية وجه الكلب أو ابن آوى في كابوس رهيب.

وما أنقذني من انهيار عصبي جديد، كانت رؤيا طيبة للدرويش أعقبتها بيوم واحد، نصحني فيها قائلاً:

ـ تسير بسيرة والدك. اعلم أن الساحرَ يؤذيك لكن عليك أن تتجاهله. إنه يدفعك للجنون، ولكنك لن تسير بسيرة والدك!

ـ كيف هذا؟ قلت إنني أسير على هداه وخطاه، فكيف أفعل ولا أفعل؟

ـ تسير في أمور ولا تسير في أمور.
ـ ومن الساحر الذي يؤذيني؟
ـ إنه يلبس عليك أصلك.
ـ لا أفهم. أهو المسؤول عن مسخ وجهي؟
ـ نعم. ولكن اصبر يا ولدي ورابط، استعن باللـه واذكره، يؤذيك حتى تعرف سلالتك، فلكل أذى حكمة، فادعُ المغيث واستعن به.

وهكذا يرحل مجددًا، ويتركني أفهم متأخرًا جدًا كل حرف قاله، يتركني وقتها أعتقد أنها أضغاث أحلام، ومن ثم أعرف فيما بعد كم كانت الرؤيا حقة، لكني كنت وقتها أدعو المغيث على الأقل. أدعوه متمنيًا الاطمئنان والأمان، حالمًا بأن أكبر فجأة لأكون شابًا ناضجًا في العشرينيات من عمره، قد عض على ناجذ الحُلم، يمكنه التغلب على كل هذا الخوف والقلق.

بعد أسبوع آخر انتهت أيام (لاسين) وتركنا اليم العميم بوحوشه، وكوابيسه المدلهمة، ووصلنا أخيرًا إلى جزر الهند الغربية، ومن بعدها استقبلنا ميناء (فيراكروز) بعد سبعة وأربعين يومًا من وداع أفندينا، وهبطت الأورطة التي انتكبت بسبع وفيات، إلى أرض المدينة في أقصى العالم، وعلى رأس قيادتها البكباشي (جبرة اللـه محمد) أفندي.

لقد جاء المصريون لمساندة الفرنساوية، يحميهم الإسبان والإنجليز، ضد المكسيكان والأمريكان. مرحى!

* * *

سؤال الرجل الراقد

ـ **«السحر دلوقتي هناك»**

عند رأسي جلس (مختار القناوي).

أخالسه النظر، فأجده جسيمًا، متراكب اللحم. أستمعه يصدر الأصوات من بين شفتيه، مغزولة، مشغولة، موشاة، على هيئة كلمات مواساة واطمئنان، وذكريات ومؤانسة. الحاج (راضي) أرسل في طلبه. هذا الطيب العنيد الذي يريد لي سلوانًا لا أستحقه. وقع في سماعي حديثه جيدًا، بل ويمكنني إعادة ما يقول بدقة، لكن لماذا فقدت حاسة السمع ارتباطها بوجداني؟!

هل مزج الشجو بالتفكر يقسم المرء بهذا الشكل؟ ما بين مسامع تصغي، وكيان قد فني في ترهات اللوم والتأنيب والعذاب، وتخيل عودة المحبوب؟

ما الذي تقبل عليه يا سمعي؟ لا ريب أن (مختارَ) الصعيدي قد اعتاد منذ طفولته على لهجة أهل (عابدين) حيث يقطن، ولا ريب أنه يقول:

ـ الحاج (راضي) خضني عليك يا (محفوظ) يا اخويا. وقال لي لازم أشوفك عشان الجدع يا ولداه مكروب، وهيقوم زي الحصان لو عديت عليه، قلت له على راسي حاضر، وآدي الزير وآدي غطاه. مالك يا اخويا؟ تحب أشوف لك حكيم؟ أنا دلوقتي مش بس نجار، فتحت عقبال أمالتك مخزن موبيليا كبير، فيه بضاعة أتقل من جبل (الجيوشي)، وبمقدوري أجيب لك أجدعها حكيم؛ إنت كمان لازمن توسع شغلك، مش تبقى زي ما بيقول المثل «سبع صنع في ايديه والهم حاطط عليه». مهموم ليه يا اسطى (محفوظ)؟ طب دا انت كنت شمعة منورة بعد اما رجعت بالسلامة من (إسكندرية) مع المحروس ابنك. يكونش اللي تاعبك بعدك عنه؟

لا ريب أنه قال كل هذا، وإلا فمن يفعل وله أصيخ؟ إنه يقول عبارة ويتوقف. يلقي سؤالا وينتظرني أرد عليه، وأنا أنظر إلى وجهه تارة وإلى السقف تارة وإلى (رخ)، البعيد، عبر النافذة تارة ثالثة. ولا أعرف ما الذي ينبغي عمله. هل أرد عليه؟ وماذا أقول؟

هل أشركه في أمري؟

لقد تراجع شعر رأسه، وتراجعت معه ضغائن الطفولة ودسائسها، وبرز كرشه عظيمًا، وبرزت معه علائم الزمن وانقضاء عفرة الشباب، وقد تبقى من أصدقاء العمر (مختار) المختار من الأقدار، بديلا عن (شمس) الذي غربت روحه، وبديلا عن (إدريس) الذي غيبه الزواج، ودرْس حقول الجنوب الطيبة.

لا ريب أنه قال مبتسمًا في ود وحب:

ـ فاكر أما كنت انا عَوّيم عنك في بركة (الأزبكية) زمان؟ كنت بتفضل تَمَلّي تغلبني بكلامك، اللي ماكانش بيدخل صرصور ودني ولا دماغي، أقول لك بتجيب الكلام ده منين، تقول لي من (أبو الريش)، أقول لك أنا أجدع منك في العوم، تشاور على الضفادع وتقولي «عارف ياد يا مختار الضفدعة بتقول ايه؟ بتقول بكرة نقتل الغراب. بكرة نقتل الغراب»!. اضحك بقى دا النبي تبسم. تاخد شبرقة؟ جايب لك معايا أبو فروة.

لا ريب أنه قال هذا محاولا دس الثمار الزغبية في أصابعي المرتخية. لا ريب أن للخيال حدودًا وأنه الآن موجود.

ليس مثل (ملك جهان).

لكن هل كان حلمًا حقًا؟ وإن لم يكن فلماذا يصر عقلي على أن في الأمر ثغرة ما؟ لماذا جاءت في المنام وتذكرتها روحي؟ أم عساها حقيقة مضيئة كرؤى الدراويش؟ أخبرني (درويش) أيام مجاورة (الأزهر) أن الرؤيا آخر ما تبقى من النبوة، ولكني كنت قاسيًا كالشيطان، تخليت عن شقيقة روحي في (سيفاستوبول)، وطعنت (كاترينا) في فلذة كبدها، ثم أبعدت ابني عن متناول أبوتي. فأي بقايا نبوة هذه التي قد تراود شقيًا مثلي؟

هل الأمر يفوق عقلي إلى هذا الحد؟

أم أن العقلَ نفسه عاد إليه الشك والجنون!

لا ريب أنه قال بقوة هذه المرة:

ـ اقف على رجلك يا (محفوظ).

يقولها وهو يحدج جسدي الضامر بحنق. وتدخل (فرحانة) الصغيرة وتحاول إطعامي بدورها:

ـ خد يا عم (محفوظ). بليلة شركسية تستاهل بقك. جبتها بمليمين.

لا ريب أنني ما زلت صامتًا ساكنًا راقدًا في غرفتي الخشبية القديمة، ولا ريب أنني طيبت خاطر الطفلة وابتسمت وأنا أشير للبليلة:

ـ كُليها انتي يا (فرحانة).

تخرج سعيدة وهي تعدو، مواصلة هتافها الفرح المرح في الغرفة، والمستمر فوق الدرج وحتى أسفل عند عطارة أبيها:

ـ رَد عليا يا ابويا. رَد عليا يا ابويا.

ـ كمان كنت صايم عن الكلام يا (محفوظ). إنت خليتها رُطريط. طب كنت خدت من البت البليلة يا أخينا. والا تكونش حاسب البليلة جَبا؟

ـ البليلة أونطة.
ـ وأبو فروة؟
ـ فالصو.
ـ الأكل فالصو؟ طب وصحتك يا بني آدم؟
ـ فالصو.
ـ (محفوظ). أنا بِدي أساعدك. إيه اللي مضايقك؟ إيه اللي محيرك؟
ـ تفتكر أما يطلعوا كدابين، يبقوا ماقتلوهاش فعلا؟
ـ أما غريبة. ماقتلوش مين؟ يكونش قصدك على بسم اللـه الرحمن الرحيم اللي حصل في الحرب زمان؟
ـ قالوا إن الشيطان اللي ورثته بيروح للبكري، وبيتنقل من البكري للبكري، وأنا ماكنتش ابن أبويا البكري. يبقوا كدابين ولا مايبقوش كدابين؟
ـ أعوذ باللـه من الشيطان الرجيم. شيطان إيه وعفاريت إيه بس اللهم احفظنا. دا عمل ومعمول لك من زمان، وشكلنا هنجيب فقي بدل الحكيم. إحنا مش خلصنا من الساعة الملعونة اللي سبق وهدت حيلك دي؟ كانت ساعة سحار ابن سحار، وانفض السحر النحس من زمن.
ـ مانفضّش يا (مختار). السحر دلوقتي هناك. مع ضنايا المتغرّب. جالنا من جدي الكبير زمان.
محال أن أكون في عته وخبال.
هذا حديث المتفكرين.
(مختار) لم يُعِنِّي على قيام البدن، لكنه أوقف حيرة مصيرها الجنون، وأعانني على قيام العقل.
النتيجة حسمت.
كذبوا، ويشمل كذبهم ادعائهم قتل حبيبتي وأثيرتي.
إنها حية ترزق.
فهل يقوم البدن من أجل إنقاذها للمرة الثانية، أو الفناء معها هذه المرة؟
سؤال من رجل راقد.
* * *

الفرنجي

ـ «هات هذه الحياة»

الديار المصرية ـ ربيع الآخر 911 هـ

كان (محمود بن النحاس) مسؤول نقل الرسائل من الحمام الزاجل إلى الدوادارية ينتظر في قلق، وراح يتحرك بعصبية في هيئته الوقورة، ككل أرباب الوظائف الديوانية والمترددين على مجالس السلطان، مرتديًا مثلهم واحدة من تلك الفراجي المفرجة من ورائها، الشبيهة بفراجي العلماء، والتي هي عبارة عن أردية واسعة، بينما يعتمر عمامة نظيفة أنيقة متوسطة، تزين وجهه الطلق لحية منمقة، مشذبة بعناية. وفور خروج (حُسين الكردي) من قاعة (الدهيشة) التي يعقد بها السلطان مجالس سمره، ابتدره (ابن النحاس):

ـ هل أخبرت السلطان بشأن الحملة يا شهبندر؟

كان كبير تجار بحر (القلزم) صعب العريكة كاسف الملامح، والتي تحمل من المسؤوليات ما ينوء بحمله كاهل أعظم القواد، وبلهجة لا تقل صرامة عن ملامحه أجابه:

ـ يبدو أنه لا شيء يخفى على رجال ديوان الإنشاء.

ـ باللـه عليك يا (حُسين) أجبني. تعرف نيتي إتمام بحثي، ولقاء ذلك الخيميائي المراوغ، وعندما أسررت إليّ بقرارك لم أصدقك رغم الأمل، الآن عرفت أنك قمت باستعدادات أقنعت السلطان نفسه، تتوافق مع آخر تحركات ذلك الغربي، الذي أطارده منذ أشهر، فهل وافق مولانا بالفعل؟!

ـ لم يوافق فحسب بل أنعم عليّ بلقب (أمير)، وحثني على إنهاء جميع استعدادات المراكب، لأنه سيُقطِعُني (جدة) مقابل حماية أساطيل الحجاج. وقد فوجئت بأمره بخروج تجريدتين أخريين نحو (الينبع) و(الكرك).

ارتسمت في عينيه الدهشة ممزوجة بالسعادة من قرار السلطان، الذي يعد مغامرة جريئة ضد الأسطول البرتغالي المخيف؛ لكن تذكره للاستغاثات المرسلة مباشرة لصاحب (مصر)، من الملوك والتجار في المنطقة من ساحل (المليبار) حتى (اليمن)، وكذلك تراجع التجارة بشكل خطير بعد وصول البرتغاليين إلى (الهند) ـ من طريق بحري مجهول حتى الآن ـ جعله يتفهم سرعة موافقة السلطان وحماسه في تجهيز الحملة.

ـ حمدًا للـه. دعنا نلتفت إلى تجريدة البرتغاليين الخاصة بنا وحسب، يتبقى الآن موافقته على مرافقتي لك. أملي الوحيد أن أتمكن من النجاح في معرفة الطريق، الذي اتخذه أسطول الملك (عمانويل) إلى (الهند).

ـ لا أعرف سر انتقال عالم مثلك للعمل كموظف بريد، ولا حماسك للحصول على أسرار هؤلاء الفرنج، لكن صداقتنا تفوق أي فضول أو ارتياب. كما أنني واثق أنك تعمل على تعزيز علوم المملكة، وصنائعها، وأمنها، ورفعة مولانا السلطان وجيش (مصر) المباركة.

وهكذا تصافحا على موعدة، ثم أدخله حاجب الحجّاب إلى قاعة السلطان المملوكي المعظم، (قنصوه الغوري)، فخطا بوجل إلى القاعة ذات الأرضية المرمرية الملونة، والسجاد العجمي الفخم، وحيا السلطان الذي كان يجلس مهيبًا، مرتديًا تخفيفته العملاقة، (الناعورة) ذات القرنين على رأسه، واتخذ مكانه بجوار الوزير أو كاتم السر القاضي (بن أجا)، ناظر ديوان الإنشاء، وانتظر وهو يتحين الفرصة لمخاطبة السلطان، الذي كان ملكًا محترمًا يُخشى مُلكه بين الملوك، ولكنه رغم ذلك رجل هادئ، مرح، رقيق الحاشية، متواضع، يلعب الكرة في ميدان (تحت القلعة).

وهي لعبة جميلة، تخطط فيها الأرض بخطوط بيضاء مستقيمة، ويقسم الخيالة فريقين فوق جيادهم، على رأس أحدهما السلطان وعلى رأس الفريق المنافس أتابك العسكر، وبيد كل لاعب (جوكان)، وهي عصا طولها أربع أذرع، ذات نهاية معقوفة للاحتفاظ بالكرة من فوق الخيول؛ ولم تخلُ اللعبة من أغراض شتى، أغراض دعائية، كدعوة الرسل والسفارات لإظهار حسن نظام المملكة ورخائها وتحضرها، وأغراض سياسية، كتخفيف العلاقات المتوترة دائما بين السلاطين وكبار الأمراء، وأغراض جماهيرية، لطمأنة الشعب على صحة السلطان وقوته، في حضور جموع المتنزهين والمتفرجين الغفيرة من العامة، حتى يقال إن السلطانَ ضرب الكرة هذه السنة.

وإن كان الناس في تجمعهم قد وضعوا أعينهم على الطعام الذي سيحصلون عليه، وليس على المطربين، والموسيقيين، والمهرجين، ونطاح الكباش والثيران؛ حتى إنهم في تدافعهم في نهاية اليوم وبعد صعود السلطان والأمراء للقلعة، يقتلون بعضهم البعض دهسًا من أجل الطعام، بسبب بؤس وتواضع أحوالهم.

كان مزاج السلطان رائقًا اليوم الذي تصادف أن لعبت فيه الكرة بين المماليك، ثم مُد سماطٌ كبيرٌ حَفِل بوليمة ضخمة، تجاوزت تكاليفها مئتي ألف درهم، وقد ذبحت فيها فئات المواشي والطيور كافة بجانب الحلوى والمشروبات، ومن هذه الأخيرة (البوزة) و(القمز[6])؛ واستطاع السلطان في هذه الأمسية الطيبة حل بضع أحجيات، وإنشاد عدد ممتاز من الأبيات، مشاركًا العلماء والمسامرين، وقد كان (ابن النحاس) جديدًا على المجالس، ولكنه ـ ورغم سنه الشابة ـ معروف للسلطان، حتى إنه سمح له في أريحية بمرافقة الحملة، بغية إفادة المملكة بالعلوم الجديدة، والوجهات التي توصل لها البرتغاليون الفرنجة.

بعد انتهاء مجلس سمر (الغوري)، عاد (ابن النحاس) ليلاً ظافرًا بهذا السماح، إلى داره في (إمبابة)، وقد تناهى إلى سمعه الاحتفالات الضخمة بمولد سيدي الشيخ (إسماعيل الإمبابي)، حيث يتقاطر أهل (القاهرة) و(الجيزة) ونواحيهما أفواجًا، لإقامة الخيام والأسواق عند الجزيرة القريبة من شاطئ (النيل)، بين (بولاق) و(إمبابة)، أو كما ينطق العوام اسمها بـ(إنبابة)، وأحكم إغلاق باب داره جيدًا، لكبح دوي حراقات النفط الهائلة التي يوقدونها، وعندما استقر، اقتعد كرسيه، وأسرج السراج.

ورمق للحظة عثة مبرقشة الأجنحة من فراش الليل، تطير ببراءة هادئة حول السراج. أحنى ظهره وهو يقرأ من جديد رسالة نعتقد أنها من (تغري بردي) الترجمان، التي وضح له فيها كيف أن الخيميائيَ البرتغالي الذي يبحث عنه، ما زال برفقة أسطول الفرنجة، حسب رسالة الجاسوس التي أرسلها له ليترجمها، وأن الأمر منوط بسماح السلطان له حتى يلقاه.

وكان (ابن النحاس) المهتم بالعلوم العلوية والروحانيات السرية، قد عرف أن ذلك الخيميائي قد توصل لمدار فلكي محسوس. أحد العوالم العلوية الخاصة. ويمكنه ولوج هذا العالم ولكنه يجبن. هذا الفرنجي يحتفظ بهذا السر مكتومًا، حتى إنه يخفيه عن الملك (عمانويل) شخصيًا، رغم رعاية هذا الأخير له كعالم يعمل على رفعة الإمبراطورية البرتغالية، وكان يستعين ـ كما يعتقد الكردي ـ بـ(تغري بردي) لترجمة الرسائل المكتوبة باللاتينية، والآن فقط وقد حصل أخيرًا على تجريدة كاملة أرسلتها له المقادر، يمكنه الوصول لهذا الخيميائي الخطير.

وفي يوم الاثنين 6 جمادى الآخرة الموافق شهر نوفمبر 1505 ميلادية، وهو العام الذي أكمل فيه (ابن النحاس) عامه الخامس والعشرين، خرجت تجريدة (الهند)، وقد تكّون عسكرها من أولاد البلد وبعض المماليك السلطانية، ولكن كانت الأغلبية من المغاربة والتركمان وبالطبع الزنوج، المتميزين بكونهم من أمهر الرماة، أما غير العسكر، فكانوا عشرات المدنيين من البنائين والنجارين والفعلاء، لأجل إنشاء سور حول (جدة)، وتحويلها لمركز عسكري مملوكي حصين، تنطلق منه القوات. في نفس يوم الخروج سمع (ابن النحاس) بنبأ وفاة شيخه الولي الصالح (الشاذُلي) المغربي، فرثاه بقصيدة مخضلة بالدمع، وتنزل عليه الرحمات كثيرًا، وقد أنبأه الحدس والخبر الحزين بأن شيئًا ما مشؤومًا سيحل به.

وصلت التجريدة لآخر نقطة برية مصرية وهي ميناء (السويس)، وهنالك وجد (ابن النحاس) أن السلطانَ كان قد جهز أغربة (مراكب)، زاخرة بالزاد والسلاح، لنقلهم إلى (جدة)، وذلك بعد أن جمع الأخشاب من أنحاء البلاد على ظهور الجمال، واستعان بالبنادقة للإشراف على بناء السفن العسكرية محليًا، وبلغه أن الخليفةَ (المستمسك باللـه أبو النصر يعقوب) دعا للسلطان والتجريدة وقادتها وأعيانها ـ وهو من جملتهم ـ بالفلاح والنصر على الفرنجة. فعاد لاستبشاره وحماسه الأول، وكان يتشوّف لقاء البرتغاليين ولو بعد حين.

في شوّال بلغ (حسين الكردي) أن فسادَ العربان جعل السلطان يأمر بإبطال التوجه للحجاز من (مصر) والشام، وسائر الأعمال قاطبة هذا العام، ولكنه أرسل على الأقل كسوة الكعبة الشريفة، وصرر الحرمين والزيت، فوق مراكب أبحرت من (الطور). فلما سرى الخبر بين مسلمي التجريدة اشتدت نقمتهم على العربان، ووحده (ابن النحاس) من ربط بين الحدث الجلل من تعطل للطواف والعمرة، وبين ما فعله القرامطة قديمًا من سرقة الحجر الأسود وتعطيل موسم الحج لسنوات طوال، بسبب تبحره في قراءة تاريخ الحرمين.

* * *

الحجاز ـ صفر 912 هـ

دخلت التجريدة (الينبع) بقتال، ثم لما وصلت (جدة) أخيرًا شرع (حسين الكردي) باش العسكر وبقية القادة، في بناء أبراج حراسة على ساحل بندر (جدة)، وبينما تُعد العدة للتوجه إلى (عدن)، جاءت الأخبار بتزايد عبث الفرنجة بطريق التجارة، واستيلائهم على السفن القادمة من (الهند)، حتى إن بضائعَ كثيرة عز وجودها في (مصر) وغيرها من البلاد فيما بعد؛ وهذا هو مربط الفرس، أن يستحوذ البرتغال على تجارة التوابل والحرير من العرب والبنادقة.

كان الموقف العالمي خطيرًا على دولة الإسلام؛ إذ إن المسلمينَ يكفيهم ما فقدوه منذ سنوات قليلة بسقوط (الأندلس)، ورغم الخطر البرتغالي الواضح، فإن القوى الإسلامية المحلية غير متوافقة أو متحدة؛ وفكر (ابن النحاس) أن الوضعَ القائم حاليًا لن يلبث أن يتفكك، أو يكتسحه أحد الرجال الثلاثة الأخطر في المنطقة: سلطان المماليك، شاه الصفويين، خاقان العثمانيين.

* * *

المحيط الهندي - 914 هـ

كتب (ابن النحاس) في تقريره:

«كنا قد تقدمنا في بحر (القلزم) من (جدة) نحو الجهات اليمانية، تحت قيادة الأمير (حسين)، ولم يعلم الناس بمقصود غربانتنا المبحرة صوب الجنوب، حتى عبرنا (باب المندب)، وعرجنا على (عدن) لنشحن حاجتنا من الماء والحطب بعد إذن حاكمها الأمير (مرجان)، حتى وصلنا بندر (ديو) الهندي، وهو في جزيرة شمال (بومباي)، وهنالك انضم تحت لوائنا أسطول البندر التابع لسلطان (كجرات) المسلم، إضافة إلى سفن بندر (كاليكوت)، وكلهم ناقمون على الفرنج منذ وطئوا أرضهم، وعرفت منهم مولاي السلطان أدام عزك، أن (فاسكو دا جاما) هو أول من استكشف الطريق البحري، الذي أبحث فيه وفي سره، وقد وصل (الهند) عبره بعد سني قليلة من سقوط (غرناطة)، على يد نفس الفرنج القراصنة وأعوانهم، والطريق لا يأتي من بحر (الصين) كما يقال، بل من جنوب الأراضي السودانية والإفريقية، وسأواصل التأكد من اتجاه الطريق.

سنلتقي مع أسطول الفرنجة في ميناء (جاول) جنوب (كجرات)، وستقدم الغربان المصرية المملوكية البرجية، مع أسطول الهنود المتحالفون معنا أروع أمثلة البطولة والجهاد، بعون القدير النصير».

يختتم التقرير بعبارات دعاء وآيات قرآنية. ولكن في أي مكان للوثائق لا يعرف هذا التقرير، لأنه لم يسلم قط.

فكما حدد الأمير (حسين) وكتب (ابن النحاس)، التقى المصريون والبرتغاليون في ميناء (جاول) بالفعل أول مرة وجهًا لوجه، واستغرقت المعركة يومين من تبادل إطلاق المدافع، حاول فيها البرتغاليون مقاومة غربان (الغوري) بلا جدوى، وكانت الفاجعة التي لم يتخيلوها هي هزيمتهم أول مرة في المياه الهندية؛ بل وغرق سفينة القيادة وعلى متنها (لورنزو دي ألميدا)، ابن نائب الملك البرتغالي على (الهند) شخصيًا (فرانسسكو دي ألميدا)، وأسر بقية الناجين.

انتصرَ المصريون على البرتغاليين.

ولكن ما كان يحير الأمير المظفر (حسين الكردي)، هو سر طلب (ابن النحاس) العاجل العودة إلى المملكة قبيل المعركة مباشرة، بعد أن تسلم رسالة من جاسوسه كما أخبره، تلغى على أثرها المهمة الشخصية، وتبين له من جانب آخر ما تبقى من سر الطريق البحري الجنوبي، ما ينهي كذلك المهمة الرسمية.

فأصر وقتها على أن يرافق صديقه اثنين من الجنود، واحد أسود ضخم، والثاني مصري ذو أصول صعيدية، وكانت المفاجأة الحقيقية من نصيب ذينك الجنديين. فالطريق الذي اتخذه غراب (ابن النحاس) الصغير وحارسيه، لم يصل قط إلى المملكة المصرية. بل اتّخذَ مسارًا لمنطقة ساحلية هندية هادئة، وهناك، وبعد إنزال الأنجر (المرساة)، توقف الغراب وسط الرياح الهندية الرطبة، والتقى (ابن النحاس) بالخيميائي البرتغالي.

ولاحت نذر الغدر بعينا الخيميائي الذي كان يرافقه ترجمان تركي، فانتاب القلق (ابن النحاس)، وبحركة سريعة اخترق سهم مسموم صدر الأسود، الذي اصطدم بصره بالغراب المائي، وهو يسقط، وقد هبط فوقه غراب حقيقي. بارد، وصامت. بدا كغراب البين والتأبين، فامتشق المصري سيفه صارخًا بسيده، واضعًا إياه خلف ظهره العريض:

ـ احترس يا سيدي. سأحميك بحياتي.

ولكن (ابن النحاس) وضع يمينه على كتفه، قائلا بهدوء:

ـ لا بأس عليك يا رجل. هات هذه الحياة.

وبيسراه أغمد خنجره بنفسه في ظهره جهة القلب، فجحظ المصري، بذهول من الخيانة الباردة، وبألم من الطعنة الساخنة، وخر ببطء.

ورغم أن هذا بعيد عن المشاعر ضروري لعدم إفشاء السر، فإن الألمَ قلص ملامحه للحظة وهو يرمق الجسدين الميتين؛ قبل أن يفتح الخيميائي الفرنجي ذراعيه بابتسامة واسعة، قائلاً شيئًا بالبرتغالية ترجمه الترجمان:

ـ مرحبًا يا صديقي. لننطلق إلى (لشبونة).

* * *

في الأراضي النحاسية

ـ «ماذا عن (الزوار)؟ ماذا عن النبي؟»

العالم الخرب ـ أوائل سنة 5006 ن

كان الظلام في كل مكان.

وعشرات المطارق تصطرع وتدق في رأسي، كأنه قد صار ورشة لكل حدادي العالم.

حاولت النهوض، إلا أن الصداعَ العارم أجبرني على البقاء ممدًا فوق الأرضية الرطبة، وأعتقد أنني فقدت الوعي، ثم صحوت، ثم نمت، ثم صحوت.

هذه المرة استطعت الاعتدال جالسًا وسط الظلام. بضعف وألم نقل لي الهواء الساكن غمغمتي:

ـ أين أنا؟

وانتبهت لخشونة صوتي.

صوت غير طفولي بالمرة!

فسعلت وتنحنحت بقلق غريزي، وعدت أسأل منصتًا لنفسي أكثر منها رغبة حقيقية في السؤال:

ـ من هنا؟

لكن صوتي كان كما هو متغيرًا، رجوليًا، دون مشكلات في الحلق، فغذت دهشتي ذعري، الذي أجبرني على النهوض، وعندما وقفت شعرت بالذهول.

أنا أطول من المعتاد! ما الذي حدث لي؟ وكيف تغير جسدي وصوتي؟!

أنا أكبر من سني بكثير.

لست ذلك الطفل الذي اختطف على الناقلة الفرنسية في اتجاه (مكسيكا).

قلت بصوت راجف، لكنه صوت شاب ضخم الجثة في الخامسة والعشرين:

ـ أهو كابوس آخر؟

لكني سرعان ما اكتشفت وسط الظلام أنني في حالة وعي، وأن كياني يستشعر واقعية العالم الواضحة لكل الحواس باستثناء البصر.

تحسست الأرض في العتمة فتعثرت أصابعي في طربوشي، أنا أفندي من المطربشين إذن! وتعثرت في اكتشاف جديد مكون من عدد غزير من الشعر في موضع الشارب. متى نما هذا الشيء؟! التحول هذه المرة أكثر صدقًا من التحول الحيواني المرعب.

أُرتِج عليّ، وبعد فترة من التفكير ومحاولة التذكر عبثًا، سمعت صوت خطوات على مسافة مترين إلى يميني، فالتفت نحو الصوت بتحفز عال، وقلبي يجيش بالانفعال، وأنا أتراجع جهة اليمين، حتى لمست قضبانًا باردة لما يمكن أن يكون زنزانة ما، وأنا أكرر:

ـ من هنا؟

واندلعت شعلة ثقاب حمراء، ضربت هالتها بؤبؤ عيني، يمسكها رجل عبر جدار من القضبان الطولية الضيقة، أضاءت للحظة ملامحه قبل أن يوليني ظهره، ويشعل به شمعدانًا سداسيًا كبيرًا، مواضع شموعه عبارة عن فكوك أسود مفتوحة بنهم، ويقترب به من الجدار الفاصل، يتفحصني بتمعن مدهوش، قائلا بهدوء، وبعربية فصحى شكلاً، متكسرة لغويًا:

ـ أخبروني أنك من الزوار. معذرة يا بني، لا ريب أنهم أحضروك في أثناء نومي، وأنا عادة أفضل النوم في ظلام. هل تفهم هيروليغيتي هذه؟!

كانت ملامحه ودودة، وصوته دافئًا محببًا، وهيئته مهندمة، وعباءته الجلدية نظيفة، يلتمع سوادها، وتتألق عليها خيوط من الذهب الحقيقي، تكون ما يشبه الكلمات العربية، بخط جميل مزخرف، ولكن كل شيء كان يبدو لي غريبًا، كأنني أنظر إلى الوجود من عيني طفل، فتحت على العالم للمرة الأولى، أو عيني قط نقلوه فجأة للحياة في أعماق البحار، فقلت بلهجة مذعورة على الرغم مني:

ـ منذا يخبرني بسر هذا المكان؟ من جلبني؟ ومن أنت؟ ماذا يحدث باللـه عليكم؟

تبسّم في ارتياح عظيم وأولاني ظهره، ثم سار بشمعدان الأسود المنير، ليشعل منه عددًا أكبر من الشموع المحيطة بزنزانته الواسعة، نشرت ضيها في المكان كله، لأكتشف أن زنزانته مشتركة مع زنزانتي، ومع واحدة ثالثة مفصولة بستار من قماش رث، وفي الخارج ممر حجري تنمو على جدارنه الطحالب، ويبدو ممتدًا لمسافة عشرة أمتار تقريبًا إلى اليسار، قبل أن ينحني إلى المجهول، أما إلى اليمين من هذا الجدار فها هناك ثلاث زنازين مشتركة أخريات، يجثو فيها بعض الأشباح، وفي السقف توجد فجوة مظلمة غامضة بكل زنزانة، وهناك ما يشبه كومة الثياب في ركن زنزانتي الآخر، ثم إنه أبعد الشمعدان عن وجهه، لتفادي الحرارة المنبثة، وقال بهدوء وارتياح نبرة:

ـ لا أحد من العالم الخرب يجهل أين هذا المكان، هذا يعني أنك من عالم (المُهدِّم)، وقانون الأراضي النحاسية واضح: إن لم تقتلك البرية أو السقوط، فهي سجون صرح (الخوان)، خاصة لو تكلمت بالهيروليغية. أنت يا بني ـ أصارحك ـ في عالم آخر بالنسبة لك، وندرة قليلة ممن سبقوك، بقوا دون جنون ودون أن يتأقلموا هنا في سجون الصرح، قبل أن تداهمهم الشبحية في جميع الأحوال.

أعرف أنك لن تفهم أي حرف من هذا على الفور، وأن أسئلتك ستنهمر فوق رأسي بلا توقف لعدة أيام، مهما بلغت درجة ألمعيتك، ولكن أيام السجن طويلة جدًا، ولدينا الكثير من الوقت حتى تفهم.

المخيف أنه كان يبدو صادقًا، ربما هو مستفز، لكنه صادق؛ فأنا لم أفهم شيئًا، والأسئلة كلها متزاحمة بجنون على طرف لساني. ومن خلف الأسنان المتوترة تفلّت سؤال قلق آخر:

ـ ربما اعتقلني الأعداء، وربما اختلفت وجهات النظر أو المفاهيم بين بلدينا، لكن كيف يكون آخر ما أتذكره عن نفسي أنني طفل في السادسة، وأجد نفسي الآن شابا يافعًا، أكبر من عمره الأول بأكثر من عشر سنوات؟!

انتهى من إشعال الشموع، ثم عاد يقترب من القضبان، وأنا كذلك، وقال وهو ينظر في عيني مباشرة:

ـ يا للفتى المسكين! إذن فالتأثير معك كان مضاعفًا. عادة يعاني المنتقلون إلينا من أعراض فقدان مؤقت للذاكرة، ولكن دائمًا ما يكون الفقدان، خاصًا بالمرحلة الأخيرة فقط من انتقالهم، ولا يمتد لسنوات ماضيهم مثل حالتك هذه.

شعرت بصداع مؤلم، مع سرعة تفكيري واحتشاد التساؤلات، وراح صدغاي ينبضان ويوشكان على التفسخ، فأمسكت جانبي رأسي، وأنا أغمض عيني بشدة، فتحرك الرجل الأصلع الهادئ، ذو الملامح الوسيمة على حدتها، وتناول شيئًا ما من حقيبة جانبية، ونقعه في وعاء لدقائق، ثم قدمه لي عبر الحاجز، قائلا بعطف:

ـ أنت تعاني من (أفكار وورو‌ز) كما نطلق عليها، أو آلام الرأس. اشرب هذا، واسترح الآن. لقد عدت لوعيك للتو، ولا ينبغي أن تضغط على عقلك بشدة.

شعرت بارتجاج طفيف في المكان كله، فتراجعت في حذر، وأنا أتلفت في كل اتجاه، دون أن ألتقط منه الوعاء، وابتسم هو، وتناول شربة واضحة، وابتلعها باستمتاع متجاهلاً تلك الهزة، ثم مد يده نحوي في صمت مشجع. كان الألم يتزايد بلا رحمة، فعدت أتلفت حولي في توتر، ثم أخذت منه الوعاء واحتسيت ما فيه ببطء.

بعد قليل بدأت أشعر بالحاجة إلى النعاس قليلا، مع مفعول شبه مخدر راح يذوّب الصداع، كما يذاب الأفيون في الشاي الأسود ببعض جلسات المحروسة، فاتجهت إلى ركن الزنزانة، واستلقيت أرضًا.

واستسلمت للراحة، مؤجلاً أسئلة عاصفة محملة.

* * *

«وصل وطواط».

هذه كانت العبارة التي تطرأ مباشرة على ذهن أي من جنود أو رعايا السادة، عندما يشاهدون أحد خفافيش الفاكهة المدربة متوجهًا نحو الصرح.

وفي السماء، جعل ذاك الخفاش غريب الشكل، عملاق الأذنين، يطير على ارتفاع متوسط. كانت له ابتسامة بشرية واسعة، مثيرة حقًا للانقباض، بدت ثابتة وهو يواصل التحليق، برفرفات متتابعة سريعة، من جناحيه الغشائيين الجلديين. عبر أسوارًا هائلة، وميز فيها اختلافها عن الأسوار التي عبرها في رحلته الطويلة، الأخرى تستخدم الأحجار والسهام، أما هذه فمستعدة دائمًا بكتل العشب، التي تصير عند المعارك كرات من النار، تهوي على الأعداء فتشعل فيهم جحيمها. واصل اجتياز الأسوار صوب قلب المدينة، المبني على تل واسع، يطلقون عليه تل (الغرب)، قبل أن يبدأ الارتفاع لأعلى تدريجيا، كلما اقترب من برج (الخوان) الهائل، والمحاط من معظم الاتجاهات بخنادق منيعة، وآلاف الجنود المخصصة للحراسة فقط. طفق يرتفع حتى بدأ طيرانه يتخذ شكلاً شبه عمودي، قبل أن يدخل إلى أحد أبراج الصرح البارزة، عبر كوة مثلثة يصدر من خلالها صليل جرس خاص غير مزعج، ولكنه لا ينقطع لاتصاله بساقية كبيرة أسفل الصرح، لا يكف أحد العجول الحمراء عن الدوران بها بدوره، وتلتقط آذان هذه الخفافيش ذبذبات الجرس، بمجرد اقترابها من الأراضي النحاسية، وبالحجرة التي تطل منها الكوة، التقط رجل نحيل ذلك الثديي، واستخلص من عنقه ما بدا أنه رسالة مبرومة بشدة، حتى إن طولها بعد الطي الأسطواني لم يتجاوز الإصبع، بينما الخفاش مستسلم كأنه مدرب على نحو عجيب، قبل أن يطلقه فيرفرف للحظات، تلك الرفرفة الجلدية المقيتة، ثم وبحركة أخيرة يتعلق في سقف الحجرة الكبيرة، شديد الارتفاع، والمصممة ككهف صناعي لهذه الوطاويط، وذلك وسط نحو مئة خفاش آخر.

هبط النحيل عشرات الدرجات، وانحرف صوب غرفة عليها حارسان عملاقان، وعندما أطلعهما على شكل الختم الملكي، طرق أحدهما الباب الخشبي الثقيل، ثم دخل وأحنى رأسه، وأخبر ذاك الأصلع المخيف بالأمر، ومن ثم دخل النحيل راجفًا، وهو يقترب من المكتب الأبنوسي للأصلع، كأنه يقترب من عرين أصلة عاصرة، وسلمه الرسالة بعد أداء التحيات، قائلاً:

ـ وصل وطواط.

وخرج بظهره في خوف واضح، ثم ما لبث أن أطلق ساقيه للرياح. أما الأصلع فلم يرقه للحظة خوف النحيل المبالغ منه، وألقى نظره ممتعضة على الشمع الأحمر الجاف، المرسوم شعاره على هيئة عقرب ذات ذنَبين، ثم غادر غرفته بعد دقائق باتجاه الأسفل، وكان من الواضح أنك كلما هبطت للأسفل اتسع الدرج الحجري، والممرات المؤدية للأجنحة والغرف العديدة، وبالمصادفة التقى بتلك الغادة الفاتنة أمام بوابة القاعة الإمبراطورية.

كانت ترفل في رداء طويل، واسع الكمين وفتحة الجيب، يتلألأ رأسها بتاج مزدان بالجواهر والأحجار الكريمة، ولها جمال كفيل بإصابتك بالجنون، وراءها ثلاث خادمات يرتدين أردية بدون أكمام، كعادة كل غير ذات أصل نبيل. توقفت فتجمد لمرآها واقترب محييًا ومحاولاً اكتساب رقة من فوق الإمكان، بالنسبة لشخصيته الصارمة، ملقيًا مجاملة بدت مصطنعة:

ـ الأميرة (فلاديوسا) جميلة جميلات (الخوان)، والأراضي النحاسية بأسرها.

لم تنزع قفازيها كما يقتضي تقليد اظهار الاحترام، لذوي المناصب الرفيعة، واكتفت بابتسامة مصطنعة باردة، وهي ترمق ثوبه الحربي الأرجواني القصير، المرصع بالدروع البيضاء، وقد ارتسم على صدره نقش دقيق لخنزير بري، بينما برزت أسفله نصف ساقيه عاريتين مشعرتين:

ـ مرحى عزيزي الفيكونت (هوريندوز)، يبدو أنك نسيت قدوم الشتاء، أم أنها دعاية للقبك بين الجيوش. (هوريندوز) القاسي.

تتبع نظرتها إلى ساقيه النحيلتين الصلبتين، رغم عمره الذي تجاوز الخمسين، وصعَّد إليها عينيه الغائرتين المخيفتين:

ـ عباءات النبلاء الصوفية الطرية الملتفة، تناسب الإقطاعيين المرفهين أكثر، وأنا مقاتل أميرتي، أجيد الطعن وركوب الخيل بساقين حرتين. مقاتل معه رسالة مهمة لجلالته.

كان يحنقها دومًا أنه الوحيد الذي لا يأبه لفتنتها المسيطرة وسحرها الطاغي، الآن يلمح كذلك إلى مشاغله الوزارية بشكل يحرجها أمام خادماتها، لذا فقد قالت بنبرة متعالية سافرة:

ـ جلالته طلبني لأودع روح مقاتل آخر، أصغر وأقوى وأجمل منك، دفعها عن طيب خاطر من أجل إرضائي. هيا يا فتيات.

ودخلت القاعة أمامه في خيلاء، والحرس الإمبراطوري يسرع لفتح البوابة الكبيرة لها ولخادماتها، ومن بعدهن تقدم الوزير وهو يضغط أسنانه بشيء من الصبر، وفي الداخل اتسع أفق الرؤية مع القاعة الهائلة، التي لا يقل عرضها عن خمسمئة متر بأي حال، والمزدانة بالأعمدة الفخمة، والتماثيل المرمرية الشامخة المطعمة بالفولاذ، التي تصور الأباطرة القدامى. تأمل الفيكونت قادة السلالة وهو يشعر في أعماقه بهيبتها، التي لا يضاهيها إلا حسده الموتور. هذا أولهم وأضخمهم حجمًا، وأول ما يخطف الأبصار في القاعة كلها، (جاروليوس الحفار) الغازي المقدس على يسار المدخل، يتألق فوق رأسه تاج من الذهب الحقيقي المطعم بالزبرجد، كما نحت في عصره هو نفسه، إبان حرب (الجنوب الأحمر) الحاسمة، منذ ما يزيد على القرون الثمانية، إلى جواره وبنفس نوعية الحجارة القديمة الصلبة، المقتلعة من جبال الجرانيت في الشرق، ابنه الإمبراطور (بالجا)، أحد أهم أبطال الحروب الخوانية الفنارية السبعة، خاصة بعد معركة (الأرض اليباب)، وتحت قدمه تمساح ملتوٍ لا يقوى على الإفلات، في إشارة لعقابه الشهير لمتمردي حملة (الحدادين الزرق)، عندما أطعمهم جميعا للتماسيح الطنانة عقب انتصاره. وهكذا تراص الأباطرة من السلالة الجاروليوسية، على امتداد نصف الجدار الشرقي بأكمله، واقفين في

أوضاع مختلفة، تظهر عظمتهم وتشير لانتصاراتهم الممجدة، حتى بدت القاعة أشبه بالمعبد، انتهاء بتمثال (أوسيزور) نفسه، بينما ينتظر النصف الباقي من الجدار الأباطرة المستقبليين.

شاهد (هازجير بن بالجا) وابنه (مونتر الأعسر)، بطلا حرب (الأنفاق)، التي شنتها الحورية (تيموت الأسطورية)، والحلاليف الصغيرة تتمسح في أقدامهما، ثم الإمبراطور (جونس الأشقر) مشعل الحرب الخوانية الفنارية الخامسة، أو حرب (جونس الدموي) كما أطلقوا عليها، ممسكًا بمشعل حجري نيرانه من العقيق الأحمر. هذا (والسو الحاذق) حاملا طبق (المجنوريس)، في إشارة واضحة لحربي (الجوع) و(الحصار)، اللتين أنهيتا الحروب الخوانية الفنارية السبعة، وذاك (فرين الكبير) ابن الإمبراطور (ماجولا الهادئ بن والسو الحاذق)، وعلى كتفه يقف نورس زاعق، بعدما اشتهر باستعانته بالشماليين، لإنهاء حرب الخلافة الفيجورية أو (تمرد آرم). بعد عدة تماثيل يبرز الإمبراطور (هاور المتعجرف بن مورانش بن كوهر بن شالين بن فرين الكبير)، المعروف بحصار الجزيرة المعلقة، وقد حمل في يده رأس رجل أصلع، ينتشر فيه العروق الخضراء، من أبطال الجزيرة الجرفية.

مر بجوار مدافئ الطوب الحراري المزينة بالبرونز، تلقي وهجها على بحيرتين اصطناعيتين، تبرز منهما نافورتان من رخام، على هيئة طائري رخ زرقاوين، بينما يعلو البهو فوق رأسه سقف عال، يرتفع لعشرة أمتار، تطل عليه النوافذ شديدة الطول ذات الزجاج الملون، وفي نهاية القاعة أمامه مخرجان يؤديان لغرفتين، يتوسط المخرجين المقنطرين، عرش الإمبراطور المهيب من الرخام الأزرق والأبيض، وقد وضع قبالة الاتجاه الشمالي، حيث أسلاف السلالة من ملوك الجليد، بينما كان الإمبراطور نفسه يلتهم وجبة دسمة، موضوعة أمامه على مائدة عريضة عامرة بالكؤوس والمشهيات، يتوسطها رأس ضخم لخنزير قبيح، ذي أربعة أنياب خارجة لأعلى على جانبي خطمه الضخم، وقد ثبتت جفونه مفتوحة بالخيوط الحريرية، كعادة طباخي الصرح؛ وكان الإمبراطور يرتدي جمة من حرير ذهبي ذات نقوش جميلة، طويلة حتى إنها ملتفة حول جسده عدة مرات من فوق كَتفه اليمنى، فوقها عباءة من الكتان أحاطت بالجسد ضخم التقطيع.

بعد انتهائه من طبقه تجرع بعض الخمر بيمناه، مربتًا بيسراه على نمر ضخم سيفي الأنياب، مستجلب من (غابات الثور)، يرمق زوار البهو الشاسع جيدًا، بدا كأنه انتهى من وجبته الدسمة أولا قبل سيده في جلسته المسترخية، رغم ملامحه الوحشية ونظراته النافذة، بينما المساعد الإمبراطوري وكبير الحكماء وعدد من النبلاء، يتوسطون البهو وقوفًا في انتظار مستسلم، وأعينهم شاخصة بهدوء وقور باتجاه ملامح الإمبراطور المزهوة وشاربه العريض الكثيف، وقد أحاطوا بقفص ذهبي فاخر، تعلوه زهرة كبيرة البتلات، ذكية الريح كزهور الغابة الرطبة. وبعيدًا في أطراف القاعة وعند العرش تنتصب في قوة، حفنة من الحرس الإمبراطوري المدرب على نحو شرس؛ ثم إنهم أفسحوا عندما دخلت الأميرة والوزير، ليتصدر الوزير المشهد أمام المائدة والعرش، بينما رقيت الأميرة ثلاث أعتاب رخامية، حتى جلست على مقعد فخم مجاور للعرش، ومبطن مثله بجلود الخنازير البرية، ثم نزعت قفازيها وهي تتبادل مع الإمبراطور تحية أنيقة برأسها، فردها لها، وهو يشير إلى الطبق الرئيسي قائلاً بجدية:

- إن (المجنوريسَ) الشهي يستحقُ سمعته، كأفضل طبق متحضر في المسكونة، سأضاعف عدد (غزوات التوابل) العسكرية حتمًا، رغم خشيتي من تزايد قدرات الهمج.

تأملت بقايا الطبق المكون من لحم الخنزير المشوي والخضراوات المتبلة، وهي تؤيده بابتسامة سريعة زادتها سحرًا، واكتفت بتناول كأس من النبيذ الخواني، الأفضل في العالم الخرب كله، بينما حيا الفيكونت (هوريندوز) إمبراطوره، وقال:

ـ جلالة الإمبراطور (أوسيزور الجاروليوسي)، وصل وطواط من أسوار (ذنَب العقرب).

تراجع (أوسيزور) بظهره وغاص في عرشه، وهو يرتشف النبيذ بتلذذ، ثم قال لوزيره:

ـ اسبقني إلى غرفة القيادة عزيزي الفيكونت، فنظراتك تخيف (صاجوت).

قالها وهو يربت على فراء النمر، الذي أطلق زمجرة حلقية خافتة، وهو يحدق في الوزير، بينما حيا الأخير الإمبراطور، واتجه إلى مخرج الغرفة على يسار العرش. كان (أوسيزور بن جاليث) من ذرية (جاروليوس الحفار)، الذي غزا أراضي الغرب الأزرق منذ ألف سنة، مؤسسًا إمبراطورية توسعت بمرور الوقت، لتحصل على الأراضي النحاسية والخلجان الجنوبية العظمى كافة، من بين أيدي أمراء الغرب المندحرين، والشعب الأزرق، وقد ساعده في حروب الغزو أخواله من ملوك الجليد القدامى، حتى سيطر نسله من الأباطرة المتعاقبين الذين تزين تماثيلهم القاعة، على كل مناجم ومحاجر الغرب، التي كانت في عصر الأخلاق المصدر الرئيس لصناعة الحضارة الهيروليغية الغابرة. وبجلال الأباطرة العظام، التفت إلى (فلاديوسا) بنظرة تحمل الملل:

ـ دعينا ننتهي من المراسم يا بنيتي، لو كنتِ ذكرًا لاستمتعت معك حقًا بإدارة شئون الإمبراطورية، الزاخرة بالمشكلات المنذرة بالويل.

حاولت كبح غضبها، والتفتت إلى كبير الحكماء:

ـ أيها الحكيم الأكبر (أسبيراتز). فلتبدأ مراسم الترحم الأميرية.

مسح (أسبيراتز) على لحيته البيضاء الهائلة، ثم التقط من ملابسه الخضراء الفضفاضة قرطاسًا، وتلا منه:

ـ ينعى صرح (الخوان)، القائم عليه جلالة الإمبراطور (أوسيزور الجاروليوسي) سيد (أوريوم)، خان الأراضي النحاسية، وسليل (جاروليوس الحفار) الموحد القديم للعظماء المتحدين (الملوك الخمسة) ذوي المآثر، للقيام بأحدوثة حفر خندق (حذر)، بكل العزة التي تملأ نفوس شعب السادة، وبكل الفخر الذي يعلو ابتساماتهم لوجود الأميرة (فلاديوسا أوسيزور) سيدة النبيلات وسليلة (جاروليوس الحفار) بين أسوار (الخوان) الكونت البطل (كونتريمر بامبيتش)، النبيل ذي الأصول الشريفة، الملقب بـ(مبيد الشياطين)، والبطل رقم أربعمئة وثلاثة، ويحمد ويثني على روحه، التي قدمها بلا تردد، من أجل الارتباط بالأميرة الرباط الوثيق، ومن أجل..

مال (أوسيزور) على ابنته بينما الحكيم يواصل ويكمل نعيه الرسمي، وهمس بضجر كامل:

ـ متى ينتهي هذا الملل؟! ليتني أجبرتك على اللحاق بشقيقتيك (إيفسنتير) و(روفالديا)، ليست كل الزيجات السياسية سيئة أيتها العنيدة.

ـ لم أرفض الزواج على إطلاقه. ما المشكلة في طلباتي؟ ألا يدعون أنهم فرسان لا يشق لهم غبار، يتفوقون على فرسان الخيول أنفسهم؟ أم أنك تخشى انقراض شباب النبلاء؟ هؤلاء الإقطاعيون الجبناء! إنهم ينطلقون بإرادتهم البحتة لو لم تلحظ هذا.

كذا أجابت بهدوء شديد.

ـ أول مئة شجاع طلبتِ منهم مهرًا متعنتًا، لكن الأملَ الشرير كان يداعب الصدور. الوصول لـ(نطاق المنايا) شديد المطلب، والحصول على جمجمة أحد الأبالسة بعيد المرام، لكنه ليس

بالمستحيل مقابل المصاهرة الإمبراطورية، فلماذا آخر ثلاثمئة واثنين طلبت منهم المستحيل عينه؟ كأس من (الينبوع الفضي)؟ ومَن مِن الأبطال يمكنه الوصول إلى الهضبة المحظورة والرجوع سالمًا، إلا الرخ العظيم وحده، طائرًا وسط السماء الغيمية الفسيحة؟

همست منهية الحوار السريع بعبث واضح:

ـ آخر ثلاثمئة وثلاثة، لا تنس عزيزنا (كونتريمر بامبيتش)، إن اسمه وحده أكثر طفولية وأنوثة من اسمي!

أوقفه هذا الارتجاج السريع الذي شمل الصرح، وانزلق له مرفقه المتكئ به على المسند، فاعتدل محنقًا على عرشه الضخم، وسمع كبير الحكماء ينهي عريضته بكلمات لم يسمع جيدًا ما سبقها:

ـ .. بكل الفخار والشجاعة والجسارة، وقرابين سامية للرخ العظيم والقمر المقدس (خارميل)، وها هم أصدقاؤه من النبلاء والفرسان، يحضرون مراسم التمجيد الشرفي، وإطلاق سراح روحه، والترحم عليها، متشرفين بإقامتها في البلاط الإمبراطوري الكريم، والتي ستنهيها أميرتنا جميلة الجميلات وسيدة النبيلات، (فلاديوسا أوسيزور) بيديها وبشخصها. فلتتفضل الأميرة بإنهاء المراسم، في الحضرة الفخيمة للإمبراطور الممجد.

وطوى القرطاس باحترام زائد، ثم التقط الوردة كبيرة البتلات من فوق القفص الأنيق، وتراجع خطوة ببطء وهو ينكس رأسه بإجلال، وكذا فعل النبلاء باحترام باد، فأشار (أوسيزور) برأسه لها كي تنهي الأمر، فنهضت بتثاقل انعقد له حاجبيه، وتهادت في بطء متعمد، وهي تدور من حول المائدة، فاعتصر هو ما أمكن لقبضته من استجماعه من الفراء، حول عنق نمره (صاجوت)، الذي يسند رأسه أرضًا على نابيه السيفيين، الطويلين بما يتجاوز استطاعة الفكين والشفتين احتواءهما، والتقطت هي الزهرة من الحكيم، وقطعت بتلاتها وهي تلقيها في أرجاء القاعة، ثم فتحت القفص لحمامة بيضاء جميلة، ذات طوق أزرق، انطلقت طائرة من فورها، وسط ابتسامة الأميرة والخادمات، و(أوسيزور) يشير لمساعده يحثه على تسليمه عريضة كانت معه، وقعها قائلاً بصوت مسموع هذه المرة:

ـ هذا هو الجزء الوحيد الذي يروقني. وسام (بطل الأراضي النحاسية). لقد وزعت عددًا لا بأس به من هذه الأوسمة في الآونة الأخيرة.

ثم تسلم النبلاء العريضة الموقعة والوسام، ورحلوا ممتنين على مراسم الترحم، بينما ترك (أوسيزور) كريمته تستعرض أخبار الرعية، مع مساعده الإمبراطوري السيد (وارسي)، وأشار لكبير الحكماء للحاق به في غرفة القيادة، وهو يكاد يهرول للقاء وزيره وقائد الجيوش، وعندما وصل وجلس على صدر الخوان المستطيل، نظر للحظة إلى الحلوف الكبير، المرسوم على سقف الغرفة الواسع كشعار للسادة، ثم قال لوزيره وهو يمسد شاربه:

ـ هذه المراسم ألعن شيء مثير للضجر في المسكونة.

بادله الفيكونت الذي ينتظره منذ فترة ابتسامة مجاملة، سرعان ما لقيت حتفها، وهو يقول بشفتين ناحلتين ذاتي مظهر شرس، لم يُجدِ الشارب المتوسط ولا اللحية الصغيرة عنهما ظهورًا:

ـ هذا حق جلالتك ولكننا عند راحة الأميرة الجميلة. هل أفتح رسالة العقارب؟

التقطها منه ووضعها دون أن يفتحها، وهو يقول بلهفة متشائمة:

ـ قبل هؤلاء المغاوير. ماذا عن (الزوار)؟ ماذا عن النبي؟

تبادل كبير الحكماء النظر مع قائد الجيوش، كأنما يتشاوران أيهما يبدأ، قبل أن يتنحنح كبير الحكماء ويقول بصوته الواهن البطيء:

ـ بالنسبة للفتاة والمغيب وبقية غير الهيروليغ لا جديد، فهم ينتظرون الحالة الشبحية في يأس، ويتبادلون المعارف مع الأسير المحترم (نوفيو)، والآخرون يلقون حتفهم في البرية. الزوج الأخير الذي عثرنا عليه ننتظر أن يفيقا. إنهما ملاصقان للأسير المحترم في الزنازين الثلاث المشتركة حسب التعليمات، ولم يعرف المغوار الذي سلمهما إذا ما كانا هيروليغيين أم لا.

نهض (أوسيزور) يصب لنفسه كأس من النبيذ، كان موضوعًا إلى جوار دَن مملوءة على مائدة صغيرة قريبة، ثم عاد إليهما مقطبًا:

ـ زوار بلا توقف وكلهم غير هيروليغ. ورسائل شديدة الندرة من عالم (المهدم)، منذ الخراب العام وكل شيء يمضي من سيئ إلى أسوأ، لن نفتح (ممر النجاة) قبل أن يصاب فؤادي بالجرب.

تطلع إليه (هوريندوز) للحظة وهو يعي ـ ككل سكان (أوريوم) ـ أن تعبيرَ (يصاب فؤادي بالجرب) يعني الموت، ثم قال بثبات يعرض ما لديه:

ـ بالنسبة للنبي، فـ(لاترو الخاشع) ناسك مميز وخطيب مفوه. يتزايد المصدقون وسط العامة، أنه مرسل من الآلهة لمنع الرذيلة.

جرع (أوسيزور) النبيذ، ثم أطلق ضحكة ترجرج لها بطنه، قبل أن يقطب جبينه:

ـ لا تقل لي إنه يقصد النساء؟ هذا الوغد ينوي التآزر مع الآلهة لمنعي من إنجاب الذكور إذن.

تبادل الوزير نظرة أخرى مع كبير الحكماء، ثم قال:

ـ المشكلة أنه يجيد الهيروليغية القديمة التي اندثرت تقريبًا منذ ألف سنة، مع الأقدمين والخراب.

وضع (أوسيزور) القدح بقوة فوق المائدة، قائلا بشراسة:

ـ لقد اكتفيت من هذا العاهر!

ثم فتح الرسالة المختومة، وقرأها بسرعة، وعلق على ما قرأه:

ـ قد أرسلها المغوار الثاني يعلن فيها قدومه، بعد وصوله للأراضي النحاسية، إنه في (الخوان) منذ ساعات بالفعل. أسلوبهم اللغوي كالعادة يفتقر للبلاغة، لكنه عملي ومباشر.

ارتفعت هنا الطرقات ثم دخل السيد (وارسي)، وقال باحترام:

ـ المغوار الثاني في القاعة الإمبراطورية جلالتك.

لقد جاء المغوار الثاني، قائد قوات العقارب.

* * *

فتحت عيني.

بحثت عن (عبد اللـه سودان) ولكني لم أجده، نهضت فلم أجد مخزن التموين، ووجدت الأرض بعيدة لأسفل عند أقدامي! وفورًا استعدت ذكرى قريبة جدًا. إذن لم أكن أحلم! أنا فتى في العشرينيات الآن!

حلمي وحلم كل طفل. النمو المفاجئ.

ولكني لم أنمُ بغتة، هكذا قال لي ذاك الـ..!

التفت بسرعة فوجدته جالسًا في زنزانته المؤثثة جيدًا عكس زنزانتي، والمترعة بالكتب والصحائف واللفائف، يقرأ على كرسي كبير ومكتب عريض، وقد انتبه لاستيقاظي، فترك الكتاب

ونهض، وهز رأسه محييًا إياي، وهو يقول بابتسامة مرحبة، وعربية عسيرة:
ـ هل أنت أفضل الآن يا..؟! ولكننا لم نتعارف بعد.
قلت كابحًا توتري وحيرتي الشديدين:
ـ اسمي (محفوظ). وشكرًا على الشراب. لهجتك المتكسرة تبدو ذات طابع أوروبي.
فر هذا الصرصور العملاق عندما خطوت تجاه القضبان الفاصلة، والرجل يجيبني بابتسامته الهادئة الدائمة:
ـ أنا (نوفيو) من (أرثوزا)، لكني أسير هنا لسبب سأحكيه لك. ولا يوجد هنا معنى لكلمة (أوروبي) هذه إن كنت أنطقها بشكل صحيح، تذكّر أو بالأحرى صدِّق أنك في عالم مختلف.
لقد عاد إذن إلى الهراء. زممت شفتيّ بوجهٍ جاد، وقلت بحزم:
ـ اسمع يا سيد (نوفيو). أنا لست شخصًا هينًا، لا أحد يدعي أنه خطير أو ملعون، ولكنني كذلك. وقد اشتركت في حرب دموية بالفعل، و..!
قاطعني بثقة وهو يعقد ساعديه أمامه:
ـ ألم تقل إن ذكرياتكَ متوقفةٌ عند سن السادسة؟ أم أن الأطفال في عالمكم يخوضون الحروب مبكرين عنا؟!
وهنا ولدت برقات الرؤية في عقلي. شفافة لكن مشوهة، متكسرة، مبرقشة، كأنك ترى مشهدًا من وراء زجاج معتم منقوش، قوية التأثير، صاخبة من معمعة الذكريات.
(فيراكروز).
خيول تصهل ألمًا وهي تحترق.
ومدافع تضرب كرات القنبر.
وبارود يتفجر.
وجنود قتلى.
وقواد فرنسيون، يصرخون، ويصيحون في رجال سمر البشرة، مصريين وسودانيين.
ودماء.
«هل تتذكر (مكسيكا) تلك؟»
انتزعني صوتها بعنف من تلك اللمحة، فحدقت فيها بفزع وذهول، وقلت باضطراب:
ـ (لويزت)؟!
قالت بلهفة:
ـ هل تعرف من أنا؟ هل تتذكرني؟
كانت كومة الملابس التي سبق وتجاهلتها عند الركن الآخر، ما هي إلا تلك الفرنسية، التي لا أعرف كيف حتى علمت باسمها.
فغمغمْت بحذر بنفس الفرنسية المنضبطة لغويًا:
ـ لا أذكرك، ولكنك كدتِ تقتلينني فزعًا. فقط لساني لفظ اسمك عفويًا.
ولاإراديًا تلفتت جيدًا في زنزانتي حتى لا أكتشف المزيد من النائمين وسط الظلال، ووجدتها تعود لنفس ركنها في إحباط، وهي ترتشف من ذات وعاء (نوفيو) المهدئ هذا، بينما تتمتم لنفسها بفرنسية سريعة لكن راقية:

ـ لماذا (مكسيكا)؟ من أنا بالضبط؟ (لويزت)؟ حسنًا مرحبًا يا (لويزت). ماذا يجري لكِ يا (لويزت)؟!

قال السيد (نوفيو) بهذه العربية الصعبة:

ـ لا أعرف لغة الفتاة، لكن هذا مؤشر جيد على أي حال. يبدو أنكما تتذكران مشاهد متفرقة وهذا جميل، لكن اختلاطه بحيرتكما وأسئلتكما، سيجعل من فهمكما للأمر عملية عبثية شاقة، تمامًا كفلاحة تحاول حلب أنثى حصان، بينما ترفس في وجهها!

دعني أشرح لك ما تواجهه وأخبرك ما لدي، ومن ثم ابدأ بطرح الأسئلة، ستجد أن عددها انخفض من مليون حاليا، إلى عشرين سؤالاً فقط بعد البيان.

لقد تسرعت بتهديد رجل يريد إهدائي المعرفة. ثم ما فائدة التهديد على أية حال؟ كيف سأذهب إلى مكان لا أعرفه، من مكان لا أعرفه؟ ولكن المشهد الذي رأيته عجيب بحق. ومخيف.

هل خضت حرب (مكسيكا) كلها؟ وكم لبثت من سنين؟ ومن هذه التعسة التي جلبتها معي؟ أية فجوة رهيبة سقطت من ذاكرتي؟

وفي محاولة مني للهدوء، سألته بشبح ابتسامة:

ـ هل تشربون لبن الجياد عندكم؟

أشار بسبابته قائلاً بلطف:

ـ نعم. وهذه بداية جيدة. الآن أصغ إليّ.

واستدار ثم جلس قبالتي على كرسيه الكبير.

* * *

عندما دلف المغوار الثاني إلى القاعة الإمبراطورية، مع أربعة من رجاله، انتبهت الأميرة (فلاديوسا) بشدة.

كانوا ضخام البنية، مفتولي العضلات، المغوار الثاني المعصب بقطعة من الجلد الأحمر، والمرتدي لحذاء قوي من جلد الجديان، والمغوار الثالث، وكان مبتسمًا لامع الأسنان، ومغوار عملاق فارع الطول يحمل فأس حرب (طبر) مزخرف، ومغواران توأمان تبدو على مُحييهما أمارات السفر الطويل. يقفون في طابور مائل، أولهم المغوار الثاني، وثانيهم المغوار الثالث مرافق صيد الإمبراطور، ثم الباقون ويشتركون جميعًا في ارتداء جلود الذئاب، وتعليق الأقواس الطويلة بدلاً من السيوف، والأقواس المستعرضة الصغيرة بدلا من الخناجر. لكن تركيزها كله تقريبًا انصب على المغوار الثاني، الذي كان وسيما رغم تقطيبه وفكه العريضة، مستحكم الخلقة، وثيق التركيب، في خلقه ضلاعة ومتانة، وقد حياها بركوع سريع، وكذا فعل الباقون، ثم نهض، وهي تقول بوقار:

ـ المغوار الثاني. قائد جيش العقارب، وصائد الطرائد والوحوش. يقال إنك أخطر صياد في العالم.

أجابها بهدوء:

ـ ويقال إنك الأجمل.

تفرست وسامته للحظة، ثم سألته وقلبها يخفق فجأة، على نحو أدهشها وأثار استياءها:

ـ وهل هم صادقون؟

قال بذات الهدوء، مع احترام وصدق:

ـ ربما بعد (بولبا) الحورية يا أميرتنا.

كانت الإشاعات حول جمال تلك القائدة العسكرية الجنوبية، قد وصلت إلى حد أسطوري، كجمال فتان، يغير الرجال ويلغي عقولهم إلى الأبد؛ حتى إن صوتها انحشر للحظة في حلقها، قبل أن تقول بحنق:

ـ الجمال بمفرده لا يغني فتيلاً إذا ذهب العقل ولم يعد يستمتع به.

أسرع يقول ملطفًا:

ـ أوافقك القول أميرة (فلاديوسا)، ناهيك بأن الرجالَ يفضلون البشريات، لا ذوات الزعانف.

أثلج قوله صدرها فعاد لخفقانه المزعج، حتى إن ملامحها التي لانت للحظة عادت للعبوس، وهي تقول باحتجاج عجيب:

ـ ألا ترى أن لباقتكَ تتناقض مع شراستك أيها العقارب، ثم كيف يدعي مغوار جميل قوي مثلك البطولة الفائقة، وقائمة عشاقي تخلو من أي مغوار حتى الآن!

في الظروف العادية كان حديث كهذا لفتاة طبيعية، يصنف من فوره كحديث لامرأة عاشقة، ولكن وضع المغوار الثاني في القاعة الإمبراطورية، أمام ابنة (أوسيزور الجارولويوسي) خان الأراضي النحاسية شخصيًا، كان يجبره على الحذر الديبلوماسي والحيطة السياسية، فكرر بلياقة واضحة ركوع التحية السريع، ثم قال بكياسة:

ـ لا ريب أنه خطأ جسيم منا يا أميرتنا النبيلة، أسألك بالنيابة عن قومي سادة الصيد، المغفرة والتسامح.

كان من الخطر الاقتراب الساخر بالقول أو التلميح من قائمة العشاق، أولئك الفرسان الرومانسيون الراحلون، ومعظمهم من النبلاء والأشراف ملاك الأراضي والحصون، وأبناء الإقطاعيين الكبار، وإلا فقد تفهم الأميرة الرد على أنه سخرية أو اعتراض، فيحدث ما لا تُحمد عقباه.

حاولت التفكير في استفزازه أو البحث عن ثغراته، لولا أن وصل (أوسيزور) ومجلسه، بعد أن أبلغه المساعد بوصول الصيادون، فنهضت الأميرة وهي تطبق فمها، وركع المغاوير مجددًا وبسرعة، ولم يرفعوا إلا عندما وقف الإمبراطور أمام المغوار الثاني، وأشار له بالنهوض، فنهض وجها لوجه أمامه، مدركا أنها لحظة شبه مجيدة، فعادة عندما يحادث (أوسيزور) أي مخلوق، يكون جالسًا، إلا في أحوال نادرة جدًا، عندما يحترم شخص ما بدرجة أكبر، أو يكون مهتمًا. وقال بتبجيل كبير:

ـ جلالتك. إنه لشرف لي يا مولاي.

كان الجارولويوسي مستمتعًا بلقاء صياد أسطوري كهذا، وما لبث أن قال له بابتسامة أبرزت بشدة تجاعيد جانبي عينيه:

ـ هل تسير صفقات الجلود جيدًا أيها الصياد القائد؟ أم أن ما أحضرك شيء آخر؟

أشار المغوار الثاني إلى الثالث:

ـ لقد قمت بتزويد المدينة بصفقات جديدة من الجلود واللحوم، لكن الأهمَّ هو الاستبدال؛ لقد انتهت فترة المرافقة السنوية في رحلات صيد جلالتك، ولا بد أنك بحاجة لمغوار أكثر شبابًا ومرونة وقوة، وسيعود المغوار الثالث إلى أسوارنا لتولي منصب عسكري في الوطن، بعد أن تشرف بمرافقة وخدمة جلالتكم.

أحنى المغوار الثالث المبتسم رأسه قليلاً عندما التفت إليه نظر الإمبراطور، الذي بادله الابتسام:

ـ كانت فترة جيدة ومثمرة، ولقد أنقذ المغوار حياتي مرتين بالفعل خلال هذه الأشهر، مرة من أفعى الحشائش الطويلة، ومرة من أسد جائع.

ـ أحضرت هذه المرة توأمين لا يفترقان، حتى إنهما حصلا سريعًا على ترتيب المغوار الرابع، وللتمييز فهذا الملتحي (الرابع أ)، وهذا الحليق (الرابع ب).

أومأ التوأمان برأسيهما كذلك، فضحك (أوسيزور) ساخرًا وعاد إلى عرشه، قائلاً باستهتار:

ـ لقد ازداد الطين بلة، كلكم مغاوير دون اسم لعين واحد! ما أحوال المغوار الأول، أما زال يجتر أحزان الشيخوخة بعد أن كان يومًا مرافق صيد والدي؟ لا بد أن هذا صعب على أمثالكم، أن يتقدم بكم العمر في نهاية الأمر، فتتوقفون عن الصيد والنشاط، إن غروركم لا يصور لكم إصابتكم بالنقرس وداء المفاصل في شتاء العمر. صدقني لو كان قد أصيب بالخرف كوالدي الراحل، لنسيَ كل ما يؤرقه.

ثم أطلق ضحكة مجلجلة أثارت تهكم (فلاديوسا)، والمغوار الثاني يبتسم في ثقة، محاولا أن يسمعه صوته:

ـ المغوار الأول يرسل إليك بتحياته، وهو يشتاق كعادته لأيام الشباب الخالية، لكن هذا أو التجارة ليسا فقط سبب زيارتي، فلقد علمت أن أحدَ المغاوير قد عثر على زائرين من عالم (المهدِّم)، وأنه عندما تأكد من عدم حملهما لرسائل من الأوائل، سلمهما لجنود السادة، ولكن القانون يحتم عرض أي زائر يجده أي عقرب على المغوار الأول أو الثاني، وقد لقي ذلك العقرب المخالف جزاءه العادل لمخالفة القانون.

انعقد حاجبا (أوسيزور) رغم ابتسامته وهو يتخيل طريقة عقاب المغاوير البشعة لمخترقي القانون بإلقائهم في (حفرة الأبالسة)، والمغوار الثاني يستطرد:

ـ الآن الزائران في سجون هذا الصرح قد عادا إلى الوعي، وحسب قانون أسوار (ذنب العقرب)، وقانون أسوار (الخوان) الذي يحترم قوانين الأسوار الصديقة، فلا بد أن أراهما جلالتك.

صب (أوسيزور) بعض النبيذ، وهو يقول بتعجب:

ـ وكيف علمت باستيقاظهما؟

ثم تبادل نظرة سريعة مع كبير الحكماء، الذي هز رأسه نفيًا بشكل غير ملحوظ، لينفي علمه بالأمر بعد، ثم أطرق برأسه ببعض الخجل، والمغوار الثاني يجيب بكل ثقة:

ـ الكل يستعين بالجن البحري.

التفت (أوسيزور) إلى المغوار العملاق في شك، ثم لم يلبث ثغره أن افترّ، وعيناه تصطدمان بعيني العملاق الفيروزيتين مباشرة، فركع العملاق على ركبته مظهرًا الولاء والطاعة وقد فهم ابتسامة الإمبراطور، قائلاً بصوت عميق تردد في الآذان بشكل مريب، كأن باعثه على مقربة إصبع منها:

ـ هل يريد جلالته أن أستبدلَ بهذه الهيئة، هيئتي الأولى؟

زمجر النمر سيفي الأنياب، مع الصوت غريب العمق للجني، وجرع الإمبراطور النبيذ، ثم أطلق ضحكة مجلجلة أخرى، وهو يهدئ نمره بضربات خفيفة على رأسه، فيمنعه من القيام:

ـ كلا. لا أريد أن أفسد شهيتي سائر اليوم، كما أنك ستثير ثائرة (صاجوت). حسنًا أيها المغاوير انتهى العرض. فليستبدل الرابع المزدوج نفسيهما بالثالث، وليلق الثاني نظرة على الزائرين الجدد، يرافقه كبير الحكماء لسؤال الأسير المحترم بدوره.

انحنى الفيكونت (هوريندوز) الذي يقف وراءه، هامسًا في أذنه:

ـ مولاي، إنهم يتحدون أحد بنود قانون (الخوان)، الذي يقضي بقتل أي جني جاسوس يتم القبض عليه منفردًا.

ـ أنت قلتها: منفردًا. وهذا يعني في القاموس: فشلكم.

احتقن وجه الوزير، ونكص على عقبيه منهيًا الهمس القصير، وهو يحدج الجني بنظرة متوعدة، بينما انحنى المغاوير، وتهيأوا لمغادرة القاعة، عندما عاد (أوسيزور) يستوقفهم:

ـ لكن مهلاً. ما الهيئة التي اتخذها الجني للوصول إلى سجون صرحي المنيعة؟

توقفوا، وقال العملاق الفارع محني الرأس تعبيرًا عن الاحترام:

ـ ذات هيئتي تلك، لكن منمنمة على ظهر صرصور الظلام يا مولاي.

* * *

الفرن المكسيكي

ـ «نحن وطنيون أيها الـ(نفر)»

مايو 1863 مكسيكا

الذكريات تتواصل بطيئة لكن قوية.

لم ننتقل فجأة إلى العالم الغامض، إذ إننا وصلنا (مكسيكا) واشتركت في الحرب.

تذكرت أننا وطئنا الأراضي الأمريكية الصحراوية نهارًا، وكان المغادرون فلول الجيشين الإنجليزي والإسباني المنسحبة. هبطنا أرض الميناء، بينما فضل الفرنساويون النزول بعد أن يغفو الوحش الناري، الذي يبعثر شرره وشروره في السماء والأرض، بما لا يساوي قدرة بشرتهم البيضاء الرقيقة على الاحتمال. وتحت ضوء القمر، وفوق رماد البراكين الذي يختلط بتراب هذه الأرض، أقيمت حفلة ضخمة للترحيب بنا حول الساحة الكبرى شمال المدينة، وقد نحرت وطبخت فيها مئات العجول والخراف والماعز، وبعد الوليمة اكتفى المتدينون من الأورطة السودانية بعراجين الموز، بينما أقبل الفرنسيون على جِرار (البلكة) أو(التيكيلا)، وهي خمور محلية قوية أدارت رؤوسهم وأرقصت أبدانهم. وجعلت أنا أتأمل الراقصات المكسيكيات بثيابهن المزركشة زاهية الألوان يرقصن على نغمات (الماريمبا)، وأفكر كيف أننا على مسيرة آلاف الأميال من وادي (النيل)، وأنني ربما لن أراه ما حييت، هذا إن طال عمري هنا عدة أشهر قليلة أخرى. لكزني (عبد اللـه) ضاحكًا حتى أخرج من شرودي، فانتبهت إلى تغير الألحان إلى النغم العربي، بعد أن تقدم موسيقيو الأورطة يرقصون بسيوفهم اللامعة، وإلى أسنانه البيضاء التي تبرق في الظلام، فابتسمت وشاركته التصفيق.

وانهمكنا بعد هذا الحفل اللطيف في نقل المعدات العسكرية من السفن إلى الساحل، وأمرني الصاغ (فرج وني)، بعدم حمل صناديق الذخيرة الثقيلة أو البطاطين، والاكتفاء بنقل الأدوية، فامتثلت بسرور. وانتهت الأمسية ببعض الثرثرة، مع جندي من قبيلة (الدنكا) بجنوب (السودان)، وآخر من بلاد (نمنم) المتصلة ببحر (الغزال)، كانا مصرين على تعلم بعض العربية، لكثرة

الجنود العرب، وكان الأول يتخيل شكل زوجته المستقبلية وشكل أبنائه، بصدق نية، فقال له (عبد اللـه) بسخرية:

ـ يا رجل لن تتزوج. نحن هنا في مثوانا الأخير فابتهج! لن تتزوج حتى لو انتظرتك ألف عروس وعروس.

قال الدنكاوي بعربيته المتكسرة الظريفة رغم ذلك:

ـ مستحيل يا (عبد اللـه). في (الدنكا) حتى إذا مات الرجل بدون زواج، يتزوج له أخوه بالإنابة. فتصير زوجة أخي هي زوجتي، حتى لو مت. ويصير أبناؤه أبنائي حتى لو مت. نحن نقدس أرواح السلف يا (عبد اللـه). وسيكون لي أبناء يمجدونني.

بينما كان للنمنمي نادرة عجيبة حقًا، وهي أن لحومَ الكلاب عندهم هي الأفخر والأندر، ويأكلها أمراؤهم بعد إضافة التوابل والبصل!

فكانت هذه المُلح، وعادات القبائل الغريبة عند المجتمعات المتباينة، تُسرّي عن بعضنا كثيرًا.

صدرت الأوامر للأورطة، بمجرد استقرارها في الأراضي المكسيكية الحارة، بتطهير المنطقة من زُمر اللصوص، ثم الزحف إلى (بوبلا) والعاصمة (مكسيكو)، فكنت في مقر الأورطة بـ(فيراكروز)، أُعنى بالنقل والتنظيف، بعيدًا عن القتال الحامي تحت شمس أحمى، وأحيانًا يتوسم فيّ قائد فرنسي ما بعض النجابة، فيستخدمني في تجهيز ثيابه الشخصية، معتقدًا أن السودَ يمكن أن ينقلوا الأمراض له، أما فاتحو البشرة أمثالي أنا والقائد (جبرة اللـه)، فأقرب لجنسه الأوروبي المتغطرس. كنت أكتم ضحكاتي عندما أرى الفرنسي من هؤلاء القادة، وهو يأوي لمخدعه، بسبب هيئته الأوروباوية العجيبة، إذ كان يرتدي قلنسوة الليل، وجلباب النوم القصير، وخف منزلي ضخم، فيبدو لناظري أشبه بالمهرجين ذوي الطراطير!

كان (عبد اللـه) هو كل أهلي الآن، وقد شعر بتعلقي به في هذه الغربة، وعراء البعد، فتحايل حتى يبقى في خدمة المعسكر الداخلي، ولا يبتعد عني كثيرًا، لكن متانة بنيانه كانت تجبر القادة على إرساله، ضمن دوريات التطهير والتمشيط، أو ضمن بلوك ونصف بلوك من قوات الأورطة، لحماية طرق المواصلات من هجمات اللصوص.

كنت كثير الأسئلة، حتى إنني تجرأت ذات مرة، وسألت ضابطًا عظيمًا برتبة صاغ، اسمه (محمد الماس) أفندي، قائلاً:

ـ لماذا يصر اللصوص كل هذا الإصرار على التضحية بحياتهم، لأجل الإضرار بنا سيدي؟

تأمل أركان الحرب نوبي الأصل بشرتي البيضاء، المصحوبة بجسارتي في دهشة، ثم قال بهدوء:

ـ إنهم خونة أيها الصبي. ووظيفتنا هنا مجابهتهم.

ثم واصل إلقاء التعليمات على اليوزباشية في صرامة، وهو يبتعد عني. حتى هذا الوقت كنت أظنني الغافل الوحيد، وأنني كنت في وهم اعتبار هؤلاء المقاتلين لصوصًا وخونة، وهي أقذع التهم، بينما هم ليسوا كذلك؛ ولكنني فيما بعد، فهمت أن جميعَ الجنود والأنفار، كانوا يعاملون المقاتلين بهذا المنظور. حتى وقع ذلك الحادث، الذي غيّر من رؤيتي لهؤلاء الوطنيين إلى الأبد.

كنت كعادتي أحرص على الخدمة بلا تذمر، فلا أشكو رداءة الطعام، وتغير طعم ورائحة الماء وندرته، عندما تم استدعائي في أحد أيام شهر (مايو)، للمعاونة في نقل حاجيات أربعين مريضًا، يتم نقلهم للمستشفى بسبب حميات، ناتجة عن وخامة الأراضي الحارة، وفساد هوائها، ولدغات

الحشرات السامة؛ وبينما أنا في المستشفى متأهب لنقل الأشياء الخفيفة، التي تعهد إلى الفتيان لا الجنود، سمعت أن البكباشيَ (جبرة اللـه محمد) أفندي شخصيًا قد وصل، بسبب حمى صفراء شديدة، فيا للعنة على هذا الفرن المكسيكي! هرعت إلى حجرته لأفاجأ بأحد الأطباء الفرنسيين، يسدل ملاءة النهاية على وجه قائد الأورطة، وكان الرجل شامي الأصول محبوبًا من الجميع، الفرنسيين قبل المصريين والسوادنيين، ويكفي لتمثل هيبته، أنه كان من رجال العظيم الفخيم (إبراهيم باشا)، وتم إرسالي للمعسكر القريب برسالة شفهية من قائد فرنسي ناحل، لإعلان خبر وفاته الحزين.

ولكن باغتني في الطريق أحد الملثمين، وهو يرتدي ملابس جنود الأورطة، ووضع نصل بندقيته على عنقي، آمرًا إياي بفرنسية ركيكة بركوب حصانه، وترددت للحظة لعدم فهمي اللغة تمامًا بعد، رغم وضوح الإشارة.

كان من الممكن أن أقتله فورًا بواسطة شيطاني الحامي، وكان ما تلقيته من تدريبات، كفيل بأن أنجز المهمة بسهولة، ولكن براءتي منعتني من القيام بهذه الجريمة غير المسبوقة، خاصة أن الملثم لم يحاول قتلي، كما أن ارتداءه ملابس جيشنا الصغير بلبلني بالفعل، وقد كنت ضعيف الخبرة بكل أعمال الاستطلاع والتجسس، هكذا صدعت لأمره، وصرت رديفه، وسارع هو بالابتعاد بي وسط دروب المرتفعات القريبة، المحيطة بالميناء. وفي كهف جبلي واسع منظم، اكتظ بالمكسيكيين ذوي القبعات العملاقة، المسدلة على ظهورهم، بدأ استجواب طويل حول كل ما أعرفه، عبر وسيط يجيد الإنجليزية التي علمني أبي معظمها، ضمن العلوم التي درسها لي، وكان من يستجوبني رجل برونزي البشرة، بدرجة لامعة غريبة، له شارب هائل، ويضع على كتفه ما يشبه الحصر رغم سخونة الطقس الشديدة، والتي جعلتني أطلب الماء كل ربع ساعة، واستمر الأمر طوال النهار، ما بين أسئلة عن الأسرى المكسيكيين، الذين يعملون في السكك الحديد الخاصة بنا، وعن أعدادنا وتسليحنا، وأنا أجيب من باب الصدق الساذج، الذي فرضته علي هذه المغامرة المخيفة، والمفاجئة. وعندما سحبت الشمس آخر عربات قطارها الناري ذلك اليوم، جاء رجل آخر أشيب، هب له الجمع في احترام ظاهر، وهم يؤدون له التحية النظامية، بينما سأل هو البرونزي عما يحدث، ويبدو أنه سخر منه وهو يشير إليّ، ثم اقترب مني وانحنى، وقال بهدوء غشي إنجليزيته الركيكة:

ـ ما اسمك وجنسيتك؟

ـ (محفوظ). مصري.

ـ من أين لك بكل هذه المعلومات عن الأورطة التي استجلبها الفرنسيون؟

ـ أنا نفر.

هكذا قلت باعتزاز. دون أن أترجم كلمة (نفر): (نفرam I). سألني عن المعنى فتباطأت في إيجاد معنى بالإنجليزية، فسألني وهو يشير إلى المكسيكيين، ومعظمهم من الهنود الحُمر ذوي الشعور المرسلة:

ـ هل تعرف من هؤلاء أيها الـ (نافار)؟

قالها باستخفاف ممطوط، فأجبته بتحد أكسبني إياه ظلي الخارق:

ـ لصوص. والجيش المصري سيقتلكم.

لوهلة بدا عليه استغراب، ثم ابتسم على نحو أدهشني، وقال لي:

ـ ولماذا يقاتل اللصوص بكل هذا الإصرار في رأيك؟
أغشتني الحيرة لثوان، وقد كان السؤال على لساني للصاغ منذ أيام قليلة، وقلت:
ـ لا أعرف. ولكن القادة أخبرونا أنكم لصوص. ألستم كذلك؟
ـ نعم. إننا أهل أولئك البلاد، وقادتكم هؤلاء يحتلوننا. نحن وطنيون أيها الـ(نفر)، نحن ثوار ضد الملكية، نذود عن أرضنا المغتصبة ونقاوم المستعمر.
قال نعته هذا عندما وجده أسهل من اسمي الحقيقي، وبدا تصريحه برمته شديد المفاجأة والغرابة في نظري، ولكن بعد قليل من التفكير في الأمر وتأملي لقسوة المكان الذي يقطنونه، مع حداثة معداتهم وتنظيمهم، استطعت التمييز بين أساليبهم العسكرية، وتخيلي التقليدي عن عصابات اللصوص المعتادة. استطرد متجاهلاً ملامحي المشدوهة:
ـ قبل أشهر من وصولكم، استطاع أبطالنا الجمهوريون هزيمة المستعمر الفرنسي، في موقعة الخامس من مايو العظيمة، شر هزيمة، وأضاف قائد ثورتنا النبيلة (خواريز) البطل، مجدًا وفخارًا جديدًا للثوار.
كنت أزداد ارتباكًا وحيرة، بينما لم يأبه هو لصدمتي الفكرية، وقال لي متعجلاً:
ـ الآن سنعيدك إلى النقطة التي التقطناك منها، وستواصل اتجاهك نحو معسكرك، ثم ستدعي أنك ضللت الطريق، فقط إذا سألوك عن سر تأخر وصولك. تبدو أذكى من سنك بكثير، وتعرف أن بحثهم عنا خارج المعسكر هو الانتحار بعينه، فقِ جيشك من التهلكة وقِ نفسك. يمكننا قتلك بكل بساطة، لكنك صغير للغاية، وهذا ضد مبادئنا النبيلة وحربنا الشريفة.
التزم بما قال، رغم اعتراض بعض مساعديه في ما بدا، وأعادني سالمًا، ولكني عدت إلى المستشفى لا المعسكر، حيث أدركت أن سؤالهم في المستشفى عن تأخري في إبلاغ الخبر، سيكون أقل قسوة؛ وهناك بالفعل ذاب الأمر تمامًا وسط الحركة الدائبة، ولم يهتم القائد الفرنسي الذي أرسلني، بالتحقيق معي عن كيفية إضاعتي للطريق، خاصة مع وصول أكثر من خمسين مريضًا دفعة واحدة، وكانوا كلهم من الفرنسيين المحمومين. وعدت إلى عملي المعتاد المستمر كالنحلة، إذا كان النحل يتصبب عرقًا، حتى توغل الليل، ومن ثم لجأت مكدودًا إلى فراشي.
وجافاني النوم، ونبا بي فراشي وأنا أفكر في ما جرى.
وبعد تفكير مرهق طويل شابه استغراب مقيم، توصلت لأمرين مهمين للغاية: الأول الذي يفوق سني بالفعل، أننا نساعد الفرنسيين على احتلال أرض هؤلاء الوطنيين، وننعتهم باللصوصية والخيانة، وهم ثوار شرفاء.
الثاني وهو الأخطر على المستوى الأخلاقي والميداني: أنني أفشيت بمعلومات ستضر بجيشنا، وهذا في عرفي خيانة وليس له أي مسمى آخر!
اضطربت وتوترت بشدة مع الخاطر، وأدركت أنني تورطت في مشكلة خطيرة، ولا بد أن أناقشها مع أحد ما في أسرع وقت، ولم يكن بالطبع سوى (عبد اللـه سودان)؛ أخرجت من عنقي مسبحتي الكهرمانية، ورحت أذكر اللـه عليها لعل قلبي يطمئنُ بذكره، ولعل وجه العم (إدريس) يزين أحلامي، فأتمكن من تلجيم ضميري وأنام.
في اليوم التالي انطلقت أبحث عن (عبد اللـه) بلهفة، وأنا أدعو اللـه العظيم ألا يكون في مأمورية لمطاردة الثوار، جزء كبير من دعائي كان بسبب حاجتي الملحة للحديث معه بالطبع، لكن هناك جزءًا لا بأس به أيضًا بسبب إشفاقي على قتل الوطنيين، بعد ظهور حقيقتهم جلية أمام

عقلي البكر. ووسط استعدادات خاصة غامضة ذات طابع احتفالي، لم أدر سببه ولم أبال بالسؤال عنه، عبرت المعسكر بحثًا عنه، حتى وجدته لحسن الحظ في موقع الأسلحة ينظف بندقيته الطويلة، وبلهاث مرتجف، أسررت له همسًا بكل شيء، فوجم قليلاً وهو يتلفت حوله، ثم قال بجمود وهو يستأنف تنظيف بندقيته، بسيخ التنظيف الطويل:

ـ استعد يا (محفوظ). بينما سيحتفلون الليلة هنا في (فيراكروز)، بانتصار الضابط (جاك فرانسوا) والصاغ (محمد ألماس)، ونجاحهما في احتلال العاصمة (مكسيكو)، ستقوم الأورطة بمهمتين رئيسيتين، الأولى التشريفات الرسمية، والثانية تأمين المدينة. وسترافقنا في التأمين، لمساعدة خازندار المؤن في نقل الإمدادات الغذائية.

حملقت فيه بدون فهم، ثم قلت باحتداد هامس:

ـ أي حفل وأي تأمين؟ أقول لك إنهم قاموا باختطافي وإنهم ليسوا مجرد لصوص، والأخطر أنني أفشيت لقائدهم أسرار الأورطة.

ـ نحن في طريقنا للموت، والموت على يد لص لا يختلف عنه على يد ثوري، كلا الميتتين بطعم البارود أو السيف. ولن يشكل ما رويته لي مأساة ضميرية لهذا الحد، لقد أجبروك، ونحن في زمن الحرب، فلتحمد اللـه على أنك حي لساعات إضافية.

قالها بغضب مكتوم واكتئاب واضح، وكأنما يستشعر اقتراب الموت أصدق المواعيد، أو كأنه لا يريد سماع مزيد من الأدلة، على أنه عبد يساق إلى مهزلة أكثر من كونها حربًا؛ ويكأننا في فناء سجن كبير، بقاع صرح، نتقاتل على فتات.

ـ فقط لو قرروا إعدامي. أنا في شوق لوالدي، وقد تقت إليه. ولو قرروا إعدامي لن أخفي حقيقتي. أؤكد لك قدرتي على الهرب منهم. أخبرني يا (عبد اللـه). لو هربت، هل ستساعدني؟

ـ لن يقتلك أحد إلا على جثتي يا أخي الصغير.

حملقت فيه بحب تلاه شرود.

* * *

(محفوظ النحاس) في ساحة معبد فرعوني، مزخرف بزهور اللوتس الملونة، يجلس القرفصاء، وقد أحيط بأعواد خشنة، من بخور مبهج منعش الروائح، يفكر في ولده البعيد ومرضه المديد. ولكن ظهور (ملك جهان)، بسحبها الفضية المذهلة المحيطة بها، أشاع بسمة الانبساط والاطمئنان في وجهه:

ـ ما الذي حل بك يا حبيبي الأول والأخير؟

ـ برؤياك لم يعد هناك أي شيء. فقط الهناء والعشق والسكينة.

ـ لكني أراك ممدًا بينما أقف على حافة شرفتك.

ـ عجيب. وكيف تفعلين؟

ـ عبر (رخ).

ـ أَوَحقًا تفعلين؟

ـ هذا ما يجعلني أشاهدك في غرفتك الخشبية العتيقة.

ـ إن للأرواح شأنًا عجيبًا حقًا بعدما تفارق الأجسام.

ـ ولكني لم أمت بعد، فقط لا يمكنني رؤيتك من عالمي، إلا عبر عينين قويتين كعيني النسر (رخ). إن صديقي الذي يساعدني يبذل تركيزًا فائقًا، ورغم البيئة الخاصة عند صخرة الأبدية، فإن

روحينا لا تتمكنان من التلاقي إلا عندما تغوص في النوم.

ـ (ملك جهان). أتعبني ظهورك وأعادت ذكرى فقدك ألمًا وحشيًا، فلا تمنحيني الآن دهشة وأملاً وحشيًا.

ـ أعرف أن الأمرَ يفوقُ قدرة البشر على التصديق، ولكني لم أمت. لقد شعرت عندما فرقنا السحرة الحقراء بألم، كالدخول في النزع بالفعل، ولكن ما حدث أن برودةً رهيبة اكتنفتني، من شعر رأسي وحتى قدمي، سقطت بعدها في غياب، تكتنفه الألوان والأنوار والأصوات، ثم ساد الظلام إلى ما شاء اللـه، ثم صحوت هنا في هذا العالم المقبض الغريب. لم أمت ولكني أتجه لحتفي بالتدريج. للموت الحقيقي هذه المرة.

ـ ويحي! إذن فأنتِ حية ترزقين؟! يا رب الكون العظيم! اصبري يا حبيبتي وحميمتي لا ترحلي. اصبري يا حلم القلب والروح. إن كنت على قيد الحياة، فلن يطيب لي العيش يوم آخر دون لقائك، أينما كنت، فلتخبريني بمكانك، بعنوانك. أين أنتِ الآن؟ كيف السبيل إليك.

ـ لا أعرف يا (محفوظ). لا أعرف كيف أشرح لك الأمر. أدعو إله العالمين، ألا يكتب على اجتماع أعيننا بالاستحالة. وأستغيث برحمته الواسعة أن يوقف القدر، إن أصرّ ألا تأخذه بنا رأفة.

* * *

مكسيكا 1863

خلال هذا العام خضنا عددًا من المعارك ضد الثوار.

وصار الصاغ (محمد ألماس) هو البكباشي الجديد بترقية مباشرة من (سعيد باشا). كنت أرافق حملات القتال بكراهة مني، وكان دوي البارود القريب مرعبًا بما يكفي. البارود. موطن قوة الرجل الأبيض الذي استضعف الشعوب، واتخذ منها مستعمرات تؤمن له الثروات والتجارة والغذاء، لو كنا نحن من اخترع البارود لكانت الحال قد تغيرت ربما. أنا أبيض لكن بدون مستعمرة.

لكن سرعان ما كانت أفكار كهؤلاء تناقض بعضها بعضًا، عندما أسترجع ما علمنيه والدي العزيز، حينما كانت تأملاته تزين أحاديثه، التي تعجب منها (فرحانة) الصغيرة، وتعلن ضاحكة أنها لا تفهم. حينما كان يقول لي معلمًا: « لم يبدأ عصر النهضة واستفحال أمر الأوروباويين بالسلاح وحده يا (محفوظ)، كان مع السلاح علبة صغيرة فيها إبرة حديد، جلبت الثروة، مجرد إبرة ممغنطة ضمنت لهم الإبحار، واستكشاف كنوز الشعوب البعيدة، هذه العلبة هي البوصلة. ومع البوصلة كان العلم. العلم المسطور في كتب مطبوعة، بدلا من كتب النسخ اليدوي محدودة الانتشار، الكتب التي سحبت من الكنسية احتكارها للمعارف، في حين أننا لا نعرف من الكتب سوى المتون الدينية. إذن حتى لو كنا قد أنتجنا البارود أولاً، لما أفادنا هذا بشيء بدون الجغرافيا والعلوم. لا أريد أن أسحب من الفقهاء دورهم، لكني أريدهم أن يحترموا العلوم الإنسانية، كما يحترمون علوم الشريعة.

وفي هذه الحملات العنيفة الصاخبة، وكلما تعرض جندي أو نفر عادة إلى بوادر حمى، كانوا يناديونني. (مافووز). (محفوظ). أيها الجندي (مافوز). يا نفر (محفوظ)، فأهرع نحو خيمة المؤن، وأحضر للمحموم شراب (الكينا) المقوي، لإنقاذه من الملاريا. لاحظت أن البيضَ من المكسيكيين

يشبهون المصريين كثيرًا. وكان القائد العام المارشال (فوريه)، يشيد دومًا بالأورطة السودانية المصرية، ولا يبدي أدنى ملاحظة سلبية بشأنها، بعد ما أظهرته من ضروب الشجاعة والصلادة.

وفي الموقعة السابعة من معارك هذا العام الثالث والستين، حدث ما كان يخشاه (عبد اللـه سودان) من اقتراب المنية.

لقد كانت خيمة (عبد اللـه) في هذه المواجهة، بالقرب من منطقة موحلة، يتخللها مستنقع تنعقد فوقه الأبخرة، وكانت الحراسة بالقرب منه في أقل مستوياتها، لعدم توقعنا هجوم الثوار، من تيك المنطقة الصعبة، السبخة؛ وبينما كانت تحل آخر ليلة لنا في هذا الموقع بعد انتصارنا، وتطهير المنطقة نهائيًا من الوطنيين، وأسرنا للبعض الآخر ليعملوا كسخرة، زرته في خيمته للسقاية، والتسامر مع رفيقاه الجزائري والهندي، في الهزيع الأخير من الليل، حيث يتعاون مع جيشنا عدد من الهنود المحليين؛ وبينما نسخر من لهجاتنا المتباينة، وطرق نطق الأسماء المعوجة، إذا بانفجار مباغت، حول الظلام إلى نار حمراء.

وامتزجت صرخات الوطنيين الراجلين القتالية، بصرخات وصهيل الجياد، التي أصابتها نيران الانفجار، لتشق سكون المعسكر، وأدركت في ذعر أنها محاولة من الثوار للهجوم، وحرق خيامنا على سبيل الانتقام؛ فالتقط (عبد اللـه) ورفيقاه بنادقهم مشرعة السناكي، وخرجنا من الخيمة بسرعة لفهم ما يحدث، وإذا بالبارود يحصد الجزائري والهندي مع الصدمة الأولى، وبضربة من كعب بندقية تهوي على السوداني من أحد مهاجمَين، كانا طليعة الهجوم الانتقامي، ثم ألقى ثانيهما مشعلاً على خيمتنا، وصوب فوهة بندقيته ليقتل صديقي الوحيد؛ وهنا اضطررت للتخلي عن كل ما في الكون من أخلاق لإنقاذ من تبقى لي، حتى لو خالفت جزئيًا تعليمات أبي الصارمة. فاسودت حدقتي فجأة للمرة الأولى منذ شهور طويلة، وانبعث مني غاز أسود ثقيل متموج الأطراف، أحاط بسائر بدني كغلالة مخيفة من ظل، متبديًا على ضوء نيران الخيمة المشتعلة؛ وبضربة واحدة من حافة يدي المسلحة بذلك الظل الشيطاني، شققت بندقية المهاجم إلى نصفين، أمام صراخ زميله الهلع، وذهول (عبد اللـه) الرهيب، الذي أنساه ألم ضربته بشكل كلي، ثم لطمت جانب وجهه لتغوص فيه أصابعي سلسة بهيئتها المسودة، فتقتلع بدموية خُمس جمجمته الذي يحوي عينه اليمنى، دون أن ينفصل هذا الجزء تمامًا من الرأس، بل ينضرب كمصراع في يوم عاصف بمنطقة محجر عينه اليسرى.

وفي مشهد مفزع لم يحدث في سجل الأحياء، شاهدَت عينه اليسرى للحظة عينه اليمنى، تتأرجح في مواجهتها بالضبط، خاملة نصف مفتوحة وميتة تمامًا، قبل أن يفقد دماغه كله ترابطه رعبًا وانهيارًا!

وسحبت ذراعي مشمئزًا ومعه روحه، ليسقط ميتًا من فوره، والآخر يفر إلى المستنقع صارخًا بكلمة ما، راح يكررها إلى الأبد، كأنما رأى سحنة (إبليس) اللعين.

وفي غمضة عين انسحب ظلي متراجعًا تحت جلدي، واستعادت عيناي لونهما الطبيعي، وطفرت دمعة ألم من مقلتي، كأنما تنعى وتندب ما اقترفته يدي، وأنا أهتف:

ـ التقط سلاحك.

انتبه في انزعاج لسقوط بندقيته فالتقطها، وراح يطلق البارود على السيل المهاجم، وهو يجبر نفسه على التركيز بشكل بطولي، محاولاً ألا يفكر في ما رآه مني للتو. ونجح إطلاق البارود المحدود، في استنفار الجند والحراسة بسرعة ناحيتنا، وبعد نصف ساعة فقط من القتال الليلي

الانتحاري بالبارود والسيوف، تمت السيطرة على الهجوم واستعادة الأمن في المعسكر، ولم تنفق إلا بضعة خيول محترقة، ولم تحترق إلا خيمة (عبد اللـه)، ولم يقتل سوى زميليه.

وعندما استطعنا الانفراد، سألني بتوتر عصبي بلغ منتهاه:

ـ ما هذا الذي حدث لك؟ هل أنت مصاب بمس ما؟

تحليت بأكبر قدر من الهدوء والجدية معًا، وأنا أطمئنه بلهجة تشوبها مرارة:

ـ هذا ما حاولت التلميح إليه في أيام (لاسين)، إنه شيطان يمكنك استدعاؤه لكنه لا يؤذي إلا بإرادتي، إلا إذا كان الخطر غير منظور، وقتها يهب لنجدتي على الرغم مني. أي أنه مجرد منقذ. خادم ذكي.

رمقني بشك وقلق متردد، دون أن تغادره الرهبة تمامًا بعد، وهو يستعيذ ويبسمل:

ـ صدقني يا أخي (عبد اللـه). هذا الظل لا يثور إلا وقت التهديد المباشر، وهو حماية ورثتها عن أبي، وأبي ورثها عن جده الأكبر القديم، ولا أعرف سببها على وجه اليقين. ولا أعرف حتى كيفية التخلص منها.

ـ ولماذا يتخلص إنسان من شيطان خارق كهذا، ما دام ينفعه ولا يضره، اسمع. لقد أنقذت حياتي كلها. يمكنك أن تصير إمبراطور (فرانسا) نفسه، بل إمبراطور العالم أجمع بحراسة متفوقة مثل هذه.

حدقت فيه بدهشة للحظة. أفكار الكبار حتمًا أكثر عدوانية، ثم هززت رأسي نفيًا:

ـ من غير الممكن. هذا الشيء في داخلي تسبب في إصابتي بهلوسة، جعلتني أراني في هيئة حيوانية. لا ريب أنه السبب، ولا شك أن هذا ينفرني منه، ويجعلني راغبًا في قمعه، لا إطلاقه أو الحلم عبره وبه. هذه الطموحات والمشاريع غير مطروحة.

* * *

بَيد أن الكبارَ يفعلون أشياء أخرى أكثر غرابة ربما من لعنتي هذه.

فبعد الموقعة الثامنة والأخيرة لهذا العام، وأحمد اللـه أنني لم أكرر استخدام قدرتي فيه، عاد الجنود منهكين إلى المعسكر الرئيس في (فيراكروز)، وقد حمدوا ربهم على نجاتهم من صرعة الموت مجددًا، وأن الحياة بكل ملذاتها ما انفكت باقية، شهية. وفي الليل كان بعض الضباط والقادة من مسؤولي الحراسة، يغضون البصر عن تحركات مرحة ومريبة، تغلفها الابتسامات الواسعة داخل بلوكات الأورطة الثمانية، وحاولت الاستفسار من خازندار المؤن، فنظر إليّ باستنكار نظرة ذات شزر، ويكأنني استفسرت عن أكثر الأمور غرابة في العالم، ثم إنه تنهد متحسرًا، ونهاني بشدة عن الخروج من مكاني في مخيم المؤن.

ولكن الفضول كان قد تملك مخي وملك عليّ كياني. الفضول نوع من الشياطين السفلية. فقررت المجازفة والتسلل بليل، فإذا بالجنود يهربون بعض الأشخاص، إلى داخل خيامهم، وعندما تعجبت لهذا اقتربت من خيمة (عبد اللـه) لأسأله، فوجدت أنه هو شخصيًا يشترك في ذلك الأمر، ويساعد ذاك الهندي الضئيل، على دخول خيمته بخفة وصمت، وعلى وجهه ابتسامة مشجعة، ثم يغلق الطريق أمامي، وجعلت أسأل نفسي: ترى لماذا يدخل هؤلاء الهنود معسكرنا؟!

انتظرت في مكمن خفي حتى هدأت الحركة، وهجع كل إلى خيمته، وتسللت في خفة القط، ثم تلصصت على أقرب خيمة لي، فلم ينقل الظلام إلا معلومات محدودة، وبعد دقائق عدت إلى مخيم

المؤن، ونمت وأنا أفكر في ما رأيت، وأتساءل عن مغزاه. وفي اليوم التالي وجهت سؤالاً مباشرًا لـ(عبد اللـه):

ـ لماذا حدث ذلك التسلل الليلي؟

ـ هل شعرت به؟

ـ بالطبع. والغريب أن هؤلاء النسوة الهنديات كن يرتدين ملابس رجال، حتى كشفت حقيقتهن!

ـ يا إلهي!

ـ لماذا تضحك؟ وماذا كن يفعلن؟ ولماذا جئن؟

ـ عندما نحصل على التسهيل اللازم، نذهب نحن إليهن في بيوت البغاء، ولكن عندما يكون هناك تشديد عسكري، يأتين هن إلينا، ويحصلن على أجورهن مقابل ما رأيت.

ـ وما فائدة ما تفعلون؟

ـ الحرب والغربة عسيرتان، بغيضتان، مُرّتان. ستعرف ما نفعل عندما يكبر سنك، وتهبك الطبيعة الغريزة.

كان الحوار عبثيًا، شعرت فيه بتهرب (عبد اللـه) بحجة أننا أقارب، وأنني ولد غير عادي، رأيت ما رأيت دون أن يفسد هذا خلقي القويم، ولا ينبغي أن أفكر في هذا الأمر الغامض قبل أوانه، وأنهى الحوار، بما يفيد الخطورة الشديدة للاكتئاب على نفسية المحاربين، وحتمية مقاومة هذا! ولكن الخازندار البدين وكان اسمه (يني) أفندي، أخبرني بشكل تعليمي أنيق، أن ما رأيته اسمه (الحب)، ويختلف عن حب الإنسان لوطنه، أو حب الأم لوليدها، أو حب الصديق لصديقه، وينشأ بين الرجال والنساء، وعلى أساسه يقترن الزوجان إن أمكن، ويحيا كلاهما حياة سعيدة للغاية، فسألته:

ـ يبدو هذا الحب شيئًا جميلاً وملحًا يا أفندي، حتى إن الجنودَ بحاجة إليه وهم في معمعة الحرب.

ـ هيه! إنه جميل جدًا. خصوصًا للشابات والشبان.

ـ وماذا عن الأولاد الأصغر سنًا يا أفندي؟

ـ يكون أكثر جمالاً وبراءة. والآن هيا إلى العمل. سننظم أجولة الفواكه الجديدة.

نهضت إلى العمل ببهجة، تغلبت على البؤس والضجر المعتادين، وأنا أتعجب من معرفتي للموت والغربة والكراهية، قبل الحب؛ رأيت الموت بسبب المرض والقتال، والغربة في (دنقلة) و(فيراكروز)، والكراهية بين مصريين وهنود، بين سودانيين ومكسيكيين، قبل ذلك الحب الذي لم أسمع عنه من قبل قط. وظللت سائر يومي أتفكر في هذا النوع من المحبات، وعن فرص لقائي بصبية قريبة في عمرها من صبي مثلي. وتساءلت: هل أكون عاشقًا ذات يوم في الفرن المكسيكاني؟!

إن الفتيات الهنديات الصغيرات، نحاسيات البشرة، اللاتي يدخلن معسكرنا، مأمورات بالاهتمام بالعمل فقط، والكبريات كن يملن للجنود الكبار مثلهن، ولكني ـ في النهاية ـ كنت على موعد مع قدري وحبي الأول والوحيد، برغم الحرب، الغربة، الكراهية.

كانت الأيام الرتيبة أحيانًا والمخيفة أحيانًا أخرى، تمر كأي أيام، دون أن يغيب الأمر عن ذهني، لا يقطع رتابتها إلا هطول الأمطار المفاجئ،

ثم توقفها بغتة، وكنت أنمو بما يتناسب مع العمل القاسي، فأصير في طول الرجال، رغم صغر سني البالغ، حتى إن (عبد اللـه) أقسم إنني سأصبح عملاقًا من العمالقة بعد عشر سنوات أخرى.
وشاء اللـه أن ينمو عقلي أسرع، فكنت أتشوق للمعلومات العامة وكل أنواع المعرفة، في بيئة فقيرة ثقافيًا وتعليميًا، فأعيد تلقين نفسي ما حفظنيه والدي الحبيب، الذي صرت أحيانًا ألومه على تخليه عني، في تلك الأصقاع النائية الممرضة، ولكني أطرد فكرة اللوم سريعًا لقسوة الظروف وحبي له؛ وكنت شديد الاهتمام بكل كلمة فرنسية جديدة أسمعها، حتى إنني تعلمت الفرنسية الخشنة الخاصة بالجيش والحرب، بسرعة مثيرة للإعجاب، جعلت القادة الفرنسيين يتنافسون للاستئثار بي في خدمتهم، وهو نوع أرقى من الخدمة على أية حال، يتضمن الاهتمام بالخدمة الداخلية من مأكل ومشرب وملبس، أكثر من خدمة السخرة الشاقة، نوع حال بيني وبين الملاريا المؤكدة التي نالت من عدد كبير من الجنود. وكان وضعي كخادم، وسط وضعنا العام كرقيق، مستجلب لحرب بالوكالة، غير مثير للحرج أو جارح لكرامتي، خاصة مع كوني مجرد طفل وقتئذ.
وحسنت خدمتي لهم من فرنسيتي وبنيتي على السواء، وكان هذا تأهيل وترتيب إلهي للقاء (لويزت).
* * *

سجناء الخوان

- «الحرية هي قدسي»

العالم الخرب - أوائل سنة 5006 ن

بعد أن قص كل منا على الآخر ما يعرفه، مع اختصار شابه بعض الاختزال في مناطق معينة من قبل الأسير (نوفيو)، وجم كلانا، وكان وجومي أشد وأقسى، ورغم أن تبادلَ المعارف والأسئلة والأجوبة، تم على مدار يومين كاملين، معظمهما للأسير وأقل القليل مني، بحكم ضياع ذاكرتي واقتصارها على الطفولة، فإنني أصريت ألا أترجم شيئًا لـ(لويزت)، إلا بعد الانتهاء من فهم الأمر برمته، حتى أستطيع أن أشرح لها كل ما سمعته، من مصائب وكوارث وغوامض، دون أسئلة متوقعة منها.
أما تلك الشابة الثانية، في الزنزانة الثالثة البعيدة، فقد كانت تمتلك من الوقت، ما مكنها من تعلم اللسان الأوريومي العام، الذي تعرفه معظم شعوب قارة (أوريوم) المسكونة، التي نحن في أقاصيها الغربية الآن؛ وكانت أميل للصمت بشكل طبيعي، وهي تتابع حالة شخص معها، غارق في غيبوبة، ما جعل صمت ثلاثتنا بدورنا رهيبًا، وثقيلاً.
الشابة الثانية، كانت لها قصة لا تصدق، سأذكرها فيما بعد حتمًا.
وقتذاك كنت في تشتت عقلي، أضيف له صدمة غير هينة، أشاعت هذا الصمت ذا الدوي.
صمت دام لساعة كاملة من الصدمة والرهبة والخوف بالنسبة لي، والحيرة والقنوط بالنسبة لرفيقتي، التي احترمت شرودي، قبل أن أشرح لها بالفرنسية، وبصوت خفيض ما فهمته، فتصاب بنفس الصدمة المزلزلة، ولعنة السكوت الأليم.
ثم إن أحدَ السجانين بالأعلى، وكان قد حان موعد وجبة الإفطار، قد أسقط الأرغفة وثمار الدراق، من فجوات قنوات المرقدار أو المطبخ، عبر السقف، وضوء الشموع وسط الظلام الكثيف، لا ينبئنا إذا كنا في نهار أم ليل. فكسر سقوط الإفطار الصمت الكئيب، وكنت قد نلت

كفايتي، فوضعت رغيف وثمرة (لويزت) بجوارها، وتناولت نصيبي في شرود. وعلى ضوء الشمعدان في الزنزانة الوسطى الخاصة بالحكيم، تناهى إلى سمعي دندنة الشابة الثانية، وهي تتحسس شعر الغائب. كان عقلي من التشوش بحيث ظننتها تغني بالعربية، بينما كانت تترنم بكلمات من لغة شرقية أخرى أعرفها جيدًا، ولم تجعلني الصدمة في حالة تركيز كي يميزها عقلي، أو ربما لم أهتم لهذا الخلط اللغوي.

لكن المهم في أي لغة، يظل دومًا هو المعنى.

الذي انساب لشغاف القلب.

رقيقًا، شفيفًا، شجيًا.

غنت بلحنٍ ينتمي لعالمنا، كأنها تهدهد طفلاً وديعًا:

«يا سيدي
يا سر ميلادي
وأبجديتي، وسفري، ومنتهاي
اليوم أتممتني
وتوجتك
أفقرني العالم
وأغنيتني بك
لا سلام إلا معك
ولا عوز لك بغيري
فليشهد اليوم: أن الكونَ معنا
لنتم ما كان مقدرًا علينا
من أبد إلى الأبد.»

كان حنانها باديًا، رقيقًا، أنساني للحظة الدنيا وما فيها. وبعد شرودٍ بدا كأنه قد امتد إلى ما لا نهاية، استجمعت بعض أفكاري اليائسات، وأنا أقول للأسير بغمغمة خافتة:

ـ إذن فلا أمل لنا في العودة إلى عالمنا، إلا عبر خوض كل هذه المهالك، إذ عليّ أن أنجح في هذا قبل الحالة الشبحية، التي تصيب من يأتي من عالمنا إلى هنا، هذا بافتراض السماح بالخروج من السجن الذي يفرضه القانون، دون تهديد، وهو ما سيعد سابقة لم تحدث من قبل. لقد أخبرتني خلال ذينك اليومين، بأسوأ الكوابيس مدعاة لليأس أيها المحترم.

تناول الأسير فورًا قضمة من الخبز، بسبب نظام الحمية القسري، الذي يجبرك على الشعور بالجوع، وقال بغصة واضحة:

ـ أنت أيضًا ذكرتني بأسوأ كابوس رأيته في حياتي، عندما علمت أنك سليل (المهدِّم) شخصيًا. ما من زائر هيروليغي واحد كان يملك هذه الحماية إلاك. القدرة التي اكتشفت في (هيروليغا) القديمة في (عصر الأخلاق). ليتك ما ذكرتني بكابوس الخراب العام، الذي تسبب فيه (المهدم) مع العاصفة التاريخية الأولى. لم ينقذني من الأهوال والمجاعات والمآسي، التي أعقبت الخراب مباشرة، وكانت على أشدها، إلا ما وهبتنيه الآلهة. قطرة من الينبوع الفضي. ولكن حتى الحكمة لم تنقذني من كوابيس فترة الخراب، خوف فترة العاصفة. لهذا ترسخت نبوءة العاصفة الثانية، التي اقترب زمنها المرعب، والتي ستسحق كل شيء.

قالت (لويزت) وهي تحاول الاستيعاب وجمع الخيوط، ببؤس باد:

ـ مختصر ما فهمته أن هذا العالم الآخر، شهد غاشية مروعة منذ مئة قرن، وأن الأدلة تشير إلى أن جدكَ، هو من أنزل تلك النازلة بهؤلاء القوم، لكنه استطاع العودة بآخر ابتكارات عصر الحكمة المفقودة، وقد سبقه آخر حكماء (هيروليغا) تلك، وأذاقوا البشرية الأمرّين، إذن فربما يكون هؤلاء هم من تسببوا في إرسالنا إلى هذه الجحيم. أليس كذلك يا (محفوظ النحّاس)؟

بدا التوتر على ملامح السيد (نوفيو)، عندما ميز اسمي في نهاية كلامها، رغم أنها نطقته (مافوز)، بفرنسيتها التي لا تستسهل حرف الحاء أو الظاء، وقال وهو يتلفت حوله، وقد احتقنت صلعته:

ـ حذار. لا ينبغي أن يتفوه أحدنا باسم جدك ثانية. بل حتى الهيروليغية، لا ينبغي أن تتفوه بها أمام أحد من السادة، لو اكتشفوا هويتك لن تخرج من هنا على الإطلاق، وربما تعرضت حياة السيدتين للخطر كذلك، لو قرروا مساومتك. العالم الخرب معرض للضياع في نهاية الأمر، والكل يبحث عن طرف خيط، للحاق بالأوائل في عالمكم، قديمًا وصلت رسائل منهم مع بعض الزوار، تدل على عيش رغد في عالم مستقر، أعقبتها رسائل منقوصة ونادرة ـ بسبب مقتل الزائرين في البرية ـ تشرح كيفية فتح ممر نجاة بين العالمين، مقسمة بدورها بين حكماء الممالك والأسوار، ولن يصدق أحد أنك تجهل الأمور المتطورة، لأنك هيروليغي.

شعرت بالخوف على حياة المرأتين، وتبادلت نظرة مريرة مع الصامتة. التي أشاحت بوجهها وأعادت الستار الممزق، بين زنزانتها وزنزانة الأسير، وهي تعود بجوى ويأس، إلى المغيّب، الراقد في الظلام.

كانت بوادر الشبحية تداهمها.

إنها حالة رهيبة تصيب الزوار، المنتقلين منذ زمن إلى العالم الخرب، تجعل ماديتهم أكثر شفافية مع مرور الوقت، حتى يتحول المرء إلى شبح باهت، حائر، حزين، لا يلبث أن يهيم خارج السجون والصرح كله، دون أن يتمكن مخلوق من احتجازه بعدئذ، ثم خارج (الخوان) كلها، إلى وادي (الحيرة) وكل الأشباح في الشرق، والذين يبقون هنالك إلى الأبد، في انتظار الدينونة أو الخراب الأخير.

لكن ماذا بيدي كي أفعله؟ لقد أخبرني (نوفيو) بكل شيء. حتى نوع الفريق الذي سوف أحتاجه لاجتياز المهالك والخطوب، التي تعترض الطريق إلى (الينبوع الفضي)، ويا ليته ما أخبرني. فالأمر الذي فكر فيه كثيرًا، بسبب ما وجده من وقت كاف، للتفكير في كل شيء ـ ربما أكثر من أي مخلوق في العالم ـ بلوغه محال بأي حال.

أمر من دونه شيب الغراب. لم يستطع إنسان أن يقوم به قط، من بعد (نوفيو) نفسه، وكل المحاولات المنظمة أو العشوائية التي جرت، من أجل الحكمة والخلود، انقطعت أخبارها فور اجتياز النطاق الجغرافي المميت، المحيط بمنطقة الينبوع.

الهضاب الخضراء الجميلة، كانت تعج بالمفترسات المتطورة، من قبل حتى العاصفة، ولكن مع الخراب ضربتها زلازل مدمرة، أدت لانكماش وهادها وأخاديدها، والتحامها تقريبًا في هضبة واحدة، صارت تكتظ وقتئذ بأخطر وأكثر انهيارات صخرية، يمكن أن تحدث في مكان واحد، وكان هروب (نوفيو) مع بعض الفارين وهو بعد عبد، محض قرار بالانتحار، إذ يمم وجهه شطر

الهضبة الجديدة، المتكونة قريبًا جدًا، وقد ساعدت مداهمة العاصفة الأولى للجميع، على إفساح الطريق بشكل ما من الوحوش.

وفي مغامرة عجيبة، وكما لو أنه حكم إلهي لا رجعة فيه، وصل ـ سالمًا ـ بين الانهيارات الشاملة، إلى ينبوع نادر لم يكتشف من قبل، له خواص عجيبة.

كان ينبوع الحكمة الخالصة نفسها.

تقول الأسطورة إن آخرَ لمحة من لمحات عظمة الهيروليغيين، وكانت إذابة نوع من المركبات التجريبية الخارقة، في مياه الينبوع، هي ما تسببت في تحويل نوعية المياه، إلى ما يشبه الإكسير.

لكن طائر الرخ العظيم، الذي يحيا في هذه المنطقة من العالم، باغت (نوفيو) فوق الينبوع، وتسبب الهجوم الرهيب للمخلوق العملاق، في عدم تمكنه من تناول شربة واحدة، فقط وسط رعبه بلل يديه، وفقط استطاع وهو يفر بحياته لعق قطرة واحدة، نجحت في التشبث. ومن مجرد هذه القطرة اكتسب معارف جمة، وعلومًا متعددة، وذكاءً متوقدًا، وحكمة كبيرة، بل وحتى عمرًا مديدًا، وشبابًا شبه دائم.

هكذا تنبه الملوك المعاصرين لهذا العبد، الذي صار حكيمًا فجأة، وأصبح وسط الشعوب الناجية، مثالاً حيًا على وجود هذا الينبوع الأسطوري، وقامت أول حوادث الطمع في الينبوع، عندما قُتل أهل قريتين بالسيف عن آخرهم، في سباقهم للينبوع، الذي أكد وجوده (نوفيو) الحكيم بالدليل، وكانتا أقرب قريتين من الهضبة، جنوب (الجبال الجافة)؛ تسابق منهما نفران نحو الينبوع فاقتتلا، حتى قتل أحدهما الآخر، فقتل أهل القتيل القاتل، فلما سمع أهل القريتين بقتل الرجلين لبسوا عدة حربهم، وما زالوا يقتتلون، حتى فنوا تحت السيف عن آخرهم، وسمي الوادي الجاف الذي احتوى حربهم شرق الهضبة بـ (الوادي الدموي)، فخشى بذلك الملوك الكبار، من حرب دموية وشيكة بين الممالك العظمى، للاستئثار بالينبوع، حرب ستقضي من دون شك على ما تبقى من مجتمعات البشر، ما يسمح بتغول الضواري والعمالقة، وربما البرابرة دون رادع، حرب استعادة سيطرة مرعبة لا مفر منها إلا بالسياسة، لذا، وبعد اجتماع تاريخي في حصن (المائدة المرتفعة) شرق (الخوان)، اتفقوا على أن يحفروا خندقًا هائلاً، أحاط بالهضبة التي صارت محظورة بالكامل، إحاطة السوار بالمعصم، وفصل بينها وبين الأدغال التي كانت تحف سفوحها، مكونة مانعًا وحشيًا آخرًا. وقد دام حفره لقرن كامل، وأطلق عليه اسم (الحذر)، لمنع الجميع من الينبوع السحري، كحل عادل وحيد من طراز (السيئة تعم)، ما زاد من استحالة الوصول لهذا الينبوع الآن، وهو سبب نعت الناس النطاق المحيط بالهضبة، من خندق واسع منيع وأدغال وحشية، وأيضًا صحاري مقفرة، بـ(نطاق المنايا).

فهذا الذي يبدو لك مجرد رجل في بدايات الأربعينات من سنه، عمره وخبراته الحقيقية مدتها ألف عام.

لا أسعى للخلود أو إطالة العمر مثله، فهذا كرب مقيم لا ريب، ولكن الشرب من (الينبوع الفضي) هو الطريقة الوحيدة، التي ستؤهلني لإتمام رسائل الأوائل، والتي استجاب بعض الملوك، لإرسال نسخ منها إلى (نوفيو)، منذ سنوات طوال جدًا، وبعد مراسلات وعهود، وقسم بكل الآلهة المعروفة؛ ورغم استحالة فهم شيء منها، لاحتياجها إلى أساليب متقدمة علميًا، فإنه صنع عبر دراستها بدقة، مخططًا هندسيًا عبقريًا، يمكن بواسطته فتح ممر النجاة، ولكن ما حصل عليه من

حكمة وخبرات، ورسائل من عالم آخر، لم يكفِ لإكمال المخطط، وكان بحاجة لشربة ماء أخرى على الأقل من الينبوع، لوضع المعادلة العلمية الأخيرة.

وهذا هو الأمل الأخير، والدافع لعودتي أنا، والسيدتين، والنائم، قبل إصابتنا بالشبحية.

لكن الوقت يداهمنا بعنف.

قالت (لويزت) بحيرة للأسير المحترم مباشرة:

ـ ولكن كيف تحيا كل هذا الوقت؟ ألم تفكر في الانتحار؟ ولماذا يلقبونك بـ(الأسير المحترم)، بينما يتركونك هنا حتى تتعفن؟ وكيف تتحدث العربية؟

كانت وساوسها بخصوص الخلود غنية، على العكس من اعتقادي أنا الحالم. أجابها بابتسامة مستوعبة مستنيرة، عقب ترجمتي:

ـ صدقيني يا سيدتي، السجن سيكون أكثر الأماكن أمنًا، حينما تأتي العاصفة ويهبط المسوخ، فالمثل الهيروليغي القديم يقول «لو نبتت للأرنب لبدة، فهل يصير أسدًا؟!». فأنا أعترف بخوفي من يوم تفتت (خارميل)، وهبوط المسوخ التي لا تشبع، ولا يعني طول عمري جسارتي.

وأنا بالفعل لم أفكر بالانتحار ولو مرة، ربما لأن حكمة مشاهدة ظهور ملوك واندثار بلاد منعتني، وربما لأنني أعمل بجد وبصدق حقيقي على مخطط (ممر النجاة)، لو كنتِ مكاني ورأيتِ العالم يعقد الآمال عليكِ، ويصنع منكِ مخلصة ومحررة منتظرة؛ لصبرتِ بصبرهم، كما أن الحياةَ خارج هذا السجن ستعرض حياتي لخطر أكيد، وهناك ملوك على استعداد لتمزيق عقلي إربًا، لإخراج ما فيه من حكمة، أو لحثي على خدمتهم هم فقط، وليس المسكونة كلها. ثمة أزمة غذاء وكوارث مناخية، ومشكلات اقتصادية بلا عدد في المسكونة، هنا مثلا أنا من أشرت على أباطرة (الخوان) المتعاقبين، بحتمية تشغيل (الأعجوبة) لتنمية الثروة المعدنية، والتحضير لـ(غزوات التوابل) لجلب العبيد المسلسلين، لإنقاذ الاقتصاد وتفادي شبح المجاعة.

أما الهيروليغية الأصلية، فلا أعرف لماذا تطلقون عليها عندكم العربية الفصحى، ولا أعرف لماذا هي اللغة الوحيدة من لغات الزوار، المتشابهة مع حضارة عالمنا القديم العظمى، ربما لهذا سر ما ستخبرنا الأيام به. إنها لغة الحكمة المندثرة منذ (عصر الأخلاق)، العصر الذي سبق الخراب العام، ولم يتبق منها إلا طلاسم في بطون الكتب، فك الحكماء بعضها، وتبقى معظمها، ويعد السيد (محفوظ) هو الوحيد الآن، الذي يتحدث الهيروليغية أو العربية بطلاقة، وهذا في حد ذاته كنز، أو معجزة في عالمنا، يتطلب الإفادة منها سجنها، لترجمة الكتب الهيروليغية الثمينة إلى الأبد.

ـ أنا لم أخلق للسجن. الحرية هي قدسي.

ـ أراك تتحدث عن الهروب. لم يهرب مخلوق من سجون الصرح منذ مئة عام، وكان الوحيد الذي تجرأ وخطط للهرب، أحد مجرمي أسوار (الأيمة)، والذين يلقبون بالثيرانيين، وذلك عبر واحدة من فجوات المرقدار المرتفعة هذه، ولكن كشف أمره على يد جنود الجيش النحاسي، المنتشرون في الصرح، وتم تقديمه كوجبة لنمر الإمبراطور السابق (جاليث بن هاور).

كان الأمل في الخروج الجماعي يزداد صعوبة واستحالة، ودونه خرط القتاد. مجرد الخروج. فما البال بجمع فريق الرحلة. ذلك الفريق الذي أكد (نوفيو) أنني لن أصل الينبوع بدونه؟!

فريق من أجناس وأنواع غريبة، ولكل فرد فيه صفة مخصوصة وقدرة عجيبة، ستمكنني من تجاوز عوائق مخيفة بعينها.

وكان عليّ التفكير في أية ذريعة، للوصول إلى الينبوع الفضي، لإعادة فتح ذلك المجاز بين العالمين.

* * *

تكرر ذاك الارتجاج الخفيف في الصرح كله، وامتد لثانية واحدة قبل أن يتوقف، ودون أن يبدو على الأسير المحترم استجابة ما، عكسي أنا و(لويزت) التي سألت بتوتر:

ـ لماذا يرتج المكان؟

أجابها السيد (نوفيو) بعد ترجمتي لفرنسيتها كالعادة:

ـ الأراضي النحاسية كلها، وأجزاء من الجنوب الغربي عند خلجان (العذراء)، تتعرض للهزات الأرضية المستمرة منذ الخراب العام. وكل منطقة في (أوريوم) فسدت فيها الطبيعة، بشكل مختلف متناقض.

كلما ذكر نبأ الخراب العام كنت أتعجب غاية العجب: أي سلاح هذا القادر على تدمير عالم كامل بهذا الشكل؟! وهل يمكن للناس في عالمي، أن يبتكروا يومًا سلاحًا جبارًا ما، قادرًا على سحق قرية كاملة، أو حتى مدينة عن بكرة أبيها؟!

لا ريب أنها ستكون من علامات الساعة العظمى.

سمعت للمرة الأولى صوت خطوات ثقيلة وسلاسل تزحف، ثم أبواب ضخمة تتحرك وتنفتح، بصرير كالنعيق، فنهضت في ترقب مستعد، وارتديت الطربوش مكملاً هيئتي، قبل أن يظهر من اليسار عند منعطف الجدار الحجري ثلاثة أشباح، يتقدمهم حامل مشعل مفتول، بدا من خوذته التي تخفي نصف وجهه، وزيه الأرجواني القصير، أنه من السجانين، وراءه كان يدلف بروية رجل طاعن في السن، له لحية عملاقة ناصعة البياض، وصلت حتى ركبتيه من فرط ضخامتها، وخلفه كان يخطر حارسين آخرين، بنفس الحرملة والخوذة النحاسية. وعندما سقط بصر الأسير المحترم على الطاعن، قال بلهجته الودود الرقيقة، ما لم أفهمه وقتذاك مباشرة باللسان الأوريومي:

ـ كبير الحكماء المعلم (أسبيراتز). يا له من شرف حقيقي.

توقف الشيخ أمام زنزانته دون أن يرفع بصره عني، ولم يفتني تأمله الوفير ـ ومعه الحراس الثلاثة ـ كذلك لطربوشي الأحمر بالتحديد، ثم إنه ألقى نظرة سريعة على الزنزانة الثالثة، حيث السيدة الثانية والنائم، قبل أن ينظر له باحترام متبادلاً معه الحوار الآتي، والذي ترجمه لي السيد (نوفيو) فيما بعد:

ـ الشرف لي أيها الحكيم (نوفيو). أرى أن زائرينا قد استعادا رشدهما.

أشار لنا (نوفيو)، وكذب بثقة:

ـ لقد فعلا للتو وعلمت أنهما ليسا هيروليغيان، تماما كرفيقة الغائب عن وعيه، والذي لم يصحُ بعد كما لاحظت.

تأملني (أسبيراتز) في شك غريب، وتذكرت نصيحة (نوفيو)، الخاصة بضرورة الحفاظ على سر عربيتي، التي صارت مهمة فجأة في هذا العالم الغامض، وإلا تعرضت رفيقتي (لويزت) على الأقل للخطر، فبادرت صائحًا بالفرنسية:

ـ أخرجونا من هنا. لا تملكون الحق في احتجازنا.

وأيدتني (لويزت) بفرنسيتها الطبيعية، وقد فهمت التمويه الذي أمارسه:

ـ أنا سيدة شريفة، وسجنكم لنا خطأ عظيم.

لا أعرف كيف سنخرج بعد هذا لو صدقوا، وتبادر إلى ذهني خاطر سخيف مربك وغير مناسب، عن عدم اللياقة الدينية والحضارية، في وضع رجل وامرأة في محبس واحد! ولكني طردته عن عقلي الشاب، الذي لم يتخلص من سذاجة الصبا تمامًا بعد، مفكرًا في أن السيد (نوفيو)، حكيم جدير بالثقة، وطالما نصحني بإخفاء هويتي مؤقتًا، وأعد لي نصائح تفصيلية للوصول لينبوع الحكمة، فهو يعرف ما أجهله، أو على الأقل يشعر أنني سأخرج من هنا بطريقة ما.

لا أملك إلا الثقة فيه بعد اللـه عز وجل، على الأقل فإن الصامتة، لم تُبدِ اعتراضًا على رواية (نوفيو) الخرافية، وهي الأسبق مني هنا لوقت طويل مضى.

لكن كبير الحكماء في (الخوان)، فاجأ الحكيم (نوفيو) بالعربية المتكسرة، التي يسمونها هيروليغية، محمولة على نبرات صوته الواهن الطاعن، عندما قال بحسم:

ـ أنت كاذب أيها الأسير المحترم.

قالها وهو ينظر تجاهي بحدة محاولاً كشفي بدهاء، ولكني تماسكت بطريقة هائلة، متظاهرًا بعدم الفهم، ودون أن تختلج ملامحي، أو تفضحني أساريري، بينما الأسير ذو الألف عام يسأله بهدوء، رغم دوي قلبي المرتفع:

ـ وكيف هذا يا كبير الحكماء؟

قالها بعربية شبيهة أكثر تماسكًا، لكنها تظل عسيرة، دون الفصاحة، كأنه ينطقها هكذا (كيفهذكبيرحكما)، والشيخ يلتفت نحوه بملابسه الفضفاضة الخضراء:

ـ أحد الجن البحري استطاع التسلل. كما تخبرني ذاكرتي الواهنة على هيئة صرصور، وقد عرف أن الزائرين قد استيقظا منذ يومين.

اقترب منه (نوفيو) وحدق في عينيه مباشرة، قائلاً بنفس الدعة، والهدوء الواثق:

ـ وهل تعتقد أن رجلاً خالدًا مثلي، سيفشل في تعرف الجن، حتى يكذب على كبير الحكماء بهذه البساطة؟

نجحت مناورته في تراجع شك المعلم (أسبيراتز) قليلاً، وهو يجيبه ببعض الارتباك، مخللاً لحيته بأصابعه:

ـ لا. ولكن كيف يتعارض ما بلغني مع ما قلت؟

ـ لقد استيقظا منذ يومين بالفعل، ولكنهما لم يستعيدا رشدهما وذاكرتهما إلا منذ دقائق. هناك فارق بين الرشد والوعي. وأنت سألت عن الرشد.

شاعت ابتسامة ضاحكة في ملامحه الطفولية الطابع، رغم هرمه، وهو يشيح بكفه قائلاً بارتياح، بالأوريومية:

ـ عرفت أنك لم تكذب أيها الأسير المحترم، يا لدقة وبلاغة المخلدين. كلما تعاملنا معك على أنك رجل عادي، رددتنا على أعقابنا متفاجئين كل مرة، بمدى ألمعية وعبقرية حكيم مديد العمر مثلك. اغفر لي تسرعي وزلتي. وإليك هذه الدفعة الجديدة من الكتب، لا ريب أنني تأخرت أيامًا عدة في تزويد ذاكرتك الجبارة، بالمزيد من المعارف، إن أحدها كتاب هيروليغي نادر، أظنه جغرافي. أنت أكثر أهل المسكونة معرفة بالهيروليغية القديمة على أي حال.

التقط منه الكتب بلهفة حقيقية، ممنيًا نفسه بالمزيد من المعرفة على المعرفة، ثم تساءل وقد عاد الحوار للسان الأوريومي المجهول وقتها:

ـ ولكن لماذا لم تنتظر تقريري، ككل مرة يأتي فيها زوار جدد من عالم المهدم، واضطررت للهبوط إلى السجون بنفسك؟ هل بسبب إخبارية ذلك الجني الجاسوس فقط؟

ـ لا. هناك الكتب، وكذلك إعلامك بزيارة قريبة من المغوار الثاني للقاء الزائرين. لقد تسبب جاسوسه في إحراجي أمام الإمبراطور، والفيكونت نفسه يضمر شرًا تجاه ذلك الجني؛ لذا فعليك مساعدتي في إنجاح الزيارة دون مزيد من المشكلات، وبينما ننتظر إنهاء هؤلاء المغاوير لصفقاتهم، وزياراتهم لبيوت البغاء، في نهاية إقامتهم في العاصمة، استخدم عبقريتك كي تعلم أحد ذينك الزوجين اللسان الأوريومي العام، أريد تفاهمًا سريعًا مع المغوار الثاني، لا استجواب طويلاً بلا طائل.

ـ لك هذا يا كبير الحكماء.

تأملني (أسبيراتز) مجددًا، ثم تأمل (لويزت) قبل أن ينصرف، فأسرعت أكرر متظاهرًا بالجزع لرحيله:

ـ أخرجوني من هنا. أخرجونا أيها الطغاة الظالمون.

وأطلقت (لويزت) سبة فرنسية راقية، تتمحور حول قلة النبالة! حتى تلاشت دقات أحذيتهم صاعدين، بعد أن عادوا أدراجهم صوب منعطف الممر الحجري، وعادت الجنازير والأبواب الثقيلة للانغلاق الأزلي المتانة، فقال (نوفيو)، ليوقف هتافي المزعج:

ـ كفى. لقد صدقونا.

بدا أنه لم يحتمل صياحنا، الذي اخترق صمتًا طويلاً، وهدوءًا مديدًا، ولكنه لم يبدِ هذا أدبًا منه، وطفق يشرح ترجمة حواره. ثم كان أن سألته بهدوءٍ وود:

ـ ولكن هل رأيت حقًا جنيًا يتجسس علينا؟

ـ كلا بالطبع. لا يمكن كشف الجن البحري في حال تنكرهم، لهذا لا يستغني عنهم ملوك المسكونة، كجواسيس من طراز محترف. ولكن كان عليّ أن أبتكر حيلة، وهذا سهل في أي مواجهة بين عقلي وعقولهم، تهريبك هو المتوعر. ولكن عقلي القوي لن يلبث أن يجد وسيلة لهذا، لقد أقنعت نفسي أن خبرتي مؤهلةٌ لاكتشاف طريقة إخراجك، مهما بلغت درجة الاستحالة. ولا بد أن أمنح نفسي بعض الوقت فقط.

وحتى يصفو ذهنه، قام بإشعال بضعة شموع بالقرب مني، جلس وسطها، ودعاني للجلوس قبالته مباشرة، إلى درجة تلاصق ركبنا، ثم أغمض عينيه وهو يصعد رأسه لأعلى، ومد يديه عبر القضبان، داعيًا إياي للإمساك بكفيه. لم أفهم كيف سيجلي هذا عقله، ولكني امتثلت، وأنا أحدق في الشموع، وبعد لحظات سمعت الصوت:

ـ «الآن أراك وتسمعني يا (محفوظ)».

كان الصوت عجيبًا، وكأنه يصلني من لا مكان، ودون أن يمر عبر صواني أذني، فرفعت بصري بحدة نحو شفتيه في منتصف جملته، ولكنه لم يكن يحركهما، فنهضت كالملدوغ، أمام دهشة (لويزت). بينما هو على هيئته وجلسته الساكنة، وعاد الصوت القادم من المجهول يتردد حولي:

ـ «كان لا بد أن أرى ذكرياتك الغائبة عنك يا بني».

وضعت سبابتي في تجويف أذني، ورججتها بقوة وشدة، وأنا أقول في ذعر:

ـ ولكنه صوت (نوفيو). كيف هذا؟

قالت (لويزت) في خوف وهي ترمق جلسته الغريبة، وذراعيه الممدودتين في الفراغ، ورأسه المرفوع إلى أعلى:

ـ أهو مشعوذ؟ ماذا يحدث يا (مافوز)؟

أزاحت هنا الصامتة الستار الممزق، الذي يفصل زنزانتها بزنزانة الأسير، ورمقت جسده أرضًا يوليها ظهر عباءته الجلد السوداء، ويمد ذراعيه تجاهي، بذات نظرتها اليائسة الأبدية، ثم فتحت فمها نادر الكلمات، وقالت:

ـ عد إليه.

رمقتها في توتر، وهي تقول بتلك اللغة من عالمي:

ـ حديث العقل بلا لسان.

زويت ما بين حاجبيّ محاولاً فهم كنه الأمر، وتطلعت إلى جلسة الرجل، وذراعيه، ورأسه المرفوع بشدة لأعلى، والذي بدا مرعبًا على ضوء الشموع، ثم التقى بصري بعينيها، فأومأت مطمئنة، وأجبرت نفسي على العودة قبالته، ثم أعدت الإمساك بيديه. والصوت العقلي الغريب يغمغم:

ـ «هكذا كنت أعاونها. وهكذا الآن أعاونك. هي موهبة حصلت عليها من أخوية الساحرات، اللاتي يستخدمن سحر الأشجار، في الفترة التي كنت أحضر فيها اجتماعات مدرسة الحكماء، قبل حظر سفري. ومثلها، سأهبك وألقنك اللسان الأوريومي مباشرة».

وبينما يغرس في عقلي طبيعة وخصائص تلك اللغة الجديدة، كانت نظراتي تتواصل مع الحبيبة (لويزت) تنهل منها اليقين، وتتواصل مع اليائسة تشاركها المصير.

اليائسة التي خاطبتني بالتركية، والتي انتقلت يومًا قسرًا من قلب حرب (القرم) إلى عالم آخر، ودنيا غير الدنيا.

(ملك جهان).

* * *

قصة عساكر وشيخون

لم يكن (محفوظ) ولدي هو الوحيد، الذي يسري عني، ويشجعني حتى أسترد نشاطي وطبيعتي الغابرة، بل كانت (فرحانة) و(محمد)، وأبواهما (راضي) و(ستهم)، وبالطبع (مختار القناوي)، وبعض من جيران الحارة؛ يشكلون أسرتي الوحيدة، وعائلتي الرحيمة.

ذات يوم قرر المعلم (عزيز) الاطمئنان على حالي، فكلف نفسه، وابتاع فاكهة الموسم، ثم من باب التلطف والتعزية، ذكر لي قصة (عساكر) وزوجها (شيخون).

كان الخبر من الزمن البعيد، حينما كان جده (رزّاع أبو نبّوت) آخر فتوات حارتنا. وضع (رزاع) العملاق قوانينه بما يرضي الجميع، ويكفل لهم الحماية في نفس الوقت، وذلك زمن لصوص المماليك، ما قبل خفراء الدرك وشيخ الحارة، الذين ظهروا الآن معلنين ميلاد سطوة ونظام الحكومة؛ ولكن في أواخر أيامه، انتابه الخبال من أثر تعاطيه المنزول، فأعلن رسم خروج ودخول من وإلى الحارة، فاضطربت مصالح الناس، واشتكى السقاء والصرماتي انقطاع الرزق، وقررا في غمرة يأسهما مقاومة (رزاع)، فتعرضا لطغيانه على هيئة كدمات كبيرة من نبوته، ثم لم يجدا إلا استعداء (شيخون) المكاري.

وكانت (عساكر) الدلالة، وزوجها (شيخون) سائق الكارو، أكثر زوجين بدانةً وكسلاً يمكنك أن تراهما في حياتك، وقد أنجبا أحد عشر ابنًا من أهل اللصوصية والرذيلة، يمدونهما بالمال يومًا، ويطالبونهما بالطعام أيامًا، حسب قدراتهم في جمع المسروقات، وهم من الأصغر للأكبر: (أيمن)، (محمدين)، (حسنين)، (جلجل)، (صديق)، (علام)، (مصيلحي)، (قدورة)، (مندور)، (جاد)، (عليوة). وكانوا مصدر أرق وعذاب دائم للأبوين الفقيرين، فقررا إرسالهم لمناصرة السقاء والصرماتي ضد الفتوة، فإذا أصبح عليهم الصبح بين مصاب وقتيل، خفتت حدة الصراعات والمطالب اليومية، وانتقص عدد الأفواه الجائعة والألسنة الحداد، أما إذا انتصروا على (رزاع)، فسيكونون محل الفتوة الجديد، وبالتالي يكون لهم مصدر دخل معتبر، قائم على إتاوات أهل الحارة أجمعين، سيسمح بالمزيد من الكسل، والبسارة اللذيذة.

وكان الأبناءُ بين جاهل بمصيره، راضٍ بدفع الرسم الجديد، وبين رافض لمواجهة نبوت (رزاع)، الذي ورث (الفتوَنة) أبًا عن جد، مفضلا أن يوفر صحته لنشاط السرقة اليومي، فصرة مال واحدة منفوخة، قد تمنحه راحة لمدة ثلاثة أيام كاملة من الصراع والخطف. ولكنهم في نهاية الأمر لم يملكوا إلا الإذعان لـ(عساكر) و(شيخون)، اللذين يوفران لهم المأوى، في حوش قذر ضخم وسط المقابر القريبة؛ وفي المواجهة المحتومة، قتل (رزاع) أكثر من نصفهم، وأصاب الباقين بجروح وإصابات متنوعة في معركة دموية هائلة، باستثناء (مندور) الناجي الوحيد، والذي قام بأغرب إجراء بمجرد الفكاك من وجه نبوت (رزاع)، إذ عمد إلى مباغتة السقاء والصرماتي، وصورة دماء إخوته تومض في عقله، وأضاف لكدماتهما القديمة عدة أورام جديدة، منتقمًا من طلبهما المساعدة من أبويه.

ثم إنه واصل جنونه، وتقدم إلى الحوش، ليوسع أباه وأمه ضربًا بالمركوب، وجعلهما عبرة للسابلة، بعد أن ضحيا بأرواح فلذات أكبادهم، بهذا الرخص واللامبالاة. ثم اختفى من الحارة بدون أن يعثر له على وجهة، مع من تبقى من الأبناء. وعاشت (عساكر) و(شيخون) محتقرين من الناس، لا يستخدمونهما في عمل أو خدمة؛ وأدى فقرهما إلى أن شوهدا وهما يتقاتلان ببطء وضعف، بسبب سمنتهما المرضية، على أكل برسيم بغل الكارو، الذي كان يلفظ أنفاسه جوعًا بدوره. ونسي أهل الحارة كل شيء عن القصة المأساوية، خاصة بعد التلاشي التدريجي لزمن الفتوات، بينما بقي ظلها تتناقله عائلة المعلم (عزيز رزاع) كنادرة من النوادر.

* * *

لويزت

- «لعله طائر يبحث عن حبيبته»

يوليو 1866

في ممر الأيام، علمت من أخبار (مصر)، أن (إسماعيلًا) واصل توزيع أوراق اللعب بجنود الوطن، واستجاب لطلب السلطان (عبد العزيز)، مرسلاً تجريدة عسكرية لحفظ الأمن بجزيرة (كريت) في البحر المتوسط، وذلك منذ أقل من شهرين، تحت قيادة (علي غالب باشا). أخبرني (عبد اللـه) ألا أرفض الأمر، فوجود القوات هنالك ورقة ضغط إسماعيلية، حتى يحصل باشا (مصر) على لقب (خديو)، ومع اللقب زيادة في استقلال وادي النيل عن التحكم العثمانلي، ولكني لم أقنع إلا بضرورة عدم الزج بفتيان الوطن، من أجل الألقاب والنزاعات الأوروباوية التي لا تنتهي. يكفي ما جرى لأبي في حرب (القرم). ثم تساءلت: متى تنتهي مباراة الشطرنج هذه، بين الباشوات والملوك والسلاطين والأباطرة؟ ومتى أتفرغ لصباي، بعيدًا عن الحروب والجنود والقتالات؟

ظلت ليلة الحب إياها ماثلة في ذهني؛ ولقد حاولت التعرف على إحدى الهنديات وكان اسمها (ماريا)، إذ خدعتها قامتي الكبيرة بالنسبة لعمري الصغير، وطمأنتها من جانبي حتى إنها في إحدى جولاتي معها خارج المعسكر وبالقرب من قريتها، مرت بنا بالقرب من أحراش تعرفها جيدًا، في محاولة منها لاستمالتي وسط مكان ظليل آمن، وكنت غير معجب بها على وجه الخصوص، بل بتجربة التنزه مع فتاة فحسب، وما أفسد الأمر مشاهدتي المباغتة لهرم ضخم، فريد، يتجاوز ارتفاعه خمسين مترًا بلا مبالغة، استلب لبي تمامًا بهندسته وأضلاعه وقمته المربعة، وحتى النباتات الخضراء التي تغطيه وتزينه، لدرجة أن (ماريا) غضبت وتركتني وحدي مشدوهًا أمام الأثر الحجري السحيق القدم، بينما جعلت أتساءل: كيف يوجد هرم فرعوني هنا، بينما المعارف التي حفظنيها أبي، لا أستخلص منها سوى أن الأهرامَ موجودة فقط في صحراء (الجيزة)؟! بينما تناسى عقلي الفتاة المسكينة تمامًا، كما لو أنها أنثى (أبو قردان) مر بها فلاح متعجل!

أما على مستوى حربنا هنا، ففي السنوات الثلاث الفارطات، خضنا عشرات المعارك، وسقط من الأورطة فقط أكثر من مئة نفس، بين قتيل بنيران الثوار أو نيران الحمى الصفراء، وقد أريقت دماء أبناء وادي (النيل) في أراض نائيات، غير مأسوف عليهم حتى في كتب الدرس والتاريخ، وتسبب استمرار أوار الثورات، في التفكير في قرار انسحاب الجيش الفرنسي، ومعه بالطبع الأورطة المصرية. وكنا نعمل بلا كلل في أعمال الحرب وحراسة السكك الحديد، ونؤمن خطوط الاتصال بيين الميناء والوحدات المتقدمة داخل البلاد، حتى إن المارشال إضافة إلى البكباشي (محمد ألماس أفندي) وبقية القادة الفرنسيين، قد رفعوا تقارير بإنجازاتنا إلى الخديوي، الملقب في (أوروبة) بـ(إسماعيل الرائع)، وأدركنا أننا أصبحنا حديث الساعة وقتئذ في أرجاء (المكسيك) و(فرانسا) و(مصر) كافة، وأطلق الفرنسيون علينا لقب (الأسود المصريون)، أو (الأسوُد السود).

وذات يوم مسعر الحرارة في شهر (يوليو) هذا، وبينما (فيراكروز) خالية من العساكر الفرنساوية، التي كانت تخوض معركة كبرى، بقيادة القائد العام للجيش الفرنسي (مارشال بازين Marshal Bazaine)، كنت أسقي (عبد اللـه) الذي تم الاشتباه في مرضه، فوضع في حجر صحي،

انتظارًا لأمر الطبيب بنقله من عدمه للمشفى، وكنت شبه مشهور بكوني لا أمرض، كأنما يخشاني المرض ويخشى جسدي، وفي إشفاق قلت له:

ـ ستموت يا رجل، وسنقضي نحبنا أجمعين هنا وسط هذا العبث.

ـ لقد صار لسانك كأنه لسان رجل في الأربعين أيها الغلام، أنت تنمو بسرعة مذهلة.

ـ لا علاقة لهذا بالنمو العقلي. الأمر جلي كشمس يوليو الحامية هذه. نحن ندفع ثمن بطولتنا، من أجل صداقات الأباطرة والملوك، وعلاقاتهم الشخصية.

ـ أنت تريد كلام الكبار إذن. يا (محفوظ)، سأخبرك قصة عن البطولة: لقد كنت أعرج في صباي، ورغم شعوري بأنه عرَض مؤقت وأن عضلاتي لا تفتأ تنمو، فإن الطبيبَ نصح أهلي بأن يبحثوا لي عن عكاز أتوكأ عليه تحت إبطي. رفضت بإصرار، وسخر مني ابن عمي (تاج)، لأنني كنت أصر على العدو والسباق معه، وقال إنه سيدخل الجيش لأنه سيكون بطلاً. فأخبرته أنني سأدخل الجيش معه لأنني بطل بالفعل، وشيئًا فشيئًا كنت أتحامل على ساقي المصابة، وأواظب على تمارين العدو، حتى دخلت الجيش وقد تلاشى عرجي تمامًا، إلا من أثر بسيط جدًا، لا يظهر إلا في تأثير برد الشتاء على المفاصل، أما (تاج) فسقط من على جمل عمي، وأصيب بالعمى فنبذه الجيش. هذه هي البطولة الحقيقية. أن تتحدى الكون كله من أجل ما تؤمن به ما دام شيئًا مشروعًا، وتشعر في صميم قلبك أنك أهل له.

لم يكن راقدًا، ولكن شحوبه كان لافتًا. وجعلت بعد كلماته أفكر سائلاً اللـه الهادي، لماذا جعلتني جنديًا ولست من أصحاب الحرف المسالمة في (قناطر السباع)؟ بنائًا يبجله عشاق القهوة والبن المحوج، طرابيشيًا يقصده الأفندية، كواءً يفرد المتهدل من الملبوس، خياطًا بلديًا. أم لعله عامل بدكان رهونات. بل طرشجي! ولكني ساءلت نفسي هذه المرة: وهل يا نفس ترضين بعدها، أم تطمحين لما هو أعلى. وترومين الانضمام لسلك المحامين، بل المهندسين، بل تجار القطن، بل ملاك الوكالات، بل القضاة، بل الصناعيين، بل أصحاب المصارف الأثرياء، بل القباطنة المغامرين! كان عقلي ثائرًا يعثر في طفولته بين أفكار كبار.

علمنا فجأة في اليوم التالي، أن إمبراطورةَ (المكسيك) ستمر بنا في طريقها إلى (أوروبة)، وكان علينا استقبالها استقبالا لائقًا، فارتديت ضمن خمسين جنديًا سودانيًا مصريًا موجودين بالمعسكر زيّ التشريفات، وأطلق رجال المدفعية عشرات الطلقات، التي دوت بصوت يبهج الذكور ويخيف الفتيات عادة، ولا أعرف سر تلك العلة الأكيدة في تاريخ المدافع وصناعة البارود، وتوقعت بينما نصطف في صفين غاية الدقة والنظام، أن أرى سيدة مكسيكانية متغطرسة، ثم هيأت نفسي للجلوس قرب الميناء، بعد أن نقوم باستعراض حرس الشرف، مخططًا لمشاهدة سفينتها وهي ترحل، ممنيًا روحي بقرب نهاية الغربة، وعودتنا ذات يوم ما حالم بسفينة مماثلة، قبل أن تغيبنا المنايا.

ولكن كانت تنتظرني مفاجأتان. الأولى أن الإمبراطورةَ لم تكن مكسيكية برونزية البشرة، بل كانت بلجيكية الأصل بيضاء، تدعى (شارلوت Charlotte)، وينطقها المكسيكان (كارلوتا)، وترتدي الملبس الإفرنجي الواسع والمجوهرات الحديثة؛ وعندما سألت (عبد اللـه) فشل في إجابتي، وقد كان مثلي يعتقد أن إمبراطور (مكسيكا) وزوجته إمبراطورة (مكسيكا) حتمًا من (مكسيكا)! ولكن (يني أفندي) الخازندار شرح لي، قبل بدء تحية استقبال التشريف، أن الإمبراطور

كذلك لا ينتمي للبلاد الحارة، بل أوروباوي أوستيري الأصل ويدعى (ماكسميليان)، فتعجبت غاية العجب، وهممت بأن أنقل للرجل معرفتي الوثيقة، بأن الثوار يعتبرون القائد (خواريز) هو ملكهم ورئيسهم، ولكني خشيت أن ينفلت سري الخاص بلقائي بالثوار، وعدم إبلاغي عنهم، بل ومساعدتهم بالمعلومات، ضد حاميتنا الفرنسية المصرية، وظللت طوال وقت اقتراب الإمبراطورة من صفينا، أفكر في هذه الحكاية الغامضة، حتى أبهرتني المفاجأة الثانية.

(لويزت).

لم أكن متحمسًا لهذا الاستعراض، وفكرت أنني سأتجاهل السيدة المهمة كأنثى أبو قردان أخرى، ولكنهم ضموني بسبب تميز بشرتي وطولي فقط، حتى أكون أول الصف، وسمعت أحد القادة الفرنسيين يقول ضاحكًا في تعليله، وبلهجة عنصرية معتادة:

ـ حتى تكون ملامحك اللينة، بمثابة مخفف لطيف من صدمة الإمبراطورة، التي ستنتاب تحضرها المخملي، عندما تحدق في الملامح الغليظة لبقية السود.

ولكن صدمتي أنا كانت أكبر عندما رأيت وعاينت جمال (لويزت) الطفلة، ابنة إحدى وصيفات شرف بلاط (مكسميليان)، المرافقات للإمبراطورة.

كانت أشبه بوردة ضاحكة وسط صحارى صخرية قاحلة، ساعة مرحة بين أسابيع كئيبة طويلة الأيام، ولم ترحم ضربات قلبي عندما توقفت عندي بالذات، ببشرتها العاجية، وشعرها الذهبي المضفر، وعينيها الساحرتين الملونتين بلون المحيط، وجبينها الشفاف، المشدود حتمًا على جمجمة من البلّور النقي. تأملَت الوردة أزياء القصب الرائعة، ثم لون بشرتي الفاتحة وقد لوحتها الشمس قليلاً. راحت عيناي تسترقان النظر إليها، وهي تبتسم وتتحدث لأمها بفرنسية لم يفهمها جل الجند، بينما تحافظ الأم على إجراء الرد، في أثناء حمايتها لرأس الإمبراطورة بمظلة أنثوية ملونة، جاءت من حضارة صينية عتيدة:

ـ إنه مميز. أهو سوداني؟

ـ إنها أورطة مصرية سودانية. ولربما تم ضم الأبيض من الشمال يا (لويزت) الحبيبة.

وأضاف البكباشي (محمد ألماس) بود، بعد استماعه لترجمة متزامنة من مجند جزائري، وهو يتحرك بقامته القصيرة المشدودة:

ـ أخبر السيدة النبيلة أن هذا النفر بالتحديد، عمره تسع سنوات فقط.

ربما كان يهدف إلى الزهو بأبطال الأورطة، لست أدري ولكنه أصاب هدفًا أجمل، فبينما تبتعدان، ظلت الفتاة تنظر لي متعجبة ومعجبة، وقد بدا أن الوردةَ بدورها في التاسعة من عمرها، وساعد على انبهارها ضخامتي وطولي الواضحان عنها، وعن كل من هم في مثل عمري في الواقع، وحاولت أنا بذل مجهودي وعدم استمرار النظر لها، حتى لا أخالف تعليمات الاستقبال.

ولم أكن أتخيل واحدًا في المئة من الأحداث السريعة التي جرت يومها، بعد الاستقبال.

لقد صعد الحشد الإمبراطوري سطح السفينة، وبينما يتأهب البابور للإبحار، وأفكر أنا في جلستي الحالمة التي أنويها، حدث بعض الاضطراب خارج الميناء. هرعنا لتأمين المكان، لأفاجأ باشتباك سريع بين فرقتين من جنودنا والثوار، وفي أثناء المعركة القصيرة اقترب مني أحد الثوار بشدة، وتأهبت لاستخدام ظلي الحارس بشكل خاطف، لولا أن فوجئت بأنه الأشيب الذي سبق أن

خطفني أحد رجاله، وقد اقترب إلى الحد الذي سمح له بعدما تبين شخصيتي وتذكرني، بأن يقول لي:

ـ ماذا تنتظر؟ الحق بها أيها (النفر)!

ألحق بماذا أو بمن؟

بالسفينة؟

أم بـ (لويزت)؟

الثوار أفكارهم تسبق أفعالهم. ولقد زرع فيّ الرجل الفكرة كالسحر وقتها.

ولم أنفق المزيد من الوقت. أحيانا نقابل في حيواتنا لحظات نادرة، لو أهدرت فلن تعوض إلى الأبد، لكن الفوز بها بحاجة لشجاعة بلا حدود.

سألحق بالفتاة الأروع التي رأتها عيناي.

(لويزت) الضحكة والمغامرة والجنون والمرح.

سأتحدى الكون ما دمت مؤمنًا بعبثية هذه الحرب، وعبثية موتنا فيها على يد أبطالها الحقيقيين من الثوار، وليذهب العالم إلى الجحيم!

وبطريقة ما عدت للحاق بالسفينة دون أن يلحظني القادة، فقط رآني (عبد اللـه سودان) بغتة. آخر أهلي. وفي اللحظة التي أهم فيها بالصعود على متن بابور البحر. كانت العقبة الوحيدة التي قد تمنع تسللي رجل واحد، يمكنه رصدي إذا ما حاولت، وهو جندي البحرية المراقب على الجانب الأيسر الملاصق للرصيف. كانت السفينة تتحرك ببطء شديد في البداية ولكنه في اتجاه مضاد للرصيف، لا بد أن أقفز الآن نحوها وإلا فقدتها إلى الأبد.

هذه الناحية القريبة من المرساة غير مراقبة، إلا من هذا الجندي على السطح الأيسر، وهو مصرّ على النظر صوبي.

السفينة تبتعد. الهوة تتسع ببطء وتبرق أسفلها مياه الخليج في ضوء الشمس الحارقة.

وانشقت الأرض هنا عن (عبد اللـه) الشاحب، وهو يشهر بندقيته ويطلق طلقة بارود مرعبة بجوار المراقب. كان تصرفًا مخيفًا وهائلاً بالنسبة للمراقب، ولكنه لن يعطل إبحار السفينة، فقط تظاهر (عبد اللـه) المتداعي مرضًا أنه أخطأ التصويب، واعتمد عليّ تمامًا كي أستغل تشتت المراقب القسري أمام اعتذاره التالي لفعلته، وأتسلل كالشبح على متن السفينة.

وأقفز قفزة العمر الواسعة.

قفزة من قارة أمريكا، إلى ذاك الخطاب البريدي الضخم المرسل إلى أوروبا.

كانت لحظات من الجنون الصافي، وصبيانية الطفولة.

ولكنها غيرت حياتي تمامًا.

لم يعِ عقلي وقتها سبب هجوم الثوار، ذلك الهجوم الانتحاري في قلب (فيراكروز)، التي سبق أن طهرناها منهم تمامًا وسيطرنا عليها، ولو فكر ربما اعتقد لوهلة أنها محاولة جديدة لقطع خطوط التموين والإمداد، رغم أن قلةَ عدد تلك الكوكبة من الثوار مع احترافية عناصرها، ستجعله يشك في أنها ربما كانت محاولة متأخرة لاغتيال الإمبراطورة. إنها مستهدفة مثل زوجها، الذي تسافر إلى الإمبراطور الفرنسي (نابليون الثالث) خصيصًا من أجل الحصول على دعمه في مواجهة تنامي نفوذ الثوار، من أجل نصرة هذا الزوج المحاصر في بلاد حارة.

الثورة مستمرة.

إذن.

وحملتنا ـ أكثر من أي وقت مضى ـ مجرد رحلة للتضحية بالنفس من أجل (إسماعيل الرائع)، ومن أجل تضافر العائلات المالكة، وتعهدها بحماية بعضها البعض. نموذج مكرر من قصة (عساكر) و(شيخون)، التي قصها أبي عن المعلم (عزيز) يومًا.

هم عائلات مالكة، ونحن مجرد فلاحين وحرفيين لا نملك إلا الصبر.

لو فكر عقلي لحدس هذا الاحتمال.

ولكن قلبي هو من كان يفكر وقتها، وقد سيطر واستحوذ على خشبة مسرح كينونتي، لذا فلم يكرر استنكاره لعبثية حربنا من أجل (شارل لويس نابليون)، في حرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل ولا حتى أرنب! قلبي هو ما سيطر على كياني وجعلني أخمن ـ حالمًا ـ أن سببَ هجوم رجال (خواريز) الوحيد، كان من أجل حبي الوليد.

وسبب تضحية (عبد اللـه) هو من أجل حبي الوليد.

وسبب ملاحظة البكباشي (محمد ألماس) لحديث الوصيفة مع طفلتها، هو من أجل حبي الوليد.

غرور قلبي وتيهه وولهه صوروا لي هذا، وقال العقل فيما بعد أن الأشيبَ و(عبد اللـه سودان) أرادا تحرير طفولتي من الحرب البائسة. فلله درهما.

وعلى السفينة اختبأت كفأر محترف، خاض حربًا في مطابخ الأرض لتحريرها من ثورة بني آدم، واخترت بعقلية الفأر البراجماتية أقرب نقطة من منطقة المطبخ والمؤن، فمهما امتلكت من قوى خارقة ما زلت بشرًا، لو لم أحصل على التغذية لمات جسدي، وتوقف قلبي عن حب (لويزت).

تلك الفتاة الرائعة لم تكن تجاريني جسمانيًا، ولكنها كانت تجاريني عقلاً وذكاءً، ولقد امتصت المفاجأة بسرعة، عندما انفردت بها ذات ليلة لأعلن لها وجودي، وأخبرها بالفرنسية أنني هربت من أجلها. استوعبت مغامرتي وتحمست لها بشكل طفولي فائق، وتعلقت بي أكثر، وطلبت أن أناديها (لويز) لأنني سأكون صديقًا لها، وأسرّت لي أن عقلها متعلق بحب المغامرات وركوب الأخطار، ولكن حياة القصور تمنعها منها، فتكتفي بسماع وقراءة مغامرات الآخرين، الواقعية منها والخيالية، وكان هذا الإسرار فرصة ذهبية لي، حتى أقص عليها ما مررت به، لذا استغليت انبهارها وعشقها الشديد للمغامرات، لسرد سياحتي عبر ثلاثة أقطار، وما مر بي كله. وبالتفصيل.

وقرب نهاية الرحلة عبر المحيط الأزرق، وبينما نبتعد عن المناطق الحارة صوب ابنة عمتها الباردة الهوجاء، أعلنت الطفلة الفرنسية أن هذه الرحلة بما قصصته، لهي أعظم ما حدث لها طوال حياتها، وأنها تصبو للمرور بنصف ما مررت به من مخاطر ومغامرات ومجازفات، فحياة البلاط الإمبراطوري ودروس العزف على (البيان) هي الملل بعينه، لم أعرف ما هو (البِيان)، فشرحت لي أنه آلة موسيقية ضخمة، وصفرت بشفتيها مقلدة أحد الألحان الأوستيرية[7] الفخمة التي تؤديها عليه، وكنت أتطلع إلى شفتيها المضمومتين كمستكشف لآلئ أبصر لؤلؤة حمراء للمرة الأولى في حياته، ومع عطرها الأخاذ وصوت اللحن الشفيف الذي تؤديه، اقتربت منها، فتوقفَت، أحطت خاصرتها بذراعي فابتسمَت بسرور بريء، وشعرت بمسرة شبيهة لكن غريبة. كان عليّ أن أفعل ما رأته في عيناي، وقبل أن تنتهي هذه الخلوة الحلوة، المختطفة من قلب الزمن، بحثت عن مكان فيها ألمسه غير خاصرتها، وكنت أتوق منذ رأيتها في (فيراكروز) لمس خدها، ذاك الخد الذي بدا

لي كحلم من الجنة محال أن أطاله؛ وعندما تذكرت أمنيتي قبل الفرار خلفها، بث فيّ الخد المتورد سحرًا لطيفًا مشجعًا، فاقتربت بوجهي من وجهها وطبعت قبلة هادئة عليه، شاعرًا بملمس كالبتلة الصابحة الطرية، من بتلات الورد البلدي منزوع الشوك.

نظرت لي بحدقتيها الزرقاوين، ثم اقتربت بوجهها من وجهي، وبادلتني قبلتي بقبلة رقيقة من شفتيها الخلابتين، لتؤكد على المعنى وترد هديتي بخير منها. فقهقهت بقوة، وضحكت هي بنعومة، وقد صرنا حبيبين ضمنيًا بهذا الإجراء، وبدون الحاجة للتصريح، وفهمت هي هذا كما فهمته أنا بالضبط، وبدون أي شرح أو تبريرات. بعد هذا وجدت أن الكبارَ يحبون بعضهم أيضًا، ولكنهم يتبادلون كلمات طويلة، وأحاديث تفسيرية متعددة ومرهقة، إما للتعبير عن الحب وإما لشرح إحساسهم، وأحيانًا ينشدون معلقات كاملة، تبدو ترجمتها للفرنسية عسيرة بالمناسبة، كمعلقة (عنترة بن شداد) مثلاً، والتي تتضمن أبيات غزل كثيرة في خليلته (عبلة بنت مالك)، وكان هذا يحيرني. لماذا لا يحبون بعضهم البعض فحسب، كما فعلنا ببساطة أنا و(لويزت)؟!

نعم ما زلت أعتقد أن هذا ممكنًا حتى بعد بلوغي ونضجي، ولا يوجد سبب كي نزداد تعقيدًا حتى ونحن نحب أو نكره، ويمكن لو أنك أبغضت إنسانًا أن تبتعد عنه فقط، دون الحاجة لإهانته أو قتله، وكذلك لو أحببت إنسانًا آخر، فما عليك إلا أن تقول له: أحبك. وتقرن تصريحك بالإخلاص والتفاني والصدق. دون الكثير والكثير من الشرح والتفسير.

لقد أحببتها وأخذت هي بمجامع قلبي.

ولكن أوقات الهناء وأسرار الهُيام لم تدم طويلاً. حلت كارثة جديدة بي، ومعي هذه المرة صديقتي الجديدة وحبيبتي المختارة، لتشكل محطة فارقة مخيفة في الرحلة كلها.

لم أستمتع بلذة الفكاك من الحرب العبثية، إلا وحدث ما عكر الصفو وكاد يذهب بروحينا. ولكن حرصي على حياتها هي، جعلني أبذل المستحيل للنجاة من الحادثة.

لقد تسللنا لقارب صغير مربوط بالسفينة على جسمها الخارجي، وتخيلنا أننا نسبح به وحدنا، في البحر الأبيض الواسع مستغلين قصر حوافه، عكس أسوار البابور المرتفعة فوق سطحه الخارجي، ولكن هبت العاصفة، فأحالت التخيل إلى حقيقة، عندما تمزقت أحبال القارب المهتز، ومع قوة الرياح المولولة في الليل، سقط بنا فوق الماء، وابتلعنا الموج قبل حتى أن نستغيث بالسفينة الأم.

كنا نقترب من الأراضي الفرنسية، وكان يمكنك أن ترى أضواء ميناء (طولون) واضحة، ولكن القارب صار ألعوبة في يد الريح الهوجاء، وانطلق بنا وسط صراخ (لويزت) طالبة النجدة بثبات، بينما تلتمع في عينها نظرة إثارة خاصة، تبادلتها معي في غمرة صراخها، كأنما تستمتع بشكل ما رغم حقيقة خوفها الصادق!

ولكن المركب انجرف بنا طيلة الليل، حتى استقر بعدَ لأيٍ عند شاطئ مهجور.

لم يكن عندي شك أن هذه (فرانسا)، ولكن في أية نقطة؟

أنا لا أعرف خريطة (فرانسا)، وسلاحي الوحيد هو اللغة. لكن هل يكفي للبقاء؟

كان الوقت فجرًا، وكان علينا التحرك بعيدًا عن رياح الشاطئ الباردة، القوية، التي صبغت وجوهنا بالاحمرار من أثر ارتطامها، فتحركنا في الحال صوب الأشجار القريبة، وبعد ساعتين

أشرقت الشمس بوهنٍ، وبدت كالبدر، يمكنك النظر مباشرة إليها دون ألم، ومع إرهاق المشي، والجوع، والتوتر، كان ذِهنانا بعيدين عن التفكير في الخطوة التالية.

انحصر العالم كله في كلينا وحسب.

وعندما انطلق صوت طائر حاد بشكل مفاجئ، تشابكت أصابعها مع أصابعي غريزيًا، وتلاقت نظراتها القلقة المجهدة، مع نظراتي المحبة المجهدة، فقلت باسمًا:

ـ لعله طائر يبحث عن حبيبته.

قالت دون أن تفلت كفها الرقيق، ما منحني مسرة وثقة رائعتين:

ـ أو هي أنثى تبحث عن حبيبها.

ـ عن حبيبها أم عن المغامرة؟

ـ ربما كان الحبيب هو المغامرة، والمغامرة هي الحبيب.

لم أكن أعرف وقتها أن سرَ تماسكها، ينبع من ثقتها في حسبها ونسبها، وأنها يمكنها العودة إن أرادت لأهلها، بمجرد أن تعلن عن هويتها لأي سيارة من حطابي المنطقة أو صياديها. واعتقدت بنفس الغرور القديم، أنها تستمد أمنها الأكبر من وجودي إلى جوارها، وحبها للمغامرة معي.

وعندما التقينا بالغجر أول مرة، ظنوا مع ضخامتي أن ليَ من العمرِ خمس عشرة سنة، وهذا ساعدني كثيرًا في عالم الكبار الخشن الفظ، ومنحني بعض الاستقلالية طوال السنوات التالية من ترحالنا مع الغجر، حول مدينة ساحلية يقال لها (نيس).

نعم.

مكثت في (فرانسا) ثلاث سنوات من صباي، هانئًا في نزقي بـ(لويزت)، محلقًا في إعصار هروبي من السخرة والحرب والموت، هائمًا في عاصفة حبها للمغامرة، وقد ألقينا العالم كله وراء ظهرينا.

أحيانًا. لا تكون الجنة هي المكان، أو حتى الزمان. بل الوجهة. أن تتجه صوب اللاشيء. صوب مجهول لا يتعجلك ولا تستبطئه. عدم، الخير والشر فيه سواء، واللامسؤولية هي سقفه وسماؤه.

وكان حب (لويز) الصغيرة كما قال (يني أفندي)، هو الحب الأكثر جمالاً وبراءة من حب الكبار البالغين.

عملي كنحاس ومع (سعد)، أعانني كي أصير حداد جماعة الغجر الرحّل التي قابلتنا، لمدة سنتين، تلفها سدم فقدان الذاكرة، ثم عند السيدة (مارجريت) في السنة الثالثة؛ وهي ثرية بورجوازية مالت للإقطاع، فتملكت مصنعًا للبيرة، وحقول شعير وحنطة على أطراف (نيس). استطعت بسهولة أن أحل محل صبي الحداد الذي قتله الجدري، والذي كان مسؤولاً عن صيانة وتصليح أبواب وأدوات المصنع، وعدة الحرث المعدنية، وكنت أدعوها بالفرنسية هكذا: «مدام ماغجغيت» كما تفضل. ورغم المسؤولية، التي نبتت رغم كل شيء، فإنني كنت أكاد أخرج من جلدي فرحًا عند إعالة (لويزت)، النبيلة التي يملك أهلها آلاف الفرنكات، والذين كنت أفكر فيهم في صمت، وكيف أنهم قد يعتقدونني خاطفًا لطفلتهم، في حين أنني عندما كنت أستكشف من بعيد رأي (لويزت)، كانت تفكر من زاوية أخرى تمامًا، وهي أننا غرقى الآن بالنسبة لهم. وكان رأيها يهدئ خواطري، ويزيد من حبي لها. من المفيد أن تحب أحدهم. وجود شخصية أخرى إلى جوارك مختلفة عن شخصيتك، يزيد الأفكار ثراءً، ويوسع من أفق التجربة.

هناك وجدت باب سعادة آخر لا يقل عن إعالتي لحبيبتي. المدام (مارجريت) التي قامت بتشغيلنا، ورحمتنا من ترحال الغجر، سمحت لي بغشيان مكتبتها الشخصية الكبيرة يومي السبت والأحد من كل أسبوع، وهي المكتبة التي حوت ما أدهش عقلي من كتب وروايات وحتى صحف، ساعدتني على الوقوف على أحدث مستجدات العالم الواسع، وأسالت لعابي للثقافة والتفكر، وأثارت ذاكرتي وأنعشتها، وهي تقارن بين ما أستوعبه وما علمنيه أبي العزيز.

قرأت في عشرات المجالات، حتى الطب الذي تطوروا فيه حتى سبقونا، ففصلوا مثلاً بين الجراح والحلاق، وألغوا الاعتقاد القديم بأن المجانين مصابون بمس من الشيطان، يعاقب به اللـه الخطائين، وكرسوا بدلا منه العلم الحق لا الخرافة، بنهاية القرن الماضي، بعد أن كان المرضى المساكين يعاملون بطريقة عجيبة التدهور، مرعبة الفكر. مثلا نزلاء (النارنثروم) أو برج الحمقى بـ(فيينا)، كانوا يعرضون على المتفرجين لقاء رسم دخول كوحوش السيرك، وفي (بيدلام) أو مستشفى (بيت لحم) بـ(لندن)، يستطيع الجمهور أن يتفرس في وجوه المخبولين، وهم موثقون بسلسلة وطوق حديد إلى الحائط.

ورغم غرقي في هذه المتعة الخلابة، فإن (لويزت) كانت شاغلي الأول.

وكلما مر بنا فنانو أوروبة والطبقة الأرستقراطية الإنجليزية، الذين كانوا يفضلون (نيس) لقضاء العطلات والرحلات الاستجمامية، سقط قلبي بين قدمي، خشية أن تفكر (لويزت) في الاتصال بهم والحنين لأهلها، والزهد في حياة التيه والصعلكة.

رباه! ما الذي فعلته بطفلتي المسكينة؟!

في طقس (نيس) البارد، المثير للنشاط والخيال، كنت أحسد هؤلاء السادة الأرستقراطيين من محبي الصيد، حتى إنني قررت عندما أكبر ابتياع حلة (نورفولك)، ثقيلة، كالتي تقيهم برد الشتاء القاسي. والذي لم يكن أشد قسوة عليّ من قلقها الدفين، وهي تقول لي:

ـ إن أمي ستحبك.

ـ ربما. لكن الأوقع أنها لا تفعل. لست برقة الفرنسيين.

ـ البلاط الأوستيري بعيد عن حياة الفرنسيين يا عزيزي. حتى قطع (البيان) الموسيقية، لم تكن فرنسية في كثير منها.

ثم فتحت قلادتها، وأشارت لأيقونة تمثل وجه أمها الوردي الحالم، ويكأنه وجه حورية البحار، وأخبرتني كم تعتز بهذه السلسلة الفضية. فشعرت مريرًا بفداحة إبعاد طفلة عن أمها، طوال هذا الوقت.

ولكن استيقاظ لعنة بن آوى مجددًا في نهاية السنة الثالثة، أعاد لي مشكلاتي الخاصة، وأجبرني على السعي والبحث عن المعرفة والمصير، وعندما سألت السيدة الحنون (مارجريت) أمام مدفأتها من الرخام الأبيض، عن إمكانية وجود رجال برؤوس كلاب أو أن هذا محض خيال وخرافة، صدمني جوابها بشدة، وذلك عندما رسمت الصليب أمام صدرها المترهل، المزين بقلادة على هيئة القديسة (جنفييف) شفيعة (باريس)، وهي تدلني على جماعة من أقاربها ينتسبون لعائلة عريقة من أحفاد القوط الغربيين المنقرضين، لعظم تأثير مجرد الكلام في هذا الأمر علي نفسها، ما يشي بجديته وفظاعته. زاد الأمر بشاعة شكها في ملتي، فهي كانت مطمئنة من ناحية (لويز) الحبيبة، وكانت في أثناء متابعة عملها عندها في غسل المفارش وتقشير الخضراوات، تناديها بـ(المسيحية

الطيبة)، فتظاهرت بأنني مسيحي حتى لا تفرقنا أو تطردني بعيدًا عن أملاكها، ولكني حتى لم أعرف كيف أتظاهر بشكل مقنع، فكانت تشك بأنني وثني!

ولكنها منحتني عنوان أقاربها، واستطعت الوصول لهم واكتشاف مدى تقدمهم في السن، وشرح هؤلاء لي وجود ما يشبه هذا المخلوق بالفعل، وإن فهموا ـ وهم يرسمون الصلبان في الهواء مرارًا ـ أنني أتحول هذا التحول في كوابيسي فقط لا واقعيًا، ما طمأنهم كثيرًا وجعلهم يتخلون عن مقابض سيوفهم الأثرية، وهم يقصون عليّ ما يعرفونه عن المخلوق الغامض، من سير وقصص الأجداد.

التفصيلة المهمة أنهم لا يسمونه في أوروبة ذا رأس الكلب، أو بن آوى كما أسميه.

بل الرجل الذئب.

وأدركت أن الأمرَ خطيرٌ بالفعل، وكان عقلي حتى هذه اللحظة لا يتصور أن ما يتعرض لي، له أصداء في دنيا الواقع، وعليه فينبغي أن أسعى للمزيد من المعرفة.

المزيد من الأنوار.

وعلى خاطر الأنوار زارني الدرويش في رؤيا شريفة، في ليلة كنت قد رجعت فيها للانتظام في أداء صلاة القيام الخاشعة، الهادئة، التي تقربني من مدارات ومواقع النجوم العليا وما فوقها، وأرشدني إلى أن مبتغايَ في أرض النيل، وذكر اسم الشيخ (زاهر الدمشقي)، فصحوت شاعرًا بالانشراح والسرور، وأن ما استخرت اللـه على القيام به حان أوانه، وأن ترددي بشأن (لويزت) في محله، وعليّ أن أمنحها فرصة لقاء أولي أمرها من النبلاء، لإزالة شبهة اختطافها التي كانت تؤرقني بشدة، وإعطائها الفرصة والحرية الكاملتين، لإعادة التفكير في صحبتي واختبار مدى قوة حبنا: أتصبر أم تنسى؟

قلت لها وقت الوداع، وقسوة قلقها وألمها تعاود ضربي:

ـ إن الهاتف هناك. في وادي النيل.

كفكفت دمعة بمنديلها الرقيق، وعيناها الزرقاوان ترنوان إليّ في عتاب قاتل:

ـ سيهون عليك اتحادنا.

ـ لا تلفظيها.

ـ لقد لفظتها قبلي.

ـ لم يفعلها قلبي. وأنت تعرفين.

ـ (مافوز). سنلتقي من جديد في هذا العالم.

ـ من يدري.

ـ أنا أدري.

وخلعت سلسلتها الفضية الثمينة، ومدت بها يديها نحو عنقي، فتراجعت في ذعر:

ـ ماذا تفعلين؟!

ـ إن كنت أمثل لك شيئًا خذها. أم تراك تفكر في اللاعود. خذها حتى أجدك.

وبعد إلحاح قبلتها، واحتضنتها، وانثالت دموعها، وقلبي ينثلم مع حبها الحقيقي. من النادر أن تحب مخلوقًا ما حبًا حقيقيًا، بكل صفاته، ومن الأندر أن يبادلك نفس المخلوق حبًا بحب، بلا مقابل، ولا سبب.

سأمنحها أملاً وتجربة، وأمنح أمها فلذة كبدها، وسوف أمنح نفسي فرصة لقاء أهلي بدوري، وتحقيق حلمي الصغير الذي ظل يراودني وأراوده، طوال تلك السنون الثلاث، بالعودة للوطن، والبحث عن جذور هذه اللعنة وسرها. فكلام الدرويش قديمًا في أيام (لاسين)، لم يشفِ غليلي أو شغف المعرفة بأعماقي. وعليّ البحث بنفسي عن مصيري.

في محروسة (مصر).

* * *

العاشق 404

ـ «سنختبر الشجاعة في مكانها»

العالم الخرب ـ أوائل سنة 5006 ن

حدثت مفاجأتان.

الأولى كانت تتعلق بسبب مجيئي الحقيقي، ولكنها لم تستحق أهميتها إلا بحدوث المفاجأة الثانية، وهي خروجي من السجن.

لقد زارني المغوار الثاني، وامتنعت كالعادة عن كشف حقيقتي، ولكن أسلوب الرجل وأصله النبيل، اللذين ذكراني بشكل غريب بالقائد (خواريز) المكسيكاني، أقنعاني بأمانته، وجعلاني أباغت السيد (نوفيو) وأكشف للمغوار أمري، استغلالاً لسؤاله الحكيم الانفراد بي:

ـ أنا أجيد الهيروليغية. ولست بزائرٍ عادي. فأنا سليل من تطلقون عليه (المهدم).

ـ توقف أيها الأحمق!

هكذا باغتت المغوار، وهكذا حاول الأسير المحترم منعي.

ولكن باللسان الأوريومي الذي زرعه في وجداني الحكيم، طفقت أشرح له قصتي ونسبي، وحتى ظلي الأسود الموروث، في عجالة، أمام ذهوله، وعندما شعر الحكيم الأسير بدوران عجلة الأحداث في نهاية الأمر، على الرغم من تحذيره، ولمس بنفسه نية المغوار بعدم فضح كنهي، تعامل مع الموقف بسرعة تستحق الإعجاب، واستوعبه بمرونة، مناشدًا المغوار الثاني أن يعينني على الخروج، لإتمام رحلتي ذات الغرض المقدس والنبيل:

ـ لو نجحت رحلته، ستساعد المسكونة على الانتقال إلى عالمه المعمور. العالم الخرب مُقبل على التحلل، وقد وضعت حساباتي لفتح المجاز. ولا يتبقى إلا أن ينهل من الحكمة، من يؤمن بضرورة العودة، ويمتلك قدرات خاصة مثله. وكذلك وضعت حسابات الفريق الذي ينبغي أن يلازمه، والذي قد يعرض نفسه للموت في سبيل مساعدته على تجاوز الرحلة، وأنت أحد أفراد الفريق الذي ليس له مثيل في (أوريوم) كلها.

ـ نعم سيدي المغوار. وبالحماية التي أمتلكها سأسعى بكل ما أملك، لتخليص بني جنسكم من بؤسه. لإحياء كل من تحب، في عالم آخر، لا يخلو من مشكلاتٍ في الواقع، ولكنه بمثابة جنة بالنسبة لمشكلات عالمكم.

لم أنوِ مساعدة هذه الشعوب على غزو عالمي إن وصلت للينبوع الثمين، ولكن لم يكن من سبيل آخر غير الكذب التكتيكي، والتأكيد على الأسير والمغوار أن الوصولَ إلى الينبوع، هو مجاز عبور الجميع إلى عالمي، وتفادي العاصفة الثانية. لم أملك إلا ادعاء البطولة، وأنني لا ريب محرر هذا العالم المنتظَر.

ـ المغاوير لا يخشون الموت، وبالتأكيد لا يخشون العاصفة أو مسوخها، ولكن (المهدم) هو أعظم رجل استطاع بلوغ القدر الأقصى من التدمير. منذ نعومة أظفارنا نشبّ على الصيد والقنص، ونعلم أن قهرَ الجيوش وتخريب الأسوار بحاجة لشجاعة هائلة، وبأس متين. عنف. قوة. وقد حاز جدك الأكبر منزلة غيرت من مجرى تاريخنا كله في المحق والسحق. أنا على استعداد لمرافقة سليل (المهدم) من أجل الشجاعة والتاريخ.

هكذا تكلم المغوار الثاني معجبًا بجرأتي على كشفي لأمري له. الغريب أنهما اقتنعا بصدقي، واختلطت عليهم لهفتي في تحرير بني جنسي والعودة بالسجناء، بنيّتي معاونة الكل وليس أربعتنا فقط، كزائرين ضلوا طريقهم إلى هذا العالم الموحش. أو هكذا ظننت مخادعًا عقلي، ولكن بعد تدقيق نبهتني له (لويزت) إثر ترجمتي لكلماته على مسامعها، وبعد أن عبرت بوضوح وسرعة عن تقززها من مدى همجية عقليته، بالنسبة لنبيلة فرنسية مثلها، فهمت مراده الحقيقي، وأصبت بإحباط تعس، من مدى احترام الرجل لسطوة العنف لا أكثر، فبالنسبة له، ليذهب العالم الخرب إلى الجحيم، ولكنه سيحتفظ باحترام خاص لجدي سامحه اللـه؛ بسبب القدرة الجسورة لضميره الشيطاني على تدمير عالم كامل. ما برحت (لويز) تلفت نظري لملاحظاتها الخاصة.

وعلى أي حال جاءت مساعدة المغوار الثاني مبهرة بشكل حقيقي؛ إذ كان حقًا مغوارًا، مقدامًا على العظائم، يقصد خطيرات الأمور كما تقول العرب.

الأحداث سرت بسرعة، منذ لحظة زيارته لي وحتى إخراجي. فقد عاد إلى أعلى الصرح بعد لقائنا وتخطيطنا، وقابل الأميرة (فلاديوسا)، ابنة الإمبراطور وأجمل جميلات الأراضي النحاسية، وتوسط لإدخالي في قائمة عشاقها، ومع أسلوبه الرجولي القوي وافقت، ولم أكن أنا أعلم أي شيء عن الأميرة وقائمتها تلك، ولكن عرفت أن معارضةً شديدة نشبت بينها وبين وزير الإمبراطور المدعو (هوريندوز)، الذي استند إلى قوانين (الخوان) المانعة تمامًا لخروج المساجين إلى الحرية، خاصة إذا كانوا من الزوار، ورغم ميل الإمبراطور إلى رأي وزيره الصارم، فإن دلالَ الأميرة، وتعهد المغوار الثاني مرافقتي طوال رحلتي صوب الينبوع ذهابًا وإيابًا، رجحا موافقته، بينما يداعب فراء (صاجوت). وهكذا زارني المغوار مجددًا، وقال لي بلا مقدمات:

ـ لقد حصلت يا رجل على ترتيب (العاشق 404)، عليك إقناع الأميرة أنك تنوي الموت من أجلها، أو الإتيان بما تشترطه من كأس الينبوع، كمهر قبولها لك زوجًا. هذا الادعاء سيوفر لك خروجًا تحت حمايتي وبمرافقتي.

شعرت بالامتنان بلا حدود لموافقة المغوار صحبتي وإخراجي من هذه الحفرة، خاصة أن أحد أعضاء الفريق المطلوب جمعه، كان لا بد أن يكون صيادًا شديد الخبرة كما أكد (نوفيو)؛ لتفادي خطر جنس من المخلوقات المفترسة يسمى (الأبالسة)، يستعمر نطاق المنايا كما شرح الأسير المحترم.

ولكن ظهرت مشكلة عجيبة لم أستوعبها للوهلة الأولى. لقد هاجمتني (لويزت) بكلمات غاضبة، واتهمتني بأنني أنوي الوقوع في غرام الأميرة الخوانية الفاتنة بالفعل، وعندما أكدت لها أنني أتذكر ثلاث سنوات من الحب قضيناها في مسقط رأسها، وعبرت عن مدى حبي لها، سواء في عالمنا المعمور أو هذا العالم الخرب، وأننا وليفان ورفيقان لا يفترقان منذ الطفولة، أمسكت بالمعنى وتشبثت بإثبات هذا في صراع من الحب وبالحب، وأن أصطحبها مهما كلفنا الخطر،

وعندما امتنعت في هلع شابه الحب، بالتزامن مع إدراكي لغيرتها وحبها الطبيعي لي، رغم عدم تذكرها بعد كل ما تذكرته أنا، فاجأني (نوفيو) نفسه بضرورة اصطحابها حتى تحمل الرضيع!

وبعد أن استفسرت في دهشة، طلب من السجينة البائسة أن تسلمنا طفلتها (فينالیا)، لأنها إحدى العناصر المطلوبة في الفريق، وسيكون لها دور في إنقاذنا من الخطر؛ ومن شدة ذهولي واضطرابي لحتمية مرافقة (لويزت) لرحلة المهالك هذه، لم أتذكر سؤال الأسير عن نوع الخطر، الذي يمكن لرضيعة أن تمنعه عنا، ووافقت الأم من أجل إنقاذ المسكونة، ولأن بقاء طفلتها معها سيحكم عليها بالموت السريع. غزاني برق الألم، وشعرت بفداحة كذبتي بشأن نيتي مساعدة هؤلاء الناس، ولكني امتثلت للحكيم شبه المخلد.

كانت الأمُ ساقطة معدمة من بلدة (المخدع)، ذات العرف المحلي المتشدد، الذي يعتبر أن أي فتاة بلغت سن الخامسة، قد صارت امرأة، لا يمكن أن توجد خارج (المخدع)، بعيدًا عن رجال (المخدع) الخلوقين، وإلا فهي زانية تتبع شرور وآثام جبابرة (النيفاشتا)، وهكذا عندما حل ذلك الصباح المشرق القديم، وطاردت الطفلة البريئة (جاليا) فراشتها ثمانية الأجنحة، ضلت طريقها حتى خارج (المخدع)، فحكم عليها بالنفي إلى الأبد. ولم تجد سوى (الخوان) كي تواصل مصيرها، ولكن عاصمة الإمبراطورية كانت أكثر قسوة عليها. رآها (أوسيزور) ذات ليلة عاصفة، فكانت مأساتها أنها طالبت الإمبراطور بإثبات أبوته لطفلتها، وها هي تدفع ثمن جرأتها تلك على يد الفيكونت (هوريندوز) القاسي. وكان (نوفيو) ضمن دائرة محدودة جدًا يعرف أن الإمبراطور لا ينجب إلا الإناث، فينبذهن في طريقه الأعمى لإنجاب ذكر واحد، يرث السلالة ويحكم بعده، لكن بلا أمل في خلق هذا الذكر وعر الملتمس.

جادت (جاليا) بطفلتها، من أجل الأمل. فقط الأمل في حياة تحت الشمس، وخارج ظلام السجون الإمبراطورية.

وامتثلت مجددا للحكيم، عندما طلب معاونتي في نسخ كتاب مهم، حول بعض المعلومات البيئية والكيميائية في هذا العالم، حتى أتمكن من النجاة من عدد آخر من المخاطر الإحيائية، وكان الكتابُ مرهقًا، ولكنه أمرني بنسخه بسرعة بالعربية، قبل الخروج أخيرًا من هنا، الخروج الذي بات مسألة ساعات، واضطرني هذا للسهر لليلتينِ متواصلتين، حتى التهبت عيناي على الضوء الخافت، وفي النهاية أنجزت النسخ بعد جهد، بدأ معه طنين غامض مجهد، لم يفارق رأسي طوال ما بقى من مدة إقامة في هذا العالم كله.

كانت ها هنا لوحة عتيقة معلقة في زنزانته، وقد غلفت بمادة شفافة مجهولة لتحميها من عوامل الرطوبة. وعلى نحو عجيب، دمعت عيناه عندما أبديت ملاحظتي، الممتدحة لذاك المشهد الحربي الذي تصوره اللوحة، فلما تساءلت بدهشة عن سبب تأثره، قال مضاعفًا دهشتي:

- لا يوجد الآن من يتذوق فن التصوير، وأنت أول من لفتت لوحة (سالحادور الفاتح) انتباهه. فذكرتَني بحضارتنا المنهارة، وفنوننا الغارقة.

كانت اللوحة تظهر مشهدًا لجيوش عظيمة، تفترش واديًا يمتد حتى الأفق، يتصدرها الفاتح الشهير شاهرًا سيفه الضخم، وقد اعتمر تاجًا عاليًا ينتهي بأربعة بروزات كروية الشكل، كالعظام المضفورة، وأمامه تتراجع فلول وشراذم القبائل المناوئة.

وعندما آن الأوان، زرت الأميرة مع المغوار، وساعد انبهاري الطبيعي بحسنها اللافت وأناقتها الخارقة، أن أزيّن ادِّعائي بصدد عشقي لها، وتضحيتي بحياتي من أجلها، واقتنعت هي، وإن كانت

موافقتها في الأساس من أجل إعجاب خفي بالمغوار نفسه، كما بدا لي، خاصة عندما طلبت منه أن يفر إذا ما أطبق عليّ الخطر، لينجو هو بحياته ولا نضحي بروحين، حسب تعبيرها وتبريرها المتصنّع.

وهكذا خرجت إلى الشمس أول مرة.

أنا، والمغوار، و(لويزت) حاملة الرضيع، وذاك العملاق مرافق المغوار، والذي لم يبد لي كجني بل رجل عادي، أو بهذا أقنعت نفسي لتخليصها من الاضطراب، وقد علقت حقيبتي البرتقالية ذات السيور الحمراء الزاهية على ظهري، وفيها بعض المؤن والسماوَر الفضي ممتاز الصنعة، ذو الصنبورين أسفله، والذي سلمه لي الحكيم لتعبئته عند الوصول للينبوع، وبعض الأدوات البسيطة كثقاب وأوراق، وبعض قطع الفحم طويل العمر في هذا العالم. لم تكن شمسًا بالمعنى المباشر تلك التي خرجنا لها من ظلام السجن، إذ كانت الزوابع الترابية الصغيرة، التي ترتفع لخمسة أمتار تقريبًا، تحجب الاستمتاع الحقيقي بالأشعة والضوء الساطع.

السماور، كان يشغل معظم حقيبتي، إذ إن المؤنَ الأساسية فوق العربة؛ وعندما سلمه لي الحكيم السجين، توقف لحظة، ونظر له بحنين كأنه يتطلع لأزمان سحيقة، وقال:

ـ هذا السماور من نفحات السادة الراحلين، ومن آخر الأشياء والتحف التي احتفظت بها قبل الخراب. وماء الإكسير الشريف لا يصلح أن يحتويه إناء عادي، بل هذا السماور الملكي، المصنوع من سبعة معادن مختلفة. هو لك.

كان طوله مترًا كاملاً، يبدو ثقيلاً لكنه خفيف بشكل مدهش، رغم متانته العظيمة، ومكوّن من ثلاثة أجزاء: القاعدة، وكانت ذات سيقان أربعة قصيرة كأقدام الرخ المخلبية، ثم الدورق ذو الصنبورين في الأسفل، وقد تشكلت كل من ذراعي الصنبورين على هيئة حلقة بيضاوية من أفعوان مذهب، ومقبضي الحمل في الأعلى وقد كانا على هيئة رأس ثور مجوفة، ثم القمة الأشبه بعمود أسطواني يتكثف فيه البخار لإنضاج الشاي، أو أي مشروب ساخن من الأعشاب. وكان كل جزء قد نقش عليه رسوم غاية في الدقة والجمال، لملوك، ووحوش، ومعارك عظيمة، وتيجان، ونباتات بديعة، بحيث احتفظت القاعدة والقمة الأسطوانية بألوان هذه النقوش براقة زاهية، باستثناء الدورق الضخم الذي يشكل المساحة الأكبر من السماور، وقد ظلت فضته صافية لامعة بلا ألوان، كالمرآة، عليها فقط رسوم غائرة دقيقة، علمت أنها تصور معارك آخر ملوك الدولة الهيروليغية الغابرة.

كنا نمتطي الخيول، وخلفنا أربعة مغاوير آخرين يعلقون الأقواس المستعرضة الكبيرة التي لا تفارقهم، وتجر خيولهم عربة ضخمة فرغت ـ إلا قليلاً ـ من بضاعة اللحوم والجلود التي باعوها، وكانوا ضمن قافلة رافقت المغوار الثاني من أسوار (ذنب العقرب) وحتى أسوار (الخوان) المطلة على (النهر العظيم)، لمزيج من الحراسة والتجارة، بينما انطلق المغوار الثالث مرافق الإمبراطور السابق رأسًا إلى الشرق، حيث أسوار بني قومه، لتسلم منصبه العسكري، ولم يرافقنا جنوبًا.

وقبل أن نستقر فوق ظهور الخيل الخارقة، شاهدت عددًا كبيرًا من الأحزمة والأربطة، بارزة من سرج ولجام كل جواد، فعرفت أنها مستويات من تأمين الراكب، مستوى أول للسرعة العادية، وهي ضعف سرعة جياد عالمنا، ومستوى ثان، يحمي الفارس من السقوط في أثناء الانطلاق رهيب السرعة في الأراضي المنبسطة، حيث يطوي الجواد هنا الأرض، وينهبها نهبًا.

فتحت الشبكات الحديد وهبطت الجسور فوق الخنادق، حتى غادرنا الصرح إلى تل (الغرب)، ومنه إلى حيث مررنا بمعسكر للجيش النحاسي ملحق بالصرح، وكان الجنودُ غاية في العظمة والأبهة، وقد زينتهم أردية ممتازة وخوذات نحاسية لامعة، وأثمرت تدريباتهم الشاقة عن لياقة مرتفعة، وعضلات منحوتة كأنما قدت من بازلت، يشبه البازلت المصنوع منه تمثال مارد الحجم، بلغ ارتفاعه نصف طول الصرح الهائل، يصور مؤسس عاصمتهم (جارولیوس الحفار)، ويظللهم كالطود، متسندًا بكلتا يديه إلى مقبض سيف عملاق من الفولاذ المطلي، لا ريب أنه استهلك منجمًا صغيرًا بأكمله، وقد تغطت رأسه الهائلة بعشرات الطيور المهاجرة المستريحة. وبينما تقوم إحدى فرقهم بعمل (مارش) عسكري، دوت حناجرهم القوية بنشيد أسوارهم الخاص، فانتهزت الفرصة لأدرب ذاكرتي على معرفة اللسان الأورومي، وذلك بحفظ ما أنشدوه. وإليك أقرب ترجمة مني لنشيدهم، الذي بدا بلغتهم أكثر فخامة وغلظة من وقع كلماتنا العربية:

حتى يقترب اليوم. الذي تسحق فيه أوريوم
وحينما يتوقف الزمان سقيما محتقنا. يظل الرخ العظيم يحمي أمتنا
جيشنا يعمل ويغني ويحرس السادة، كشجر الزان فوق الهضبة العالية منتصبا
كعلو سماء الصيف اللازوردية ولمعان خارميل ووازميل، أرواحنا متيقظة
في تبجيل جلالته مرتكزة
بقلبي وكياني، أفدي قومي في السراء والضراء مفتخرا
قراري عدم الخوف. وشعاري الحلوف!

طبعًا سماء الصيف اللازوردية مجرد معنى شعري رومانسي، مستقى من لفائف التاريخ لتحفيز العسكر؛ إذ إن الطقسَ العاصف كما أخبرني الحكيم (نوفيو) المحترم، ينثر غباره وزوابعه المضطربة الشدة هذه طوال العام، وعلى مدار قرون من بعد الخراب. في هذه المنطقة على الأقل من القارة العظمى.

ثم مع ابتعاد الأناشيد القوية، في منطقة الصرح الإمبراطورية الشاسعة المخططة، تركنا التل تمامًا، وبدأت الطرق أسفله تضيق، والبيوت تكثر، والزحام يتزايد، بينما نمر بقلب المدينة الشعبي المكدس بالباعة والحوانيت، في ما بدا كأنه سوق ضخم يعج بالبازارات والحوانيت، وقد رأيت فيه ما أثار دهشتي عدة مرات؛ فهذا حاوي من (أكرادار) جنوب شرق الأراضي النحاسية، يخرج عينيه من مقلتيه ثم يعيدهما ثانية ببساطة، بعد أن يتلاعب بهما في الهواء، وهذا بائع لنبات حي يتلوى ويصدر عنه حفيف وأزيز وهمسات، قيل لي إنه مجتث مما يسمى بأشجار القدر، وتلك امرأة رشيقة جدًا عارية تمامًا من (إبريسم)، تمارس عرضًا رياضيًا معقدًا، أمام دار تغص بالفتيات المبتذلات الضاحكات، وهؤلاء تجار ضخام من (ريجسوز)، بأرديتهم الحمراء الضيقة، يحيطون بقفص عملاق، بداخله مخلوق مرعب يزأر ويعوي، له جسد ثور عادي ورأس أسد ولسان حرباء، ويتموج فراؤه بألوان متعاقبة جنونية بلا توقف، يطلق عليه في شبه جزيرة القواقع اسم (بدنة مويراس)، ولم تصدق أذني أن هذا الوحش الهجين، يربى في مدن القواقع كآكل للحشرات! وغيرها من الحوانيت العجيبة، والمنتجات الغريبة، والزيوت والأطعمة الغامضة، والمخلوقات المثيرة، القادمة من أقصى أصقاع القارة. ولقد توقف المغاوير لابتياع خفاش غريب من مكان خاص بالعسكر، وضموه لقفص خشبي معهم يحوي ثلاثة خفافيش أخرى، وعندما سألت عن هذه المخلوقات المثيرة لقشعريرة (لويزت) ـ وربما لقشعريرتي أيضًا ـ قال لي أحدهم:

ـ إنها خفافيش الفاكهة المدربة، وهي نوع نادر جدًا وباهظ، تقتنيه السلالات القوية لتوصيل الرسائل بسرعة، غير هذا يعتمد راسل البريد على السعاة البحارة، أو ركاب البغال.

تعلقت عيناي للحظات بأذني الثديي الكريه العملاقتين وابتسامته البشرية الثابتة، وقبل أن أبدأ بمقارنته بالحمام الزاجل في عالمنا، استرعى حشد معين انتباهي أكثر عندما استأنفنا التحرك نحو الجنوب، وقد كان عدد من الفقراء يحيطون فيه برجل مهيب، وعندما توقفت أستمع لبعض عباراته سارع المغوار الثاني بتحذيري منه، لأنه يعتمد على حسن البيان في اكتساب أتباعه، ووجدته يحرض باللسان الأوريومي على نبذ الأفعال والعادات الحالية، مقابل الحرص على الأفعال الطيبة والتي كانت في عصر (الأخلاق) وانقرضت، وكان المغوارُ يرى أن هذا جنون مطبق. لأن الناس لن تتخلى عن المتع بهذه البساطة، في عالم خرب، كئيب بطبعه.

ـ ومن يكون؟

ـ إنه (لاترو الخاشع).

ويبدو أن الخطيبَ المفوهُ قد سمع اسمه، فالتفت إلى المغوار قاطعًا حديثه إلى جمهوره الذي كان يتزايدُ أمام أعيننا، ثم دقق فيّ أنا حتى اضطربت، وأشار صوبي قائلاً بالهيروليغية (أي العربية المتكسرة):

ـ تقدم يا شقيقي. تقدم ولا تلتفت قبل بكاء (خارميل).

طار صواب جمهوره مع تفوهه بالكلمات العربية، رغم عدم فهم مخلوق لها، وإنما كان تهيجهم لتعرفهم أنها لغة السادة الأسلاف المنقرضة، وانعقد حاجبا المغوار في غضب وتوتر، وبصر (لاترو) يشخص في السماء كالمغيبين أو دراويش الأزهر والسيدة، قائلاً بنفس اللغة:

ـ إن عقولنا الصاغية أحطاب، جمعتها قوة أسمى منها، لتستدفئ في ساعة سحر بليل بارد طويل. لتصيخ لها السمع. تأتنس بها. بطقطقاتها. طقطقتها أفكارها، وشراراتها أفعالها.

سارع قائد جيش العقارب بجذبي بالقوة كي نبتعد، حتى إن الطربوشَ كاد يسقط في الوحل، بينما الخاشع يعود ليحدق في عيون مريديه، مكررًا العبارة الأخيرة، بلغة (أوريوم) العمومية.

سألتني (لويزت) بسرعة:

ـ لقد تحدث بلغتك أليس كذلك؟

ـ نعم يا عزيزتي. ولكني لم أفهم حرفًا على الرغم من هذا!

وقال المغوار الثاني مستريبًا:

ـ لقد سمعت لفظة (خارميل)!

ـ أعندك تفسير لهذا؟!

ـ ليس بالضبط. توجد نبوءة تؤمن بها السلالات في كل الأسوار تقريبًا تقول: «سيتفتت خارميل. وستبدأ الأيام الشريرة مع العاصفة الثانية». ولكن نشأتي العسكرية لا تميل للاستفاضة في خزعبلات الفلاحين. كيف يتفتت قمر (خارميل) وهو بهذا البهاء وهذا الثبات الأزلي؟ وماذا عن القمر الآخر (وازميل)؟ مجرد خرافات غير ملحقة بدليل دامغ.

قالها وهو يشير لقمر انزوى في السماء وجعله ضوء النهار شاحبًا، ولكن حدوده أظهرته ضخمًا قريبًا ذي لون وردي، لم تفلح الغيوم في إخفائه تمامًا، أما القمر الآخر فلم يكُ ظاهرًا كـ(خارميل) البدر، والذي بدت سلاسل الجبال فوقه مرئية بالعين المجردة. ولكن ملامحه كانت تسفر في وضوح عن قلق من هذا الخطيب، قلق وعدم ثقة عميقين؛ ورحت أتساءل طويلاً عن

معنى ما قال هذا الخاشع، ولكن على الرغم مني غاص تفكيري في تلك المفاجأة الأولى التي لم أروها بعد، والتي كانت سببُ مجيئي إلى هذا العالم.

مجيئي المتعمد.

لقد تذكرت شيئًا مما قبل وصولي مباشرة، ولكني لن آتي على ذكره إلا في سياق ما أتذكره بالتدريج عما مر بي من خطوب في عالمي المعمور، هذا أكثر تنظيمًا وأدعى على عدم التشتت، ومتسق مع ذاكرتي، المفصولة بفجوة ترتق ببطء. هنالك أيامي في العالم المعمور، وهنا أيامي في العالم الخرب.

لم يختطفني أحد، ولم يتم إحضاري إلى هنا قسرًا.

ولكن الوقت يضيق.

هدف حضوري وخوضي لكل هذه الأهوال مهدد بالفقد، وعليّ أن أتوقف عن التفكر في (ملك جهان) وأمرها، لحساب التفكير في أمري أنا وما أنا مقدم عليه. وفي كيفية جمع من تبقى من فريقي غير المتجانس.

إنني الآن معي المغوار وعقاربه، والجني البحري، والرضيعة، ومؤانستي (لويزت) بحبها الذكي للمغامرة، ويتبقى حصولنا على عون العملاق.

لقد أكد (نوفيو) أن حربًا قبيحة ستبدأ قريبًا في هذا العالم. كل المؤشرات ونبوءات ما قبل النهاية، تفيد باستعدادات عسكرية ستشعل القارة، وهو قد عاصر قرن (السلام) الذي أعقب الخراب العام، وحروب التسعمئة عام أو نزاع (4101 ن)، وغيرها من الحروب والثورات المذكورة في كتاب (تاريخ الأعمال الحربية)، الذي يحفظه القادة والملوك عن ظهر قلب؛ ويعرف جيدًا أن الحربَ العامة قد اقترب أوانها، وأن رحلتنا لن يكتب لها النجاح، لو عبرت وسط المتقاتلين، ولن ينقذنا من نشوب أية معارك مفاجئة في طريقنا إلا العملاق، أو بتسمية أخرى الزنجي.

وهم جنس من البشر، كان يسكن بأحجام طبيعية وبشرة داكنة حول جبل (الصهريج) في شرق القارة، ومع حدوث الكارثة منذ مئات السنين تضخمت أحجامهم؛ بسبب انتشار نوع من الطاقة حول الجبل الناري، وصار العملاق الواحد منهم ماردًا بحجم أطول مسلة مصرية، وما زال المغاوير أفضل صيادي العالم الخرب، يبيعونهم الجلود المستخرجة من طرائدهم.

ولكن قبل الحصول على عون أحد هؤلاء الزنوج، كان علينا استشارة الكونت (تي كواريو) عظيم قلعة (الغيلان)، تمامًا حسب خط السير الذي رسمه الأسير المحترم. لن ينضم لعضوية جماعتنا العجيبة، ولكن استبصاره لا يقل عن حكمة السيد (نوفيو) أهمية. فالكونت متنبئ، ولكن لا أحد يريد أن يعرف نبوءاته لسبب مجهول.

ورغم أنني قد سألت عن معظم ما لم يخبرني به (نوفيو) المحترم، في فترة السجن، فإنني لم أتذكر سؤاله، عن سبب عدم رغبة الناس، في السعي لمعرفة نبوءاته، فسألت المغوار، بينما أمسح عيني من أثر الغبار:

ـ ولكن لماذا؟! في عالمي يبذل الجميع ما في وسعهم، للحصول على نبوءات العرّافين، من الفلاحين للملوك، حتى ولو كانت عبر الدجالين والأدعياء.

ـ الكونت لا يعرف النصب والاحتيال، ونبوءاته لا شية فيها، ولكن لا أحد يريد أن تلتهمه غيلان القلعة.

قال أحد المغاوير المرافقين متهكمًا:

ـ لا يوجد شيء اسمه الغيلان، إلا في مخيلة أطفال (ليمير)، وأساطير الشعب الأزرق. وإلا فأنا أمتلك بدوري قلعة للرجال الذئاب، والمغوار السادس يمتلك قلعة لبنات آوى، والمغوار العشرون قلعة لرجال النجوم، والمغوار الثامن عشر قلعة نتنة للأفاعي الطائرة!

وانطلقت ضحكاته وقد فجر ضحكات بقية المغاوير بسرده لهذه المخلوقات الخيالية لديهم، بينما تعجبت للحظة من تهكم المغوار على قائد جيشه، قبل أن أفهم بسرعة أنه يتهكم على الأسطورة فحسب. ووسط الزوابع الترابية التي تملأ كل متر في طريقنا، والتي بدت متنوعة الأحجام ثابتة أبدًا، شردت في ذكر (بنات آوى) تحديدًا، وقد ذكرني دون قصد، بأن تلك اللعنة النفسية، لم تبرز منذ وجدت نفسي في هذا العالم الخرب، كما لو أن مهيجها لم يعد باستطاعته رصدي، وبثها في جنبات كياني؛ بينما اكتفى المغوارُ الثاني بابتسامة، وهو يلحظ شرودي، وباللسان الأوريومي الذي صرت فقيهًا فيه، بعد تجربة (نوفيو) الحكيم، قال الجني بصوته العميق، المخيف، تعليقًا على الحوار المنقضي:

ـ سنختبر الشجاعة في مكانها.

صمت المغاوير الأربعة في احترام، وعلق المغوار الثاني:

ـ (آيميريوس هيميريوس) على حق.

ـ (المُحاجي) على حق.

هكذا علق أحد الأربعة:

ـ سلالة (الملتمع) كلها تعرف أكثر من الجميع.

وأيضًا علق آخر. قاصدًا السلالة الحاكمة للجن البحري في عاصمة ملكهم (المتناوحة). لقد حفظت الكثير مما أخبرني به (نوفيو) عن السلالات التسع، المسيطرة على أهم المناطق المعمورة من أطراف (أوريوم) وأسوارها. هناك بالطبع قلاع وبلدات وبنادر كثيرة، بعضها موال لإحدى السلالات التسع، لكن البعضَ الآخر مستقل مثل المدن التجارية الخمس، وتشترك جميعها في عدم امتلاكها لجيوش نظامية. إضافة إلى معلومات عن العمالقة والضواري والبرابرة، وقبائل الحرب، والشعب الأزرق المشتت، والعملات النقدية كـ(القرش الذهبي)، بل وحتى بعض الحصون الصغيرة والقلاع المنفردة، وأبرزها قلعة الغيلان، التي سنكتشف بأنفسنا حقيقة اسمها، وآمل في الواقع ألا تحتوي على غيلان حقيقية، حتى وإن كنت أجهل شكل الغيلان الحقيقية! ففي كل زمان ومكان يجهل الناس عادة ما يخيف فعلاً. وأنا رغم موهبتي السوداء، أخاف وأصاب بالذعر كبقية البشر، وقد يقتلني الرعب أو الجوع والعطش، والأسوأ نفسيًا أن يقضي رفاقي حتفهم، دون أن أتمكن من إنقاذهم أجمعين.

عبرنا الأسوار السبعة العريضة جدًا والمبني بداخلها عنابر الجنود، وغرف القادة الميدانيين، وقدرت طبقًا لسمك هذه الأسوار، أن أعدادَ ساكنيها تتجاوز عدد سكان (الإسكندرية)! الحلاليف مثل معظم السلالات التسع، تحميهم أسوار متعاقبة، قريبة، هائلة الاتساع، تكفي أحجارها لصد جيوش من البرابرة وقبائل الحرب، بل وحتى جيوش الأسوار الأخرى النظامية الأرقى تدريبًا. سلالات نادرة تختلف أساليبها. سلالة (الملتمع) لديها مدينتان، واحدة في قاع المحيط النيميروسي،

لا يمكن أن يغزوها بشر ولا حتى العمالقة، وثانية برية مقامة على منحدرات جبال (الريح) الرأسية، وسط عواصف قاسية. الضواري يحتمون بثلوجهم المخيفة، حيث يمكن لعضة الثلج هناك، أن تجمد قزحيتك فتصاب بالعمى. بعض الأسوار لها دفاع مزدوج من الأحجار والطبيعة، فبالإضافة لأسوار (الأيمة)، هناك خارجها مستنقعات (الرغام) على مد البصر، والتي لم يعبرها جيش، منذ تكونت عقب دمار المدينة الجبارة القديمة (هيروليغا). أما الحماية الثلاثية الأشهر فتوجد حيث أسوار (ليسيا)، إذ إن الأحجار مبنية بداخل نظام كهفي هائل أسفل نهر (الدموع)، تضرب صواعق البرق الأرض والنهر وخليج (العذراء الفارعة) فوقه ليل بعد نهار. أسوار، وكهوف ذات متاهات، وفي الأعلى صواعق بلا حدود؛ لهذا تتألق سطور حرب (الأنفاق) في كتاب (تاريخ الأعمال الحربية)، بحروف من الدم المتأين، والتي شنتها الحورية (تيموت الأسطورية) في الحرب الخوانية الفنارية الرابعة منذ ما يزيد على السبعة قرون، شاهدة على صعوبة سحق هذه الأسوار العنيدة، التي تحميها صواعق الآلهة كما يؤمن الأرضيون. وهكذا تتعدد أنواع الحماية والحراسة والتحصن، حسب طبيعة كل أسوار وشعب وبيئة.

وبينما نبتعد أكثر وأكثر عن الأسوار، صوب الحقول والمناجم الخارجية المحيطة، متقدمين جهة الجنوب، وبدون أن نزيد من سرعة الجياد الفائقة بعد، لمحنا في الغرب وعن يميننا خطًا حديديًا بدا لي خياليًا في هذا العالم الفاقد لحضارته، وفوقه ينطلق بابور، بسرعة تفوق المستوى الأول من سرعة الجياد بقليل، كان له مقطورة عظيمة، لم تبد لأعيننا بوضوح من هذه المسافة، لكن الحجم الهائل لسحابة البخار، المتدفقة من قمتها، وشت بضخامتها. أشار له المغوار الثاني في بعض الحقد:

ـ إنه (الأعجوبة). آخر معالم الحضارة الهيروليغية البائدة، وهو ينقل للسادة استخراجاتهم من الفحم والنحاس، وبقية المعادن في الأراضي النحاسية الشاسعة. وحق (الملوك الخمسة) لا يحسد العقارب هؤلاء السادة على شيء أكثر من (الأعجوبة). درة الغرب الأزرق.

كانوا يطلقون على الجهات أسماء ألوان، فالشمال أسود، والجنوب أحمر، والشرق أصفر. ولكني سألته:

ـ وماذا عن القوة؟

ـ إنهم وحق (الثور البدين) أقوى الجيوش قاطبة، لكن الصيدَ الفردي علمنا نحن المغاوير، أن القوةَ لا تعتمد على الكثرة.

ثم التقط قوسه من وراء ظهره، ودس في وتره الشديد أحد السهام الطويلة، وأطلقه على شيء بعيد لم تلتقطه عيناي، وبصفير خافت انطلق السهم، وبعد تقدمنا مسافة لا تقل عن ثلاثين مترًا، جذب سيور جواده فتروى في خطواته بصهيل قصير، ثم أشار إلى الأرض، فرأيت السهم منغرس في حيوان ضئيل يشبه الجربوع، فارتفعت حواجبنا أنا ورفيقتي بدهشة من دقته المذهلة، وعلق هو بفخر وهو يلوح بقوسه:

ـ المحارب الحقيقي هو القناص لا المجالد. وأقوى المحاربين هم المغاوير.

ـ ثَمَّ كاتب في عالمي يدعى (توليستوي). أتذكر أنه قال مخالفًا إياك: «أقوى من كل المحاربين هذين الاثنين: الوقت والصبر».

ـ هراء وخطل. إننا نخلد أكثر مع مرور الوقت، وينعكس مجد الأسلاف على الأحياء منا، فنصير أكثر صلابة ومهابة ورعبًا، في نفوس البشر والجن والضواري، حتى الرخ العظيم نجح

المغوار المؤسس في ذبحه. أي أننا قتلنا الآلهة نفسها.
ـ أصدق (توليستوي) أكثر. والأيام ستثبت لك أن كلماته ليست بالهذر.
ـ سنرى.
وفجأة اضطربت الجياد معًا في آن موقفة مشادتنا الفكرية، وأعقب اضطرابها انهيار أرضي مفاجئ في رقعة زراعية أمامنا بالضبط، كان يحرث فيها عِجْل أحمر هائل، فوقه فلاح سمين، حتى إننا جذبنا أعنة الخيول لنرجع إلى الخلف، خشية السقوط في الحافة القريبة جدًا، ودام الأمر لثوان ثلاث فقط وسط صراخ المزارع، وقد ساد فيهم دوي وقرقعة مخيفين في باطن الحقل، مع سحابة من الغبار ارتفعت لأعلى من الأعماق، وقد خسفت الأرض بالفلاح وعجله في قعر شق عميق مظلم، تلاشى فيه خوار العجل وصراخ الرجل، وراحا يبتعدان وكأنما وصلا للجانب الآخر من العالم.
وقبل أن أتنفس الصعداء عادت الجياد للاضطراب، وصرخت الخفافيش بأصواتها الرفيعة التي أثارت هلع (لويزت)، فاتسعت عيناي في رعب، متوقعًا انهيار التربة أسفل منا هذه المرة، ولكن ما حدث أسفلنا بالضبط كان هديرًا عميقًا، وارتجاجًا شعرنا معه أن الأرضَ كلها تهتز كالأرجوحة، لعدد من الثوان ربما جاوز الخمس، دارت فيها عيناي وصرخت (لويزت) بشدة.
والحمد للـه الرؤوف الرحيم. كانت التربة أسفلنا متماسكة ولم تهبط بنا، وإنما كان زلزال تراقص له الكون قليلاً، وابتلعت لعابي متسائلاً:
ـ هل. هل يمكننا أن ننجو من هزات الأراضي النحاسية؟
أجابني المغوار الثاني، وهو يبتسم ابتسامة بدت كأغرب رد فعل ممكن:
ـ بالطبع. بمزيد من السرعة.
وربط جسده بجواده، ثم لوى عنانه وانطلق بمرح باد، بالسرعة الكبرى، كأنما تمنحه المخاطر نشوة مرجوة، وخلفه الجني والمغاوير وقد جعلتهم السرعة ينطلقون كالسهام، بينما جففت (لويزت) دمعة كادت تفر من عينها، وتظاهرت بدورها بالجذل لتتغلب على خوفها:
ـ هيا يا (مافوز). لقد بدأ هؤلاء المغاوير يروقون لي حقًا.
وغمزت لي وسط سخطي وحنقي، ثم ربطت نفسها ولكزت بطن جوادها لتسرع في أعقابهم، وجززت على أسناني للحظات بينما أفعل المثل، ثم جذبت لجام حصاني بعنف، فأطلق صهيلاً معترضًا، وانطلق خلفهم وهو يشاركني الغضب تقريبًا، والرياح تضرب وجهينا بعنف، مع السرعة الهائلة.
كان علينا مواصلة رحلة (العاشق 404)، الذي ترد له حبيبته غيرتها عليه من الأميرة (فلاديوسا) بطريقتها الخاصة.
العاشق حامل السماور الفضي.
* * *

مصر الفتاة

ـ «هيك هتصير أفغاني آخر»
أكتوبر 1869 وادي النيل

صبي في الثانية عشرة من عمره لكن طوله الفارع يجعله كما لو أنه في العشرين، يغادر سفينة الركاب بمفرده، أمام دهشة الكبار ومسؤولي الميناء، كلما استعلموا عن سنه الحقيقية.

وهذا الصبي هو أنا.

(محفوظ محفوظ النحاس) الذي رأى السودانيين والمكسيكيين والفرنسيين، ثم ترك قلبه معلقًا في مقر إقامة وصيفة الإمبراطور (ماكسيميليان)، السيدة النبيلة، التي التأم شملها بشمل ابنتها، بعد سنوات من النزق والحب والمغامرة.

لم أكن أعلم عنوان أمي في (الإسكندرية)، وكان آخرُ ما أملك يكفي بالكاد لعودتي إلى (المحروسة)، وبما أن (الإسكندرية) موجودة ولن تضرب بالمدافع مثلاً، فلأعودن إليها بعد حين. أم أنها قد تُضرب؟!

وفي رحاب صاحبة الديوان، حيث أزقة (الناصرية) الدافئة، ارتميت بدوري في حضن والدي الأسطى (محفوظ). بينما أبدأ رحلتي المحفوفة بالأخطار في عالم آخر، أتذكر الآن جيدًا ما بعد هذه العودة إلى تراب بلادي.

كان راقدًا، بلا مرض ظاهر. حزينًا على حبيبته القديمة الراحلة، متفكرًا فيها وفي أحوالها، ورغم أن رجوعي وهبه فرحًا مستطيرًا، أعاده صحيحًا، وسط دهشة الحاج (راضي) وأسرته، التي صارت أسرة والدي كذلك، وساعدته على التصدي مؤقتًا لتذكر الأموات. فإن أبي لم يعد ذلك المقاتل القديم، الذي طالما حلمت ببطولته، بكثرة صمته وتجهمه، وتفضيله رحلات التبييض البعيدة منفردًا، لأيام وليال طويلة في قرى الفلاحين، عن البقاء في (الناصرية) أو (النحاسين)؛ أما إذا رجع فكان يعتزلُ الناس في حجرته الخشبية، التي أجرها مكان صديق قديم له، ويعتكف بها وحيدًا شاردًا.

حكيت له كل شيء، باستثناء ذلك التحول المرير الذي يجري لرأسي، وكان قد علم بأمر تجنيدي من العم (إدريس) بريديًا، فكان أحد أسباب غمه الشديد، وكربه المقيم، لكن عودتي المفاجئة هدأت خواطره كثيرًا. بقي فقط توقعه بقاء حبيبته القديمة على قيد الحياة، هو ما يقلقني على اتساق ذهنه، وهو ما كان يسعدني وقتها ـ قلقي هذا ـ كتفكير ناضج يسبق عمري الحقيقي، أن أقلق على أبي لا العكس، وكنت عندما أذكره بأمي يتوقف قليلاً عن معضلة التركية الراحلة.

ذات عصر نادر، بقى فيه بين المشغولات النحاسية العتيقة، ولم يتخذ من الأسفار أنيسًا، لم أجده في الورشة نفسها، وأخبرني (محمد راضي) أنه يصلي في مسجد السلطان (فرج بن برقوق)، هنا في (النحاسين)، دخلت المسجد مارًا بصفائح النحاس المزخرفة، التي تكسو مصراعيه، وبحثت بعيني عنه في صحن المسجد، حول الفسقية التي تعلوها قبة محمولة على أعمدة رخامية. كان يؤمن أن صحون المساجد موطن المغفرة، التي تتنزل بعد دعاء الخلق، الذي ترفعه المآذن مجمعًا، وتوجهه بدقة للسماوات السبع. ثم تفقدت عيناي الإيوانات الأربعة التي تحيط بالصحن، حتى وجدته عند أكبرها، وهو إيوان القبلة، كان يسبّح في هدوء أسفل سقف الإيوان، المنقوش بالألوان الذهبية المتجانسة، فاخترقت نسائم الرحمات النازلة، المضمخة بالبخور الهندي، تخطو أقدامي فوق الرخام الملون المشكل، وجلست إلى جواره ببطء، ولطف:

ـ إيه رأيك نزور أمي في (إسكندرية)؟!

ـ وماله.

ـ يعني موافق؟!

- وماله. ميضرش.
- إمتى؟!
- قريب. فرجه قريب.
- قصدك البكالوريا دي اللي كلمتني عنها؟!
- فيه غيرها يا ابني؟!
- يعني بعد البكالوريا؟!
- وماله. ضروري نروح. خليها تطمن على تربيتك، كفاية نايبتي بتجنيدك. ضروري يحصل.

لم أقتنع في ذاك العصر بالحجة، وأنا ما زلت بعيدًا عن قراره المستقبلي بتعليمي، ولكني رضيت مكرهًا، خشية أن يؤدي عنادي الصبياني، لانتكاسة خطيرة تؤثر على عقله. وفي محاولاتي اليائسة لرفع معنوياته، حتى يستأنف الحياة الطبيعية، ذكرته بما علّمني قديمًا من تاريخ وحساب وكيمياء وجغرافيا، وأبديت تشوُّقي للمزيد، ومن واقع المسؤولية، سعى عبر معارفه لإلحاقي العاجل بالتعليم الأساسي، حتى يعوض تقصيره في حقي، وأخبرني أنه سينفق عليّ حتى أصبح أفوكاتو كبيرًا، أدافع عن حقوق المستضعفين والمظلومين، وما أكثرهم في هذا البلد المنهك.

ظلت المدرسة مبهمة بالنسبة لي، ثم التحقت بـ (المبتديان)، مواصلاً كوني الولد الفريد، الذي لا تطاله (الفلقة) أو عصي المدرسين، حيث كانت لي صولات وجولات في الحفظ والاستظهار، إذ كان ما حصلت عليه من أبي، والذي حصل عليه بدوره من والده، يفوق ما يدرسونه في المدرسة، وكان نجاحي بتفوق متوقع في أي امتحان.

* * *

سبتمبر 1874 وادي النيل

السبعينات في هذا القرن لهي عهد عصيب، ومبشر بنذر سوداء.

(بروسيا) هزمت (فرانسا) سنة 71، وأقامت الاتحاد الألماني.

رجل اسمه (داروين) أثبت بالعلم أن الإنسانَ والقرد لهما أصل واحد! قال إن القردَ قد تطور وارتقى، كي أصبح أنا وتصبح أنت وتصبحين أنتِ، ولكنه لم يخبرنا شيئًا عن تخلف القرود والسعادين المتنوعة، الموجودة الآن على أشجار الأدغال، وأسباب عدم ترقيها المعتبرة.

وكانت مشاعر أصحابي تتراوح بين قمة الدهشة، وهو فريق الاحترام والأمل، وقمم السخرية والهذر، وهو فريق الواقعية والعبث، وذلك عندما أشاركهم قبس من علومي القديمة، أو ثقافتي الحديثة، المرفقة باهتمامي بما يدور في العالم الخارجي. وقد اتخذت خليلاً لي من الفريق الأول بالتأكيد، وهو (خليل سويف القط) الذي يتميز بالأدب الجم، وهي الخصلة الوحيدة التي أعشقها في أي رجل في هذا العالم القاسي الخرب. وكان يشاركني حتى حلم الالتحاق بمدرسة (الإدارة والألسن) أي الحقوق، ويجيد مثلي الفرنسية والتركية، بسبب انتمائه لأسرة كبيرة من ملاك الطين والقطن، وكانت له جدة شركسية يحبها كثيرًا.

صارت أواصر صداقتنا متينة، مضبوطة، كالساعة السويسرية. حتى إنه كان يشاركني الاستذكار قبل امتحان (البكالوريا)، الذي اقترب أخيرًا. ويجمعنا الحديث الحماسي عن الجمعية الجديدة، التي اشترك فيها شقيقه الأكبر (خيري سويف القط)، وحذره مرارًا من ذكر مجرد اسمها،

وهي جمعية (حلوان)، ولكنه سارّني به، بعد أن تحصّل مني على أغلظ قسم بكتم الأمر، وأننا قريبًا سنحصل على البكالوريا، وننضم إلى فتيان السياسة الكبار بدورينا.

تعلق كل شيء في حياتي بالبكالوريا.

أعترف أن جزءًا كبيرًا من الصبيانية اعترت حماسنا، خاصة في جذله هو، من فكرة مطاردة الخديوي لنا، لمنعنا من انتقاده، ولكن الأمر بالنسبة لي، كان يغلب عليه طابع جدي خطير، في لحظات التأمل والحسابات، واستيعاب أكبر للموقف السياسي للبلد كلها، وتدهور أوضاعنا الاقتصادية الذي يلوح في الأفق، مع كل هذه الاستدانة والتدخلات الأوروباوية. فضلا عن أنني كنت قد وضعت يدي على ثاني خيوط تفسير علتي المريرة، عندما قمت بزيارة الشيخ (زاهر الدمشقي)، المتصوف الشامي الذي ذكره لي الدرويش بالاسم، في تلك الرؤيا ببلاد الفرنساوية، فلم تجد إليّ الصبيانية سبيلاً.

ولكن الدرويش لم يذكر لي حرفًا عن مكان الشيخ (زاهر) بالتحديد، هكذا بدأت بتكايا الفقراء وزوايا الصوفيين، ولكن بدا أنني أبحث عن إبرة في كوم هائل من قش الأرز، وكلما اقترب امتحان البكالوريا وحتمية انشغالي به عن كل ما عداه، ازداد اكتئابي وهمي وتوتري، حتى دلني أحد الفقراء على أن الشيخَ الدمشقي يزور سيدي (ابراهيم). قالها وولّى. ولم أكن بحاجة لذكاء كبير كي أعرف أنه يتعين عليّ السفر إلى (دسوق)، حيث ضريح سيدي (إبراهيم الدسوقي) رضي اللـه عنه، وفي البلدة الريفية الجميلة، قابلت بالفعل الشيخ (زاهر) وسط كوكبة من مريديه وتلامذته، جالسين جميعًا في ركن هادئ من المسجد المزدحم، يرتدون الأخضر، مرددين (يا دايم)، في ذكر لم يقطعه إلا مثولي بين يديه.

جلست في إرهاق بسبب السفر الذي انتهى بي في البلدة صباحًا، وقد جئت الجامع قبل أن أتناول بعض الفطور حتى، والتقطت من حلتي مسبحتي الكهرمانية التي أسمتيها (الإدريسية)، والتي أمست صاحبتي منذ منحها لي العم (إدريس) صبحه اللـه بالخير، وقلدتهم منتظرًا انتهاءهم قريبًا. كان الصداعُ يشمل رأسي المكدودَ، فلم أخشع في ذكري. بينما أتطلع إلى يدي وهي تقلب الحبّات. جرّني توارد الخواطر إلى اكتشاف أن باطنَ يدي يشبه باطن يد أمي، وظاهرها يشبه ظاهر يد أبي تمامًا، وأن هذا لا علاقة له بقردة (داروين)! وفجأة أوقف الشيخ (زاهر) ترنمه وتسبيحه متطلعًا نحوي في برود، وهو يرفع راحته لمريديه حتى يتوقفوا بدورهم، ونظر لي بعينين أثارتا وجلي، قائلاً للمرة الأولى:

ـ كلما عرجت إلى السماء ساد الصمت، تصمت الطبيعة ويتلاشى صوت المخلوقين ولا يبقى غير ذكر اللـه. وأنت لا تكتفي بادعاء الذكر فقط بل أيضا تحضر هذا الشيء معك!

وقبل أن أقول حرف ذائدًا به عن نفسي أو مستغفرًا، أو شارحًا لسبب شرودي، باغتني:

ـ ألا تخزى من لقائنا بهذه الظلمة في داخلك؟

كنت أسمع الكثير عن كرامات الأولياء ووجود الأقطاب والنقباء، لكن كل احتكاكي كان مع روح الدرويش، الذي احتجت لفترة كي يقنعني والدي أن اللـه قد نقله إلى دار كرامته منذ زمن، وأنني لا ألتقي به حيًا ماديًا. أما أن أعاين هذا من رجل حي يرزق بشحمه ولحمه، وأتعامل معه مباشرة وجها لوجه، فقد كانت المرة الأولى. فتلجّم لساني من فوره وعلى نحوٍ مؤلم، كأنه مصاب بالشلل والخرس. كان الشعورُ رهيبًا، كأنني أريد الاستغاثة بداخل حلم ولكن لساني لا يطاوعني، وقد توتر شبحي الأسود وكأنه يعاني من قوى خفية ما:

ـ الرفق الرفق أيها الفتى. أنا أيضًا قابلت ظلمة نفسي قديمًا. حتى منّ اللـه علي بجلاء، وشفيت من هذا البلاء.

ـ ولكن. يا مولانا. أنا. كيف عرفت. أعني أي بلاء؟ هل تقصد. ما. جئت أسألك عنه؟

ـ كشفًا كُشفت فأراك. ومكرًا تفعل يا ولد، فكُف قبل الكَف!

وارتعد مريدوه وقد فهموا ما يعنيه. كان التهديدُ رفيع المستوى، لم يعهدوه في شيخهم من قبل قط، إذ رفع كفه عاليًا محذرًا بصفعي في الحال، وعندما تكهرب موقفي، تبرع أحد التلاميذ بالشرح لي في رهبة:

ـ إن الشيخَ (زاهر) يستخدم مصطلحات القوم. و(المكر) عندنا هو إظهار الآيات بلا أدب أو حدود، وإبراز النعم مع المخالفة. أي أنك أظهرت (كرامة) نعجز نحن عن مشاهدتها، فالكشف حدث له وعرف حقيقتك تمامًا.

ـ ولكن هذا ما فاض به الكيل فجئت كي أجد له حلاً ومعنى. لقد أرشدني درويش راحل عنك بالاسم يا مولانا، وقد بحثت عنك طويلاً في المحروسة، فدلني أحد الصوفية عليك هنا. إن بي أمرين كلاهما أمرّ من الآخر، فالأول هو..

ـ الأول هو ما رأيته. ولو رأيتموه كما أراه لجننتم. ولكني الآن أعرف أنه ليس بكرامة. إن والدكَ الذي يعمل خزافًا أو نحاسًا قد حذرك من كشف أمرك، لأنه ليس مجرد كرامة. ولذا فلينفض المجلس، وليبق بمفرده. فإن لديه ما يشيب لهوله الوليد.

تراجعوا بعيدًا بما يكفي لعدم التقاط أي حديث، بينما أشار لي فاقتربت بذهول مما قاله. وقد أيقنت أن ما أخبر عنه لهو (الكشف) كما يسميه المتصوفة، وهو مشاهدة غيبيات الأكوان بإذن إلهي. لقد رأى ظلّي المحتجب في أعماقي، وعلم بوصية أبي وطبيعة طائفته وصنعته، ولكنه علم أيضًا أن الأمرَ معقدٌ بما يكفي. بتعب ومرارة شرعت أفسّر:

ـ إن الأولَ هو ما رأيت بلا نقصان. ولكن ما ينقذك، قد يكون أهون عليك مما يثير جنونك وتقززك، خاصة عندما يتحول دماغك لدماغ كلب أو بن آوي. قد لا أتخلص من اللعنة، ولكن يقيني أنني كلما أحطت بالأمر، لحددت بهذا مصابي وطرائق التخلص منه، وقد علمت في بلاد الإفرنج يا مولانا أن لديهم من يكون له رأس ذئب. ولكنها قصص قديمة وقد يختلط فيها شيء بالأساطير، وما دلني الدرويش على مولانا غفر اللـه له إلا لشيء ذي دلالة، وهو أن تفسيرًا دينيًا قد أتعلمه على يديك. فهل في الدين الحنيف شيء يشبه هذا؟ هل توجد شواهد ما لرجال برؤوس كلاب؟

لزم الصمت وهو يفكر دقائق، ثم قال لي بهدوء:

ـ (وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) يا ولدي، هذه قاعدة إيمانية عامة، أما ما تسأل عنه فقد كان عاديًا في زمن ذي القرنين، موجودًا بين المخلوقات، وفي الحديث الشريف الذي يصف رحلته الملحمية: أنه (.. وجد قوما وجوههم وجوه الكلاب يقاتلون يأجوج ومأجوج ثم قطعهم، فوجد أمة قصارًا يقاتلون القوم الذين وجوههم وجوه الكلاب، ووجد أمة من الغرانيق يقاتلون القوم القصار..) لذا فلا شك أن هؤلاء القوم من سلالة (قابيل)، وُجدوا يومًا بهيئتهم المسخية. برؤوس ثعالب وكلاب وذئاب وبنات آوي. ولكن ما بك قد يكون مرجعه شيء آخر، وقد تضطر للجوء لرجال العلم الوضعي، لا الإلهي.

شملني الذهول والرعب مع كلمات الحديث الشريف، إذ كنت حتى اللحظة الأخيرة أحاول في أثناء ذهني عن التفكير في جدية الموضوع، وأنها مجرد خيالات وهلوسات وأساطير. وأشار هو في بساطة للتلاميذ فعادوا لسيرتهم الأولى يذكرون (الدايم).

نهضت بتثاقل وانسحبت مفكرًا في الأمر.

لم أخبر أبي من قبل بهذه الأوهام التي تقترب من الحقيقة المخيفة الآن، ولا أظن أنه يعرف شيئًا عن الأمر وإلا فإنه كان سيصارحني، وسيدربني على مقاومة هذه اللعنة، كما دربني قديمًا على ترويض الحماية الدخانية؛ كما أنني خشيت أن أزيد الطين بلة فتسوء حالته النفسية أكثر، خاصة بعدما سبق أن طلب مني أن أسامحه، في شعور واضح بتأنيب الضمير عما حدث لي في طفولتي الحافلة. هل لهذه اللعنة علاقة بالحماية السوداء؟ أنا لم أواجه السحرة الشياطين. تلك الآلهة المزيفة التي جابهها أبي في رونق شبابه. والتي سحقها إلا كبيرهم لعل عبادهم يثوبون إلى رشدهم، ويعرفون أنها مجرد أصنام لا تضر ولا تنفع. لذا بدا لي وقتها أن العلاقةَ بعيدةٌ تمامًا.

ولكني انصعت لنصيحة الدمشقي.

تتبعت المسار وهبطت درجة من العلم الإلهي للعلم البشري، وتوصلت لخريج المهندسخانة السيد (أمين سامي)، الذي صار مؤرخًا قديرًا فيما بعد وعمل بدار المحفوظات المصرية، وزرته في المدرسة التي كانت بالقلعة السعيدية، وكان مما أخبرني به:

ـ من دون شك قدس المصريون القدماء مخلوقًا له جسم بشري ورأس بن آوي، وكان اسمه (إنبو) وأطلق عليه اليونانيون (أنوبيس)، وأدمجوه مع إلههم (هرمس) مرشد الأرواح.

كلما بحثت ازدادت الحقيقة ضراوة، وروحي قتامة.

وعبر أبي راسلت الدومنجي باشي السابق (أحمد نظمت)، الذي كان أقرب القيادات لأبي ورفاقه على (جولييت الصاعقة)، رغم أصوله التركية، وعندما تذكر الرجل أبي أشاد به في رسالة الرد المفصلة، وتناوله بالخير، وسمح بلقائي وسؤالي العجيب، والذي لم يثر في نفسه الغرابة على الإطلاق، كما لو أن العالمَ كله يعرف بهذه الأمم ما عداي؛ وفي ميناء (بولاق) عندما كان قادمًا من (الإسكندرية) في مهمة عمل كما ضرب لي الموعد في رسالته، أخبرني في أثناء اللقاء السريع، ومن واقع مصادره العثمانية التي درسها في البحرية، والتي ظلت محفورة جيدًا في ذهنه، بعد تسريحه عقب حرب (القرم)، وعمله كقبطان مدني على مركب لتصدير القطن المصري:

ـ منذ قرابة ثلاثة قرون، عاش القبطان العثماني الرائد الأميرال (أحمد محيي الدين بيري)، الشهير في أوروبة بـ(بارباروسا)، وبين الأتراك بـ(بيري رئيس)، ولقد اكتشف الأمريكتين قبل (كولومبس)، وقدم الجغرافي العلامة خرائط مبهرة للسلطان (سليم الأول)، ثم قدم مؤلفه الشامل (كتاب البحرية) للسلطان (سليمان القانوني)، وهي من الأسرار التركية الرسمية الرفيعة؛ سوف يهمك منها اكتشافه سنة 1517 لجنسين من المخلوقات، كانت تحيا في شمال قارة جنوب أمريكا، الأول مسالم لا رؤوس له فوق كتفيه، ووظائف الوجه كلها موجودة في موضع الصدر، وقام الإسبان بمطاردته وإبادته بحجة أنهم من أكلة البشر، فلن تجد اليوم منه دستة رجال مكتملة، وذكرهم العلامة (القزويني)، أما الجنس الثاني فكان بشريًا بالكامل، لكن رؤوسه رؤوس الثعالب والكلاب، تمت إبادته في قلب الأحراش المظلمة.

كان الأمرُ كفيلاً بإدارة رأس أعتى العلماء صرامة. فما أمر به شبح لطراز حقيقي غابر من البشر، أو أشباه البشر، جنس له مشاهدات ودلائل كثيبة في الحضارات الفرعونية والإسلامية والغربية، وليس مجرد واحدة من حكايا ألف ليلة وليلة. لكن لماذا يداهمني؟ لقد عرفت إجابة (ماذا؟) والآن عليّ التحقق من الأهم وهو سؤال (لماذا؟). هل أنا سليل أحد هذه الأجناس البائسة البائدة؟ لا تبدو فكرة لامعة، أو بعيدة عن الامتعاض والقنوط، وفي نفس الوقت لا يبدو الأمر مجرد هلوسة. على (لاسين) سمع (عبد اللـه سودان) الزمجرات الحيوانية التي لا تصدر من حلق بشري، والهلوسة لا يراها الآخرون أو يسمعونها. كانت طفولتي حائلاً أمام العقل والمنطق، والآن أنا من البلوغ والمسؤولية بما يجبرني على التفكر والتدبر ومواصلة البحث، أنا من النضوج حتى إنني سأخوض امتحانات البكالوريا خلال أيام قليلة، في المدرسة الخديوية.

ورغم الأسى، والإصرار على حل اللغز، الذي تسبب في تعقيده نسياني التام لكلمات الدرويش على النقالة الفرنسية، بعد كل هذه السنوات، إلا أنني نجحت في امتحان البكالوريا. كنت أحارب حتى أحصل على أعلى الدرجات، كما لو أنني أفعل هذا من أجل أمي وحدها، فلم أنسَ قط وعد أبي لي، بعد رجوعي من طوافي حول العالم، بزيارتها، مهما سببت له الزيارة من ألم واشتعال لعذاب الماضي وذكراه، وتقدمت بعد النجاح لمدرسة الإدارة والألسن، وقُبلت على الفور، وفي غمرة فرحتي وفرحة أبي أجلت طلب زيارتنا لأمي. كان يقول لي وعيناه تغرورقان بالدمع:

ـ الآن عوضت رغبة (شمس الدين برقوق) رحمه اللـه، والتي لم يمهله القدر كي يحققها.

وعندما تساءلت عن صاحب الاسم، أخبرني بما تيسر وقتها عن (المملوك الأخير) كما كان يلقبه، وصارحني بأنه يجد ثقلاً متزايدًا في يده ولسانه، وأنه قد يضطر لأن يمليني مذكراته إملاءً، فأعرف عن (شمس) وغير (شمس).

* * *

نوفمبر 1879 وادي النيل

عالميًا وبالتزامن مع تولي السلطان (عبد الحميد الثاني) الحكم سنة 76، يرسل (إسماعيل) قوات مصرية أخرى لأوروبة لمساعدة السلطان في حربه ضد الصرب، ثم تتجدد الحرب العثمانية الروسية سنة 77 فيرسل المزيد من القوات المصرية، وعلى رأسها ابنه (حسن باشا) ناظر الجهادية. عودة الروس ـ (صقالبة الشمال) كما أطلق عليهم العرب القدامى ـ ذكّرت أبي بحرب الشرق التي خاضها، بادئًا معها في منتصف هذا القرن عذاب حبه، وفقده للنبيلة التركية، تلك السيدة الغامضة بالنسبة لي، والتي تنازع مشاعر الاحترام تجاهها مشاعر الغيرة والضيق، فحتى الآن ما زالت تحتل في قلب أبي حبًا يفوق حبه لأمي، بل إنه تزوج أمي معتقدًا أنها (ملك جهان)، كما عرفت من مذكراته التي يمليها عليّ.

ومحليًا ـ سنة 76 ـ كانت بعثة (Cave) تصل المحروسة لتسلم الإدارة المصرية للشدق الإنجليزي، الأكثر شراهة من توربين (لاسين)، وفي نفس العام ينشأ صندوق الدَين المشؤوم. التاج البريطاني لجلالتها يحكم سيطرته تدريجيًا على خيرنا وحريتنا، فمرحبا بكم يا سادة في معمعة المرحلة الاستعمارية.

انضممت أخيرًا لاتحاد فتيان مصر، أو جمعية (مصر الفتاة) السرية، حيث كانت تخلو من الأتراك والشراكسة بعكس جمعية (حلوان)، وهو ما فضلها عليها عندي، ووظفت إجادتي للفرنسية

تمامًا، لمساعدة المحرر في ترجمة القسم الفرنساوي إلى العربية، لأن جريدة الجمعية كانت تصدر من (الإسكندرية) بالعربي والفرنساوي بعد خلع (إسماعيل)، وأظهرت في أحاديثي منذ البداية ميلاً لانتقاد الخديوي، مطالبا إياه بأن يكون خادمًا لرعيته، وبأن يتحلى النواب بحرية الرأي للتعبير عن مطالب الشعب بدون خوف، ورغم أن بقيةَ الأعضاء كانوا يؤيدون عزل (إسماعيل)، فإنهم لم يظهروا جرأة في انتقاد ذات الخديوي التي لا تمس، رغم أنهم انتقدوا كل شيء عدا هذه الذات، من مظاهر الاستدانة والتبعية وسوء الإدارة، لذا فقد منعوني من هذا الميل الآن، على الأقل في عهده هذا، وتوقعوا أنني سأصبح مناضلاً عظيمًا في المستقبل وليس مجرد مساعد مترجم، أو كما قال لي أحد الممولين الشوام، مثيرًا بين جوانحي الفخر العميم:

ـ هيك هتصير أفغاني آخر.

كانت الأشهر الستة الماضية حافلة، وكنت شديد التأييد لأفكار (الأفغاني) الأساسية، مع بقية الأعضاء الكبار ومسؤولي الجمعية مثل (أديب إسحق) و(سليم نقاش) و(نقولا توما) من أرباب الأقلام، وكذلك (عبد اللـه النديم)، الذي لم يستمر طويلاً معنا، بسبب سرية أدائنا المتناقضة مع جسارته المعروفة، رغم أننا قمنا بأنشطة علنية كثيرة، مثل لائحة الإصلاح التي قدمناها للخديوي، وإن أخبرني (أديب إسحق) محرر جريدتنا ذات مرة، أن السببَ الحقيقي لانفصال (النديم) هو سيطرة غير المسلمين على الجمعية، ولم أفهم علاقة هذا المباشرة بتوجهنا السياسي الساعي لخير عموم المصريين. وتتلخص أفكار (الأفغاني) وأهدافه في إنشاء حزب وطني، ومقاومة الاستبداد، وتدعيم الشورَوية (الشورى)، وبث الغيرة الوطنية، وإحياء اللغة العربية، وتعليم المرأة، وكان سبيلنا في هذا السعي لإنشاء قاعات الخطابة، بدلا من الخطابة في المساجد والمقاهي والمسارح، وكذلك بتأسيس الصحف الحرة.

أهم ممولي جمعيتنا كانوا من الشوام واليهود الشرقيين، وقد ساهم الشوام النازحين إلى (مصر)، في تأسيس جمعيات سياسية وأدبية وفنية شهيرة، وتأسيس عدد كبير من الصحف، قام عليها الوعي الجماهيري المصري بحقوقه، ولكن أحدهم كان موالِيًا لجماعة (إسماعيل) مما جعله ضد أهدافنا. قال لي (خليل سويف) في توتر في أثناء إحدى جلساتنا:

ـ هذا الجاسوس يزود مؤيدي الحكومة من الأعيان بمعلومات، يتهموننا فيها بأن وجود الشبان الإسرائيليين بيننا، مثير للريبة والشك في دوافعنا، فضلاً عن انضمام (الأفغاني) للمحفل الماسوني، المدعوم من (إنجلترة).

ـ ولكني لا أجد غضاضة في وجود اليهود؛ فهم مصريون يطالبون بالحرية والشوروية، حتى لو كانوا يتعاملون مع المستوطنين الأجانب أكثر من الوطنيين، كما أن انضمامَ (الأفغاني) المؤقت للماسونية، مردود عليه بأن الأمير (توفيق) نفسه ماسوني، لا سيما أن الماسونيين لا علاقة لهم بالسياسة، ولا يطالبون بعزل خديوي أو تولية آخر.

وبينما نفكر في محاولة خروجنا من العمل السري للشارع، انتهي عهد (إسماعيل) هذا العام بفرمان عزله، واعتلى ابنه مسند الأريكة الخديوية، وقد سمي بـ (توفيق الأول) لأنه أول (توفيق) يصادف الأسرة العلوية، وهو الابن الذي هب وهبت معه الأزمة الاقتصادية العالمية الشهيرة. وخرجنا بجريدتنا للعلن أخيرًا استبشارًا بتغيير الحاكم، وقد جعلناها أسبوعية تحت شعار «البحث عن حقوق كل إنسان فاكر». كنا نروم حفظ الحقوق الوطنية وكف يد الأجنبي عن استباحة حق الوطن المهضوم، ساعين وراء ضالتنا المنشودة وهي أن تكون «مصر للمصريين»، فنوثق عرى

الألفة بين أبناء الوطن الواحد، بما لهم من حقوق المواطنة، وما عليهم من واجبات، مسلمين ومسيحيين ويهود، مصري بالميلاد ومصري مهاجر أو وافد، فالمصري حسب مفهوم الجمعية: كل عثماني مولود في أرض (مصر)، أو مقيم بها منذ ثلاث سنوات على الأقل، بدون أدنى تمييز بين الأجناس والمذاهب.

وكانت (لائحة الإصلاح) هذه قد قدمناها للخديوي (توفيق) بمجرد توليته، مطالبين منه بوعي سياسي إصلاحي متطور، الاهتمام بالحقوق السياسية والمبادئ الدستورية، وحرية الفرد والصحافة، ومطالب خاصة بالتعليم، وأعتقد أنها في مضمونها وفائدتها أهم من جريدتنا نفسها، فقد شملت أولاً التبصير بسوء أحوال البلاد لا سيما في الريف، حيث يعاني الفلاحين من ظلم فادح، بسبب انحطاط إدارة حكومات (إسماعيل)، وفساد القضاة، وانتشار الفقر المدقع، حتى صاروا كما يقول المثل الفرنسي: «أفقر من فأر الكنيسة»، وثانيًا بيان أسباب شقاء البلاد والعباد، وعلى رأس هذه الأسباب اجتماع السلطة في يد فرد واحد، وغياب القانون الأساسي (الدستور)، وفساد أسلوب تحصيل الأموال، وثالثًا وأخيرًا حثت اللائحة على تطبيق حلولنا المقترحة لعلاج هذا الخلل، مثل تفريق السلطة على أكثر من جهة، والفصل بين السلطة الإجرائية والقانونية والقضائية، وتكوين مجلسين للنواب والشيوخ لمساءلة النظار أو الوزراء، وهذا الذكر العابر للفصول الثلاثة مختصر بشدة عما جاء في أصل اللائحة. وهذا جزء صغير من مقدمتها فقط:

«(التقدمة)

إلى جلالة الأمير المفخم توفيق باشا

خديو مصر المعظم

مولاي

إن اللـه سبحانه وتعالى حقق آمال مصر، إذ رأت زمام أحكامها بيد أمير فتى، فإن عمر الشباب من بين الأعمار هو أحسنها قبولاً لمبادئ العدل والاستقامة والحرية، تتعادل به القوة المادية مع القوة الفكرية المعنوية، فتتحدان وتتساعدان على مقاومة الشر، وإزالة الشقاء، وجلب الخير، ولا يحول دونهما ما يناقض هذه العواطف الخيرية القادرة على إصلاح أظهَر البلاد اختلالاً وإنقاذ أسوئها حالاً.. إلخ»

لكن (الأفغاني) ـ الذي تشرفت بالحوار معه مرتين ـ و(إبراهيم اللقاني) وبقية تيار المثقفين، لم يلبثوا أن رفعوا من حدة نقدهم للخديو الجديد، حتى خيل للقارئ أن الحكومةَ متقمصة جسد إنسان منخطف اللون، بادي النحول والذعر، من أثر مطارق نقدنا ومخالب تعريتنا لمظاهر فشلها وخيانتها للأمانة، والمتبدية بالخصوص مع توسيع سيطرة الرقيبين الماليين الإنجليزاوي والفرنساوي.

كان زمن النضال بالخطابة، وكانت الخطابة والكتابة سلاحين لا قبل لحاكم بهما.

وبعد شهرين فقط من تولية (توفيق)، غدر بالتيار كله، مستخدمًا سلاح الطرد، ونفي (الأفغاني) العظيم منذ شهرين في منتصف صيف ملتهب إلى بلاد (الهند).

في عسف فوري من (رياض باشا) عطلت صحيفة (مصر)، وصحيفة (التجارة) التي كنا ننشر فيها مقالاتنا، بعد حصار جريدتنا ومنعها منتصف هذا الشهر، وكذلك صحيفة (مرآة الشرق). كما نفي بعض من الفتيان بدعوى أنهم من أتباع الأمير (حليم)، منافس الخديوي (إسماعيل) السابق على وراثة العرش والمقيم في الخارج؛ ولم تهتدِ اليّ الحكمدارية بسبب عدم ذكر اسمي في أي

مناسبة للجمعية، باعتباري مساعد مترجم لا أكثر، أو هكذا خيل لي معطيًا لنفسي قيمة نضالية ما، بينما هبط إيقاع الشبان الباقين السياسي شيئًا فشيئًا، كما تستكين موجة عارمة على شاطئ منبسط.

سافر (أديب إسحق) محرر جريدتنا وجريدتا (مصر) و(التجارة) إلى (فرانسا) بعد إلغاء صحفه، وسوف يصدر من (باريس) جريدة أخرى اسمها (مصر القاهرة).

هل مات النضال بموت جمعيتنا؟ أم أننا طليعة يقظة ستأتي بالمزيد من بطن الأيام.

كان أبي في نفس الوقت يملي عليّ أجزاءً كبيرة من مذكراته، ثم مرت أسابيع وقد دخل مرحلة صوم تدريجية عن الكلام، تفاقمت حالته النفسانية رغم طول رحلاته البعيدة لتبييض النحاس.

ورغم لوعتي بهذا التدهور حد تمني تنفيذ أي رغبة له كي تعود له السعادة، فإنه لم يكن هناك من سبيل لإخفاء حنقي كذلك بسبب صمته هذا؛ فعنوان أمي كان مجهولاً بالنسبة لي، وكذلك نسيه الأسطى (مختار) بعد كل هذه السنوات، وإن حاول صدقًا أن يقنعني أنه في منطقة قريبة من مسجد (الأباصيري)، وطبعا لم أكن لأجازف بالسفر والبحث وسط البيوت بلا طائل، مع نفقاتي المحدودة التي تصلني من دخل الورشة، والتي تكفي تعليمي العالي وانتقالي بالكاد. ولم يجدِ حث أبي على الكلام أو حتى كتابة العنوان فتيلاً. كان قد دخل مرحلة يأس تنذر بموته كمدًا في أي لحظة، وكنت أدفعه دفعًا للسفر ومواصلة العمل، خوفًا من أن يعود لرقاده الغامض السابق، الذي كان الحاج (راضي) يخشاه بشدة، حتى إن بعض الفلاحين كانوا يعتقدون أنه نحّاس أخرس.

وكان الخرس مع الحركة أفضل عندي من الرقود والتيبس.

لم أفقد تواصلي بالبوستة مع (لويزت)، التي استغلت اشتياق أهلها لها لإقناعهم بالارتباط بي مستقبلاً. وكان أحدث وآخر ما أرسلته لي هذا العام، وقد وصل بطرد خاص فور ترجمته، كتاب روسي ممتع، استمرت قراءتي له مدة شهر كامل بسبب حجمه الضخم مقارنة بأويقات فراغي المحدودة ومع سرعتي الكبيرة في القراءة، وكان رواية للكاتب (توليستوي) اسمها (الحرب والسلْم). نافذة مفتوحة المصاريع على حياة الروس في القرن المنصرم، ومطلع القرن الحالي التاسع عشر.

كان من الرائع استمرار الدعم الأدبي والثقافي لروحي المتطلعة، واستمرار التواصل مع الحبيبة، التي انتخبها لي القدر، منذ الطفولة الأليمة والغربة القديمة.

* * *

الولوج الأول

- «إن الكشف كان ثمينًا كالفلفل»

العاصمة البرتغالية - 915 هـ

لم يعرف (حسين الكردي) أن صديقه في (لشبونة)، ولم يعرف أيضًا أن موضوعَ الجاسوس كان تغطيةً، وأن الفرنجيَ الذي كان يدعى (ألفونسوا كابرال)، لم يكن خصمًا لـ(ابن النحاس) بل هدفًا صديقًا، وكانت خطورة الكشف الذي وقع عليه في أرض البرتغاليين، هي ما أطالت المراسلات بين العالمين حتى يقوم بحثهما المشترك على الثقة التامة، وعندما وصل (ابن النحاس) لمقر (ألفونسوا) لم يصدق عينيه.

ففي حصن سري داخل حصن آخر مبني تحت الأرض، لحفظ ثروات الملك (عمانويل) الشخصية من الأحجار الكريمة، والعاج، والأسلحة، والسجاد العجمي، والحرير الصيني، رأى

الرجل أكثر من مئة عالم وحكيم وخيميائي وفيلسوف من شتى بقاع المعمورة، كلهم عقول مفكرة مثله مخلصة للعلم فقط بعيدًا عن التعصب الديني أو الأممي، وكلهم مثله، تواصل معهم (ألفونسوا) حتى يستثمر عبقرياتهم لإتمام هبة سحرة (أنون)، تلك الهبة التي خانهم (ألفونسوا) ـ وكان واحدًا من سدنتهم ـ ليمنح ثمارها للملك، مستمتعًا بحمايته منهم في الوقت نفسه.

وتحت نظام أمني شامل، سيطر (ألفونسوا) على (العقول) كما ينعتهم، وكانوا هم مسرورين بأنهم معتقلين، إذ توافرت لهم كل سبل الراحة لإتمام بحثهم، وذلك لإتمام (المعبر)، أو البوابة بين عالمنا وعالم (أنون) كما أطلق عليه، وهي تسمية غير صحيحة، لأن (أنون) نفسه لا يُعرف عالمه الأصلي، وكان كل دوره أن منح علومه منذ آلاف السنين للسحرة الزوار، الذين استقروا في عالمنا عندما وجدوا أن طولَ يومهم يساوي هنا مئة عام تقريبًا، أي أن أعمارهم هنا ستصير شبه خالدة.

وبهرت عينا (ابن النحاس) عندما وقعتا على (المعبر)، وأدرك أن رحلته المحفوفة بالخطر والتضحية، كانت إجراءً حكيمًا للغاية من أجل استكشاف هذا الكنز العلمي.

كان المعبرُ يتوسط قاعة (البيضة)، وهي غرفة ضخمة مخصوصة مبطنة بالنحاس والرصاص في قلب الحصن، والطريق الوحيد لها عبارة عن أنبوب ضيق يزحف الداخل عبره ثم يغلقه بكوة فولاذية عملاقة من ورائه، وعندما رآه للوهلة الأولى صعق من الدهشة، إذ شاهد كرة ضخمة من أشعة البرق تحلق في جو القاعة على ارتفاع متر أو أقل، وقد أحيطت بمئات من الأحجار المشعة الغريبة، المغروسة في الأرض والجدران المقعرة وقبة السقف، ولكن المفاجأة كانت عندما أخبروه أن المعبرَ بداخل الكرة، وأنها ليست إلا غلافًا خارجيًا بسبب إشعاعه الأشبه بوميض الشموس، وعليه أن يعبر الكرة بداخل رداء خشبي خاص، حتى يرى ما يطل عليه المعبر، وعندها ارتدى القميص الخشبي الضخم، الأشبه بتابوت ينغلق من الجانبين، ولكنه محفور على هيئة بشرية، وربطت ساقيه بدعامات خشبية ونسيجية عديدة أكثر متانة، تعوق الحركة بشكل كبير، ثم خطا ببطء عبر الكرة الوامضة، ولكنه أصيب فجأة برجفة كرجفات الموت، وصرخ في ألم، وسقط أرضًا شاعرًا بأنها النهاية.

ولكنها كانت فقط المرة الأولى، وعندما نهض وجد أنه أمام كرة أخرى معلقة، أصغر كثيرًا، تشكل نواة لباطن كرة الغلاف، وتتصل معه أحيانًا بخيوط برقية عشوائية، وتنقل له على سطحها المحدب رؤى طيفية من منظور فوقي وارتفاع شاهق. مناظر كثيرة التغير والتبدل، سريعة، لمناطق ومدن غريبة لم ير لها مثلاً، تتبدى له داخل الكرة.

وتكررت مشاهد متفرقة لأجزاء من مدينة عملاقة بعينها، أطلقوا عليها (لشبونة الجديدة).

في المرات التالية تعلم المرور بسرعة أكبر عبر الغلاف الذي يطلق عليه (غلاف البروق)، ولكن الصعقات كانت تصيبه أيضًا بالآلام المبرحة.

كانت هناك أصوات متداخلة مخيفة لبشر، تصدر من الكرة كلما توقف المنظر على (لشبونة الجديدة)، أحيانًا كالكلام الهادئ وأحيانًا أخرى كالنداء، ولكنها كانت بلغة غريبة غير مفهومة لأي من العقول المنتمين لكل اللغات الشهيرة. أما المناطق الأخرى فلم يترافق مع ظهورها أي صوت. أحد الأماكن كان حارًا، كبركان هائل، فأطلقوا عليه لتمييزه اسم (الهند الثانية). مكان ثالث كان كهضبة خضراء جميلة، سمي (جنة عدن الأخرى). وهكذا.

ولكن في كل مرة كانت تخلب لبه المشاهد التي كانت تلوحُ سريعة كالحلم، وكان يتعاون مع العلماء الذين لا يكفون عن زياراتهم، حتى تكون الآلام قد انتهت؛ لرسم خرائط بصرية لما يرونه

من هذا العالم الآخر، ولكن كل جهودهم انصبت على كيفية المرور والعودة بسلام من هذا العالم. وطالت الأبحاث. وكان الأمرُ معقدًا جدًا.

لكن هذه الأحجار الصغيرة المشعة هي ما شغلت (ابن النحاس) أكثر، فعمل على دراستها، وأصدر نظرية تفيد بأنها مسؤولة عن تقوية (المعبر)، وأن ربما توزيعها بشكل معين وليس بهذا الترتيب العشوائي سيحدد نقطة الوصول، وأسفرت أبحاثه عن تقدم مفاجئ لجهود علماء الحصن تجاه هذه البوابة العجيبة، إذ إنه مع كل تبديل كانت سرعة تواتر المناظر تتغير، وكانت مسألة وقت حتى يتوصلوا للترتيب الهندسي الأمثل من أجل إبطاء ومن ثم تثبيت المنظر. وكان (ألفونسوا) يعلم أن السحرةَ الأغراب يجوبون العالم بقدراتهم الفائقة بحثًا عنه، بعد أن سرق الأحجار وسرهم القديم؛ لذا فقد كان كل أمله أن يتوصلوا لكل ما يخص هذه البوابة، قبل أن يتوصل لهم السحرة، المتشوقون حتمًا للانتقام وطمر سرهم مجددًا.

وتطورت نظرية (ابن النحاس)، حتى اكتشف أن الأحجارَ ما هي إلا آلات صغيرة، لها شكل خارجي كالحجر المشع، ولكنها من الداخل تحمل ما أطلق عليه (غرفة الفرن) و(المدفع)، بحيث تكثف الغرفة شعاع خفي من البرق، أسماه (الأثير)، ويطلق المدفع هذا الأثير للغلاف الخارجي من الآلة، فتشع قوة خاصة بالتعاون مع عشرات من أشعة (الأثير) غير المرئية، المنطلقة من الآلات الأخرى، ما يصنع حلقة في الفراغ بين عالمنا والعالم الآخر، وأن ترتيبها الأولي لم يراع توجيه المدفع، الذي حدد موضعه عند بروز غير ملحوظ، لكنه متشابه بأمثلته بكل حجر. وما زالت (غرفة الفرن) مجهول مصدر شعاعها، وإذا ما كان مؤقتًا أم دائمًا، وكذلك ما زالت أشياء كثيرة مجهولة، ككيفية صنع معبر من الجهة الأخرى، إذا ما حددت نقطة وصول ثابتة للعالم الغامض. ولكن المؤكد أن مجرد إبعاد حجر واحد عن قاعة (البيضة)، ولو لمتر فقط في المدخل الأنبوبي، كفيل باهتزاز المعبر بشكل خطير.

وكانوا قد أرسلوا أحدهم عبر المعبر في بداية بحث الاكتشاف، ولكن لم يرجع هذا أو يستفيدوا من إرساله شيء، فاستلزم هذا المزيد من الدراسات والنظريات، وعدم الدفع بعالم آخر قد يكون في دفعه هلاكه.

وفي أحد الحوارات، حاول (ابن النحاس) الذي كان يتعلم اللاتينية على التوازي، أن يسأل عن علم الملك بغاية هذا البحث وجدواه، ولكن (ألفونسوا) كان شديد التكتم، كجزء من شخصيته التي ساعدته على التحكم بهذا الكشف المذهل طوال سنتين كاملتين، وكانت الكوابيسُ تطارده، كلما فكر أنه ما زال هاربًا من السحرة الأغراب، وأنهم سيجدونه يومًا وسيكون انتقامهم رهيبًا، وفي نفس الحوار حاول (ابن النحاس) تغيير أسلوبه ومسعاه، مستغلاً شهرته بين الفريق المئوي بعد ما اكتشف، فسأله عن شيء مختلف:

ـ كيف آمن هؤلاء السحرة المذهلون لطبائع البشر، حتى إنهم لم يتحسبوا لخيانتك لهم؟ أعني تملصك من سيطرتهم.

ـ إنهم يسيطرون على معاونيهم عبر سرقة ذكرياتهم، ولا أعرف كيف يقومون بهذا الأمر، ولكنه يفلح بشدة. وما حدث لي باختصار، أن أحد كهنتهم البشريين لم تتم السيطرة على ذكرياته بشكل حقيقي، إذ للمرة الأولى في التاريخ خدعهم هذا الكاهن، وكان رجلٌ هندي يتلاعب بالعقول، ويمنح عقله قدرات غريبة، كأن ينومك مثلاً، أو يخدع بصرك ويطير في الجو كالحواة. أمور غريبة. ولكنها تسببت في مقتله. إذ أدرك السحرة أنهم لم يسيطروا عليه كما اعتقدوا، وكان هو

يطيعهم كما نفعل نحن بالضبط، ولكنه كان يقوم بتجربة عليّ لاستكشاف كيفية سيطرتهم على العقول، فمنحتني جسارته شيئًا من هويتي، عرفه منهم، أو من البحث عن تاريخي، وذلك قبل أن يقبضوا عليه ويقتلوه دون أي ذنب، وبرغم طاعته التامة لهم، والسبب المجرد أنه يطيعهم بإرادته وليس رغمًا عن إرادته.

ـ ثم؟

ـ اعتقدوا أنهم سيطروا على الموقف، وصارت اختياراتهم أكثر قسوة حتى يمكنهم استثناء البشر ذوي القدرات المخية الخاصة، ولكنهم لم يعرفوا بما حدث لي أنا من تحرر قبل هذا التشديد الأمني. وسرًا رحت أتظاهر بالخضوع الأتم، حتى أستعيد المزيد عن نفسي، وعن ماهية هؤلاء القوم، حتى قررت ذات يوم وضع خطة معقدة للفرار، والاحتماء بالقدرات الحربية للإمبراطورية البرتغالية، ولم يكن من سبيل أمامي سوى إقناع الملك شخصيًا حتى يحميني، ولم يكن من طريق لإقناعه إلا بتقديم شيء عجيب وغريب من أشياء السحرة، وكانوا يخشون العودة إلى عالمهم لكنهم يحتفظون بآلاف من الأحجار (الآلات)، لفتح المعبر وإرسال رسائل لبني قومهم. وسرقت بعضها. عدد بعينه كفيل بفتح الحد الأدنى من البوابة، لو انتقص واحدًا لكانت العاقبة غير مأمونة.

واستطعت فتح البوابة عن طريق تجميعها في مكان أملس الجدران، يشبه المكان الذي شاهدتهم يفتحون معبرهم فيه، وبعمل بعض الإجراءات الأخرى. المحاكاة التامة حتى ولو بدون فهم كامل لطريقة العمل، أعانتني على فتح البوابة.

ـ وماذا ظن الملك؟ كيف اقتنع رغم أنه عالم آخر لا نفقه عنه شيئًا؟

ـ كفاك يا (ابن النحاس). كن كبقية العقول الإخوة.

ـ أقسم لك إنني في نفس المركب. كيف سأضرك وكلنا هنا كالأسرى. بالطبع ليس ذلك النوع من الأسر بل هو أسر لذيذ، يخدم كل أحلامي الخاصة بالعوالم العلوية والروحانية والسحر. هيا. سيكون سؤالي الأخير.

ـ سأصدقك أيها المصري الفضولي. إن الكشفَ كان ثمينًا كالفلفل. أنت تعرف ذلك المثل الأوروباوي عن تفوق أسعار التوابل على الأحجار الكريمة، بسبب مرورها من (المليبار) عبر التجار العرب والمصريين، ثم البنادقة، وهو ما يضخم من سعرها كثيرًا، وكان هذا بالتأكيد قبل عثورنا على طريق (الرجاء الصالح). ولكن المثل أرسل في ذهني إشارة، وهي موطن جنة (عدن) التي يرسمها جغرافيونا في الشرق، والتي هي بدورها ثمينة كالفلفل، غالية لدى كل أتباع المسيح، عالية، لم يجدها المغامرين والمستكشفين حتى اليوم، وأعتقد أنها أسطورة.

ـ فأخبرته أن المعبرَ يوصل إلى جنة (عدن). مستقر الراحة، وينبوع الحكمة.

ـ بالضبط. الملك كان صبورًا، وكان يعمل للأجيال الصليبية القادمة، وبعد أن انبهر لمجرد رؤيته غلاف الصواعق، وجد أن حمايتنا ضرورة، كسرّ لا يفضي إليه كاشف، وذلك لإتمام المعبر، ما سيمنح الأحفاد قدرة أكبر على توسيع الإمبراطورية، وجعلها الأثمن والأعظم والأكثر مجدًا، ولن يضيره هذا الانتظار بضع سنوات.

وأدرك (ابن النحاس) أن الكلَ يلعبُ لصالحه الشخصي.

وكما خدع (ألفونسوا) السحرة ثم الملك، خدعه (ابن النحاس) الذي تعلم منه الكثير.

كان يعمل على أن يكون على رأس المرشحين للانتقال التالي إلى عالم (أنون)، مع تيقنه من اقترابهم للتوصل إلى تثبيت نقطة الوصول، وهو ما لم يعمل السحرة الأغراب أنفسهم على

الاهتمام بالتوصل إليه بجدية، خوفًا من أن يتسبب هذا في انهيار نفوذ عالمهم الجديد فوق أرضنا، وتدفق الهيروليغيون عليهم من أرضهم الأم. وعندما ثبّت علماء الحصن نقطة الوصول أول مرة وكانت بالقرب من (لشبونة الجديدة)، تفجر احتفالهم وحبورهم، وأثمرت جهود (ابن النحاس) أن يكون أول المستكشفين، ثم إنهم انتخبوا اثنين آخرين من العقول المئة.

وهكذا بدأ الولوج الأول.

* * *

فصم العرى

- «يا بنات جوا المدينة»

يوليو 1882 وادي النيل

في السنة الماضية وقع حدث جلل في حي (قناطر السباع)، إذ أمر الخديوي (توفيق) بهدم جامع (السيدة زينب)، الذي كنت أصلي فيه صلاة الجمعة بانتظام شديد، وارتفع دوي المعاول أمام حزني، الذي لم يخفف من وقعه مقولة الحاج (راضي): رب ضارة نافعة، والنافعة عنده أن الهدمَ من أجل التوسعة وضم الرحاب التي حوله، ولكني لم أقنع وأنا أشاهد الأحجار القديمة الشريفة تسقط، والغبار يتناثر فوق صفحة مياه الخليج المصري[8]، واعتبرته فألاً سيئًا على البلادِ كلها.

أما في صيف هذا العام فقد تحرك لسان أبي، بعد صيام مؤسف طويل عن القول.

غمغم أول ما قال دعاءً بليغًا، زادني ولهًا بلغته الفصيحة:

- إلهي، إن أملي لا ينقطع فيك وإن خالفتك، كما أن رهبتي لا تزايلك وإن وافقتك.

ثم بعد فترة صمت قصيرة كتب العنوان أخيرًا في وريقة، وعاد لفراشه غير عابئ بإقبالي عليه، وتقبيلي ليديه، وتساؤلي عن تحسن حاله. فقط تمنى لي التوفيق من المولى الكريم، وتناول أوراقه، ثم راح يكتب ما حدث له في حياته الشاقة.

عاد للرقاد، لكن على الأقل منحني أنا حرية زيارة أمي. وكالعادة أوصيت الحاج (راضي) به قبل سفري، وإن كنت بغير حاجة لهذه التوصية، إذ إن الرجلَ يعتبرهُ أخاه الذي لم تنجبه أمه بالفعل.

كان الوضعُ خطيرًا في (الإسكندرية)، والناس تفر منها لا إليها، خاصة مع اقتراب الأسطول الإنجليزي عقب اشتعال الثورة العرابية العام الماضي، واستكمال العرابيين لمسار النضال، بالاستفادة من (لائحة الإصلاح) التي سبق أن قدمتها (مصر الفتاة)، ولكن هذا الخطر الذي تفر منه الناس، كان مدعاة للاقتراب لا الفرار، وللهفتي بشكل أكبر على تفقّد حال أمي وإبعادها عنه.

أمي (كاترينا) التي اهتاجني الشوق إليها. وهكذا تنقلت مجددًا بين العاصمتين المصريتين.

إذا كانت (مصر) القاهرة نموذجًا للصراع اليومي. إذا كانت رجلاً شرسًا يغوص بك في معتركه كلما لاقاك. فـ(الإسكندرية) لها جوهر صامت أكثر حنانًا. إذا كانت (مصر) كفًا غليظة لرجل عنيف، يحثك على السباق والتنافس، فـ(الإسكندرية) هي القفاز الناعم الذي يحتوي هذه الكف. هي المرأة التي تدعوك لتأملها والاسترسال في أكوان عينيها.

كان الاتجاهُ بين من تبقى من جمعيتنا، المطاردة بعنف من قبل الحاكم الجديد، هو أن الإنجليزَ لا أمان لهم، خاصة بعد تسللهم المالي لدواوين الحكومة ومنافذ الجمارك، ولكني كنت من فريق المتفائلين، الذين يعرفون أن (إسبانيا) و(اليونان) مثقلتين بالديون أكثر منا، ولكنهما غير مهددتين

بالاحتلال على الإطلاق، بل وحتى لو دخل الإنجليزُ بلادنا، كما فعلوا مطلع هذا القرن، ثم خرجوا وقتها مع جلاء الجيش الفرنسي، فهم سيكررون الأمر بنفس الطريقة بعد السيطرة على (عرابي باشا) وضمان عرش (توفيق)، ولو لم يتفرغ لهم العرابيون فالشعب سيفعل، كما سبق أن دحرناهم في (رشيد) ـ التي يسميها الخواجات (روزيتا) ـ أيام (محمد علي). لذا فكان عقلي يطمئنني مخادعًا وأنا في الطريق، أرمق مشاهد نزوح أهالي المدينة، البائسة، المثيرة للخطر، والمهيجة للأفكار، وقد فقدوا أمتعتهم وأموالهم، وهم في أسوأ حال، حتى إنني شاهدت آسفًا سيدة تجاوزت الخمسين من العمر لا ريب، تسير باكية ملطخة بكمية كثيفة من الوحل، وقد فعلت هذا لتداري عريها، وهذه مجرد لمحة صغيرة تعطيك فكرة عن حجم المأساة، والتهجير القسري المفاجئ للسكان، وقد تشردوا بلا مأوى، ونهب اللصوص دورهم. نحو مئة وخمسين ألفًا من السكان، يسيرون برعب عميق يحدق بهم الموت على شواطئ (المحمودية) صوب (دمنهور)، يستعملون عربات بلا عجل كمبيت، وتسقط بهم بعض العربات الخشبية البدائية الأخرى في الطريق. فقد بعض كبار السن عقولهم من الهول، وظهر هذا حين سمعت أحد الشيوخ النازحين، يغني لطفلته الباكية المذعورة، بلا اكتراث منه، المونولوج السكندري العامي:

«يا بنات إسكندرية. مشيكم على البحر غية
تلبسوا الكشمير بتلي. والشفايف سكرية
يا بنات جوا المدينة. عندكم أشياء ثمينة
تلبسوا الشاهي بلولي. والقلادة ع النهد زينة»

كانت المشاعر قوية، متضاربة، مصدومة في مجملها، لكني مررت على الفاجعة كالمغيبين. كان خوفي على أمي يغلب خوفي على (مصر) كلها، ولم أفكر أن الأمرَ غزوٌ واحتلال دائمان. وكانت حمايتي الجهنمية تثور في داخلي. أشعر بها كأنني قدرة ماء نحاسية، ترتج بلا توقف.

ومع دخولي المدينة صباح 11 يوليو بمساعدة بعض شباب جمعيتنا الإسكندرانيين والشوام، بدأ الضرب.

الأميرال السير (بوشامب سيمور) في سفينة القيادة (ألكساندرا)، يقود أسطولاً في مقدمته ثمان مدرعات كبيرة، لإرسال عروس المتوسط إلى مهاوي الموت، بعد أن تخلت عنا (فرانسا) مجددًا، وأطلقت يده وكوره المفرقعة.

السفن الإنجليزاوية هوت بقذائفها على طوابي المدينة، كطابية (رأس التين)، وطابية (الفنار)، وطابية (المكس)، وطابية (العجمي)، ودكتها دكًا، وسط مقاومة ضعيفة من مدافع (أرمسترونج) القديمة، الإنجليزية الأصل أيضًا، التي اعتبر الأميرال مجرد وجودها الدفاعي الكسيح، نوعًا من المغايرات الجسيمة، والمخالفات العظيمة؛ ثم لم تكتف بضرب الحصون والاستحكامات العسكرية، بل زادت في مداها القاتل، لتصل إلى مساكن وملاجئ ودور الوطنيين، وغير الوطنيين، إلى بيوت الإسكندرانيين التي هجرت معظمها، وتبقى في بعضها الآخر المرضى، والمكفوفون، والعجزة من الفقراء.

وسقط قلبي بين قدمي لهذه الزيادة والطغيان، وأنا أسرع وأعدو بشكل أكبر، وأكبر.

اضطر الفتيان لتركي عند هذه المرحلة، فهو شأن عائلي على أية حال، وليست مهمة للجمعية، ومنحني أحدهم ركوبة استعنت بها لطي الطريق. كلما اقتربت بحماري من العنوان كان الجزع

والهلع يتراجعان قليلاً، إذ إن تلك المنطقة لم تصلها القذائف الإنجليزية بعد.

ولكن الإنجليز لم يكتفوا بالضرب عن بعد. علمت بنزولهم الشوارع ظمئين للدماء، وقيامهم بعدد من المذابح لإرهاب الحكومة والجيش وبقية المدن؛ ورد الغوغاء باستهداف الأجانب والنصارى المقيمين بالمدينة انتقاما من الإنجليز، وكأنها فتنة وحرب عقائدية بحسب أميتهم المسكينة، فعاد الرعب يجتاحني بعنف أعظم.

(كاترينا) أمي، الكفيفة، القبطية. سلمها يا إلهي فهي بريئة مُحبة. لا تعرضها لهذا الانتقام العشوائي البشع. أبسكاكين مصرية إن لم يكن بقنابل إنجليزية؟! سلم يا رب في هذا اليوم الأنكد. سلم يا مغيث. يا للتعاسة!

وبالصدفة اعترضني أحد السوقة، وقد دفعه مجرد شكه في ديانتي، إلى الهجوم على حماري بهراوته، بدون أدنى تفاهُم.

عرفت فيما بعد، أن بعض أعيان المسلمين كانوا ينقذون الأجانب والمسيحيين المسالمين، ولكم كانت ستنمو دهشتهم عندما يدركون أنني حاولت الاستصراخ وأنا المسلم، ولكنه جنون الفتنة التي لا تبقي ولا تذر. كنت حتى آخر لحظة أريد سلامة المهاجم، ولكني كذلك كنت أريد سلامة حماري الذي يجري بي جريًا بتأثير مزدوج، ناتج عن حثي، وخوفه من أصوات القذائف والبارود في شوارع المدينة المنكوبة. وبغضب مفاجئ انبعث شرّي المخيف كبرق مظلم الألق، وقد تحكمت به بأقصى دقة ممكنة، فلم يشعر المغير إلا وذراعه يطير عاليًا، والهراوة تنفلت من بين أصابع الذراع المبتورة من الكتف، بعد أن ماتت أعصابها، وتسقط محدثة دويًا في الشارع المعبد المهجور، وأقعى الرجل أرضًا في شبه إغماءة من فرط الألم والرعب. وواصلت أنا طريقي أردد كلمة واحدة:

- أمي. أمي. أمي.

أشعرني غضبي الذي يندلع كلما برزت الحماية، بذلك الشر في أعماقها الدخانية البعيدة، وفكرت في غمرة شراستي وجبروتي أن القذائفَ لو مست أمي، فلن يكفيني مقابل رأسها، رؤوس الأميرال الإنجليزي، والخديوي المتقاعس، والمشير (درويش) باشا، و(إسماعيل راغب) رئيس النظار، وربما دماء الأسطول البريطاني كله كبساط أسفل هذه الرؤوس، ووضع هذه الأشلاء المذبوحة في منتصف سراي (رأس التين) الخديوية.

صادفت بعض الأعراب (البدو)، ولكنهم لم يأبهوا لي، إذ كانوا مشغولين بسرعة حرق ونهب المحال والحوانيت التي تركت شبه مفتوحة، حيث إن ما استغلق منها عليهم كانوا يحرقون أبوابه الخشبية، لصنع مدخل يسمح بالولوج.

وبصعوبة مع تغير معالم الشوارع وصلت للمكان المنشود، حيث حانوت عطور الحاج (رفاعي)، وهالني أن القصفَ وصل للمكان منذ دقائق وجيزة.

فالمبنى كله كان مائلاً بطريقة غريبة، مخيفة، سليمًا لكن مستندًا بزاوية ثمانين درجة على المبنى المجاور، والذي كان مسجدًا، تحطمت مئذنته بقذيفة ضالة.

وبدا كأن الكون كله قد توقف بالنسبة لي.

صوت موج البحر يصلني بشكل ما رغم المسافة، بينما لا أسمع القذائف التي لم تتوقف طيلة النهار.

أصعد المبنى المائل.

أدخل الطابق الثاني.
أعطي ظهري للشرفة.
ومن بعيد ورائي يبدو منظر أزرق عريض للبحر.
بينما كل شيء مائل في الداخل.
وأمامي امرأة تعطيني ظهرها.
الكون خلفية من بحر مائل بطيء الزمن.
لا ريب أن مشهدي كان رهيبًا بهذا الميل الذي صنعه المبنى كله، ومن خلفي زرقة البحر، وفي السماء كتل دخان الضرب السوداء، وأنا أمد يدي كي أمس كتفها.
التفتت.
تطلعت إليها بنظرة غريبة منكرة.
وفجأة عاد صوت القصف الطبيعي والانفجارات، وصخب العربان واللصوص في الخارج.
إنها ليست أمي، بل عجوز غابرة متجعدة الوجه.
أجابت سؤالي عن أمي والحاج (رفاعي) بصوت أبلاه الزمان، وقعقعه، وقد ذكرت أمر تلك (الشوطة) كما نطلق عليها بالعامية. ثم عرفت نفسها بأنها خالة (كاترينا)، وقد قررَت إذا ما كان على الموت أن يختطفها، أن تموت في محل ابنتها، تموت مع موت (الإسكندرية)، موطنها منذ الأزل.
وفي المحروسة قلت لأبي بما أخبرتني به العجوز:
ـ عظم اللـه أجرك في الحاج (رفاعي) وأمي، لقد ذهبا في الكوليرا، التي كانت على أيام (إسماعيل).
أدركت في صدمتي الصامتة حيلة المقادير، لقد استجاب اللـه لدعائي، ونجّا أمي من هذا اليوم الأسود. لأنه ببساطة دعاها إليه قبله بشهور وسنوات بلغت العقدين في (شوطة) الكوليرا.
لم أكن أعرف أن شيخ النحاسين المعمر الشيخ (القصبي)، قد طويت صحيفته في نفس اليوم الذي أبلغته فيه بالنبأ، وكان عليّ أن أراقب حالته النفسية بشكل أكبر، إذ إنه كان قد وصل لقاع اليأس، والرقود، والثبات، والموات، ورغم ذلك، فبعد الخبرين اللذين تلقاهما بيومين، اختفى فجأة. بشكل ما خارق استعاد عزيمته وصحته، وغادر (الناصرية) في ظروف مجهولة.

* * *

جريدة (الأهرام) المنافقة تحمل في مستهل عهد الاحتلال على «العاصي عرابي ورفاقه البغاة» كما وصفتهم، بعد أن كانت قبل الغزو ضمن صحف معارضة الاستبداد الأجنبي.
ولم تمض على الاحتلال أربعة أشهر، حتى أظهر نواياه في العمل على فصم عرى هذا الوطن، مستغلاً سريان روح الخضوع في أولِي الأمر منا؛ ففي خلال هذه المدة الوجيزة جدًا من عمر الزمن، تمت السيطرة على الجيش والشرطة، وذلك بإلغاء الجيش الوطني المؤيد للثورة العرابية، وأنشئ بدلا منه جيش آخر، هزيل، يترأسه سردار إنجليزي، وتعيين قومندان بريطاني على رأس البوليس، فضلا عن السيطرة على وزارة المالية، لتعويض تكاليف الغزو، وإلغاء الدستور، وإبطال المجلس النيابي، الوليدين، وكل هذا بمراسيم من الخديوي (توفيق) لا سامحه اللـه.

حتى الإمام الشيخ (محمد عبده)، عندما أفتى بعزل (توفيق)، عد في جملة المحكوم عليهم، ونفاه الإنجليز إلى بر الشام.

لكن اختفاء الوالد جعلني مقصرًا في متابعة المقاومة، مع تخاذل الصحافة والخطابة بشكل كبير، ومع تزايد حالات النفي والمحاكمة للوطنيين. كان عليّ البحث عنه حتى لا أفقده كما فقدت أمي، لكن لم يكن الأمر سريعًا. في البداية أنكر الحاج (راضي) والأسطى (مختار) أي علم لهما بوجهة أبي، ولما صار البحث وعر المرتقى، بعيد المرام، عدت للحاج (راضي) وأجبرته على البوح، فأخبرني أنه قابل أبي خارجًا من المنزل في أثناء محاولة فاشلة للتسلل، ولكن الوالد أصر على عدم إخباره بشئ لعدم رغبته في تعريضي لمتاعب أخرى، خاصة أنه لم يكفر بعد عن تسببه في غربتي منذ نعومة أظفاري، وسلمه رسالة موجهة لي وسط ذهول وفرحة العطار بقيامته بل وهجرته، وطلب منه تأخير تسليمها بأقصى ما يستطيع، ولأنني شككت في كذبه وحاصرته فقد حان وقت تسليمها، ولمّا فعل، توقعت أنني سأعرف أخيرًا أين ذهب أبي، ولكن ما بها كان بعيدًا عن توقعي. كان كما كتب لي:

«ولدنا وثمرتنا في هذه الدنيا (محفوظ) حفظك اللـه.

هذا المرسال رد على مرسالك أنت القديم، وقد سلمه لنا وقتها من أضاف لخطك تعريفًا مختصرًا له باسم (جندي فاعل خير)، وقد أخفينا خبره عنك طوال تلك الفترة، لأن تذكرنا لغربتك في صدر أيامك، هو أمر أليم، وعرض سقيم، ولأن ما مضى قد مضى. لكننا سعدنا وقتها بسلامتك رغم مشقتك، وبصحتك رغم غربتك، ولهذا، ورسالة برسالة، فإنا نطمئنك على صحتنا، وعودتنا إلى سابق عهدنا من الحركة والسير، ربما هي معجزة حب النبيلة التركية التي سبق وأن أنبأتك بها مذكراتنا، أو لعلها النتيجة الطبيعية لانتهاء فترة رد الفعل الجسدي، لبقاء ذلك السواد طويلاً بداخلنا، قبل أن ترثه أنت.

واعلم أيا (محفوظ) أنك لم تعد ذلك الصغير الغافل الذي كنته، بل صرت شابًا عملاقًا، وطنيًا، ومسؤولاً، وكما حصلنا على نصيبنا من هذه الحياة المرهقة، فسنة هذه الدنيا هي وداعها على أي حال، إلى دار أكثر راحة وخلودًا، فاحصل بدروك على نصيبك في مدرسة الإدارة، ثم أكمل نصف دينك واستقر، إذ قد كتبنا لك الورشة، وكنا نأمل أن نترك لك ما هو أعظم وأجل.

أما نحن فعلاج ما أسقمنا هو مواجهته، وعلاج فقد الحب إيجاده، لذا فسنسعى للعثور على حبنا الضائع مهما جشمنا الأمر، حتى لو واجهنا خصم وحشي قديم، سبق وأن أهلكنا إخوانه إخوان الشر. سامحني يا ولدي وسامح الشيخ (درويش)، واعلم أنني أحب المرحومة والدتك.

وإذا عثرت على الحب، فاحتفظ به، وحارب من أجله الكون كله، ولا تتخلّ عنه قط.

والدك النحّاس»

يا إلهي!

إذن فـ(عبد اللـه سودان) التقط رسالتي التي ألقاها موظف البوستة، وأعاد إرسالها بماله الخاص. للـه درك يا (عبد اللـه)، لولا هذه الإشارة لما علمت صنيعك المؤثر.

الإشارة الثانية هي التخمين العلمي لسبب الرقاد، فهو قد يكون، إضافة إلى الناحية النفسية، له من الناحية الفيزيائية شطر ونصيب، عندما حدس الوالد أن خروج الحماية السوداء من جسده بعد طول بقاء، أدى لرد فعل أثار الوهن في العضلات. وهي الإشارة التي تحمل في طياتها طمأنة من

نوع أفضل على سلامة عقل أبي. لكنها لا تفسر سبب هجرته المفاجئة الغريبة. غضبي من هذا الرحيل الغامض يفوق المدى.

أرفض هذا الوداع، وحتى إنني لن أقبل بوصية الورشة، فبدوري سألحق بك يا أبي أينما توجهت ركائبك.

لن أفقدك ثانية.

وبالفعل، قضيت أسبوعًا كاملاً من العذاب في محاولة استنباط طريقة تفكيره، حتى أعرف ما الذي حمله على التأكد هكذا، من وجود التركية حية ترزق.

أهو منام آخر من رؤى الدرويش؟

حاولت مطاردة وتتبع النسر (رخ) لمسافات طويلة، سرًا، ولكنه ظل على حاله في اكتراء غرفتنا بانتظام، ولم يكن يبتعد كثيرًا عن (القاهرة) إلا للصيد، وكان في زياراته يركز على مراقبتي أنا هذه المرة من بعد الوالد. ولم أستخرج منه إشارة على مكان أبي.

رحت أسترجع حواراتي الأخيرة معه.

إنه لا يتكلم كالعوام، ولا يقول الهذر، بل كل كلمة تخرج من لسانه لها موضع، ومقام، ومغزى.

حتى اقتربت رويدًا رويدًا من فكرة مبشرة.

لماذا كلمني فجأة في الآونة الأخيرة عن الفلاسفة؟

وفجأة لمعت الإجابة في ذهني.

إنها تتعلق بسؤاله الصغير: أين اختفى (إمبيدوكليس) آخر مرة؟

توصلت لوجهة أبي الأوروبية العجيبة، وبتصميم هائل على حمايته والذود عنه حتى لو فقد كل ما يربطه بالعقل والمنطق، قررت السفر خلفه، ورغم ما في الاحتمال المؤسف من تطاول مني، إلا أنني وضعت في الحسبان، أن والدي ربما عاد لجنونه القديم، الذي ذكره بلا خجل في مذكراته، ولكني كنت أرجع وألوم نفسي، على سوء الأدب، مع من كان كل جريرته، إنه محب كبير، محب يوصيني بعدم التخلي عن حبي، بينما أنا مثله محب أصغر. وبنهاية هذه الأشهر الأربعة، بعدما انتظرت حتى جمعت إيرادًا مريحًا من الورشة، يساعد على السفر الطويل، ودعت (محمد راضي) وسلمته وصيتي بحصوله على الورشة، إن تغيبت أنا وأبي عن المحروسة في (صقلية) أكثر من عام، وأخبرته أن قصة أبي ستكون مع رفيق الدراسة (خليل سويف)، وأوصيته أيضًا وسط دموعه أمام فكرة غياب كلينا، ألا يتوقف عن مهنة النحاسين، حتى لو كان آخر نحَّاس في القُطر كله، وقمت بعدة مقابلات شبه وداعية للزملاء والفتيان، كان أكثرها غرابة وداعي لجيراننا وأهل الحارة، إذ بكت (فرحانة) بكاءً مرًا، كما لو أن المسكينة واقعة في حبي.

إنه مسار حلزوني أبدي، أنت محبوب ممن لا يملكك، وأنت تحب من لا يمكنك طلبه.

ربما يئست يومًا من حبي ووجدت من هو أفضل مني، وربما يئست أنا من حب ذات الأصول النبيلة، لاستحالة موافقة أهلها على تزويجها مني.

تتبعت مسار والدي إلى (الإسكندرية) مصطحبًا (خليل القط)، نحو آخر من يمكن أن يكون قد التقاه في المدينة، التي تعد بوابتنا إلى الشمال. القبطان (أحمد نظمت). وقد صدق حدسي إذ عرفت منه أن والدي تعوذ به، كي يتوسط له لدى (السيد مصطفى بيك الطحان) عين أعيان الثغر، لأجل

أن يتمكن من الخروج من (مصر) دون أن يمنعه الإنجليز أو يضايقوه، وبنفس الرجاء من القبطان الشهم رغم أصوله التركية، التمست سبيلي للخروج إلى جنوب (أوروبة) من جديد.

الدمار والخراب ما زالت آثاره جلية في المدينة، رغم كرور الأسابيع والشهور. وكنت حتى آخر لحظة أدون مذكراتي أنا التي أضفتها لمذكرات أبي، وسلمتها لـ(خليل القط) عند الوداع في الميناء، موصيًا إياه أن ينشرها إن أراد، إذا ما تغيبت عدة سنوات واعتبرت مفقودًا، وأوصيته بـ(مصر) واستكمال نضالي المبتور، ولم أصطحب معي من المتاع في بابور البحر إلا القليل، وقبل التحرك أرسلت خطابًا لـ(لويزت) أودعها فيه، وأبثها حبي وإخلاصي وعشقي، بكل ما تستطيعه الكلمات من بيان وشرح، وذلك لأنني سألحق بأبي العاشق في بركان (إتنا) المخيف، حيث يوجد مخلوق وحشي قديم قد يتسبب في مهلكي، وأنني سأظل أذكر وجهها حتى آخر لحظة في حياتي، وإذا كان هذا هو الخطاب الأخير فليتها تظل تحمل لي ذكرى طيبة ومحبة، أما احتمال نجاتنا الضعيف، فسيترتب عليه أن آتي بأبي حتى عندك في (باريس)، لأشهده على زواجي بك.

وأخذنا نبتعد تدريجيًا عن الأراضي المصرية، وقد شعرت وقتها بتأثر مفاجئ من مفارقة الديار، ويكأنها المرة الأخيرة لي فيها، وقد صار هذا فصمًا جديدًا لعرى حبي للوطن، وانتقل ارتجاج البابور من سكون الميناء والأرض، إلى هياج الموج ونفخ الهواء.

في اليوم التالي من الإبحار، عبرنا جزيرة (كريت) في نهاية النهار، والبابور يتكفّأ ويرتج، فيصيب الجميع بالدوار، فلم أغادر غرفتي إلى سطح السفينة، متفكرًا في ما عاناه أبي في سفره هو.

حتى وصلت إلى (صقلية).

إجابة سؤال أبي.

وموطن الخطر والنهاية، وحيث اختفى (إمبيدوكليس) آخر مرة.

* * *

الأوراق السابقة نشرها (خليل القط) بعد سنة ونصف من تغيّب النحاس، وأحداثها تتوقف عند لحظة وداع النحاس الابن له.

* * *

صحوة الأشواق

- «على جبار استعنت عليه بصباغ اللمون».

ديسمبر 1882 مدينة مصر المحروسة.

هاجت العزيمة، وانبعثت الأشواق، وتحركت البواعث.

وهذا ما جعلني أغادر الفراش. ألحت (ملك جهان) في الظهور، وبينت لي الطريق إليها. إن السحرةَ الأغراب لا يقتلون البشر. هذا هو قانونهم الثالث. الأول ضمن قوانينهم الأربعة التي يطبقونها على نظامهم سحيق القدم، عرفته مع الرابع من أعوانهم شخصيًا في أرض الظلمة، وهو أن الخير أو الشر يبقيان في نسل صاحبهما، والرابع يحتم على من يدنس أرضهم الانقياد لهم والتشرف بـ(العقوبة). الثالث مفتاح اللغز والثاني التنظيمي أخبرتني هي بهما، فالثالث هو أن (العقوبةَ) للأعداء وللمدنسين هي نقلهم للعالم الخرب، والثاني أن الآلهةَ ـ ويقصد السحرة الشياطين أنفسهم بهذا النعت ـ لا يختلطون مع البشر في سكناهم. إذن فهم جُبلوا على الخداع. فثمَّ بون واسع

بين القتل والنقل. وكل ما كانوا يقومون به في ضحاياهم، نوع سحري من النقل إلى عالمهم البعيد، كبعد نجوم السماء. ولكن بخداع وكذب يصورون للأحياء أنهم امتلكوا أرواحهم. بينما هم قد امتلكوا فقط رسمهم وبعض ذكرياتهم.

فإذا كان هذا انتقالاً، فإني لمنتقل مثل صاحبتي.

ولو كان الغش طريقهم فسوف أغشهم؛ حتى ينقلوني إليكِ يا حبيبة العمر.

سأجعل نفسي من المدنسين لأرضهم.

وبعد النية والقرار، أخفيت عن ابني وعن أهل البيت، ما حل بي من تغير، وكان عليّ حسم أمر ولدي.

في المرة الأولى أبعدته عن دنياه وعالمه بالإكراه. في هذه المرة سأترك له الخيار.

(ملك جهان) أخبرتني بموضع آخر السحرة الأغراب، وكبيرهم الذي فر من انتقامي المروع القديم، وأنا بدوري سألمح لـ(محفوظ) بمكان الموضع.

فإذا ما عرف بمكاني فله الخيار في مرافقتي، لعلنا نحمي ابنًا آخر وحفيدًا مستقبليًا، حكم عليه بالشقاء من لعنة الخيال والظل. سأدوس بقدمي هذه على حلم رؤية الحفيد، حتى لا يتعذب بهذا الشر القديم الذي ورّثته لابني.

سأعرض ابني للضياع، حتى ننهي معًا هذه السلسلة الآثمة.

الميراث الملعون.

وبالتدريج ألقيت بالومضة في حواراتي معه، حول العلوم، والدروس، والفكر، والأدب. ألق غير ملحوظ إلا لقلب مؤمن وعقل كبير، حكمت عليه المقادير، فلو اعتصر عقله بعد رحيلي، لعلم بوجهتي، ولوضع أمامه الخيار كاملاً هذه المرة.

الخيار.

حياتنا سلسلة من الاختيارات المستفزة، التي تقول لك إنك أنت من يحدد الطريق لا نحن.

جمعت ما أدّخره من مال، وكتبت له رسالة ووصية، وقد نويت تركهما مع (محمد)، الذي غدا شابًا، ورَجُلاً يعتمد عليه في إدارة الورشة. حاولت المغادرة بهدوء، ولكن الحاج (راضي) والده فاجأني وفاجأته عند باب البيت، ووسط ذهوله من شفائي من علتي المجهولة، تركت معه الورق وابتعدت، قبل أن يستعيد قدرته على التفكير ويمنعني.

وحينما خرجت للدنيا أول مرة منذ زمن طويل، وجدت (المحروسة) وقد تغيرت بحكم النهضة الإسماعيلية. دكت أرض شوارعها وحاراتها بالدقشوم الممهد، ومدت فيها مواسير الماء، ونصبت بها فنارات الغاز، لتنويرها وإضاءتها ليلاً، وسرى فيها خليط غير متجانس، من روائح المطاعم وروث جياد الحناطير. خرجت من (عطفة ثابت) حارتنا إلى الشارع الرئيس، أو كما يطلق عليه أولاد البلد (حتتنا)، ثم عبرته إلى الشارع الموازي (جامع الإسماعيلي)، ولم ألبث أن انحرفت يمينًا إلى شارع (الناصرية)، في اتجاه (السيدة زينب) في مستقرها على الخليج المصري، بديع المنظر. خليجنا المبارك الذي يتدفق في قلب (القاهرة)، ليزودنا بمياه الحياة، وتتراص المنازل على ضفتيه، ينقذف منها الصغار في رحاب مويجاته، تشيعهم ضحكات الكبار. تمرق المياه على هذه الجدران الطيبة، وضوء الشمس يضوي عليها بلمعان يبهر الأبصار، ويعبر الناس فوقها على القناطر الجميلة، والتي كان (بيبرس البندقداري) هو أول من أنشأها، ناصبًا عليها سباعًا من حجارة، فقيل

لها (قناطر السباع) لهذا السبب. آلمتني سلاميات قدمي، فأحجمت عن المواصلة حتى رئيسة الديوان، وآثرت الانضواء تحت قبة مسجد أصغر، يفضله المسنون لقربه وهدوئ.

وبعد دقيقتين فحسب وصلت إليه. مسجد (أرغون شاه الإسماعيلي)، ذو المئذنة الداكنة القديمة مربعة القاعدة، والمدخلين المزخرفين بالمقرنصات الرائعة، وأديت صلاة الظهر في الصف الأول. بقعة صغيرة من ضوء الشمس المتسلل من أعلى، تعمدت أن تضيء وجهي بالذات. ألحقت الظهر بركعتي شكر، على تحول الحال من الرقد إلى الركض، ثم خرجت من المدخل الجنوبي، ثانية إلى شارع (الناصرية)، ومشيت مأخوذًا كالمجاذيب ناحية ميدان (السيدة) الكبير، أتفادى الخلق الذين أفضت إليهم فوهة الشارع، وقد جعلت تتسع. أنظر كيف أن على الجانبين من الشارع حارة استطراق للمشاة، بينما جعل الوسط للعربات والحيوانات فقط. أتأمل، ولا يسيطر على جوارحي في الأعماق، إلا صحوة أشواقي تجاه (ملك جهان). الآن أطلبها. الآن سأجدها. سأصل إليها رغم مستقرها البعيد. لن أتركها أبدًا هذه المرة، حتى ولو كانت تحيا في العالم الآخر. هذه المرة بعد أكثر من ربع قرن.

اعترضت حنطور الأسطى (فرَج) العربجي عندما تعرفته، أو هو من استوقفني، وسط دهشته، بعد الغياب الطويل. كان الحوذيُّ رجلاً فوق الستين من العمر، يتعاطى المنزول، ويحرص عند إغلاق حانوت الحنطور، على وضع بضعة أقفال، وعلى التثبت من متانة كل مزلاج، فلو قالوا له إن اليومَ هو يوم القيامة، لتأكد أيضًا من قوة الأقفال والمزاليج، قبل اللحاق بفعاليات ومراسم اليوم! وبعد التحية الحارة انطلق متذكرًا الأيام الخالية، وفرقع سوطه فوق ظهر حصانه، وهو يسألني ضاحكًا كعادته:

ـ تاخدش الحنطور وتديني قباله الورشة يا معلم (محفوظ)؟

ـ ماعدتش معلم يا اسطى (فرج)، زي ما بيقولوا (الرايب ميرجعش حليب). النوبة دي ماتطلعش على النحاسين.

ـ على فين العزم؟

ـ على جبار استعنت عليه بصباغ اللمون.

ـ ؟؟

ـ اطلع على باب الحديد.

وكان آخر ما رأيته في سماء (مصر المحروسة)، النسر الأبيض دائرًا حول عين الشمس، (رخ)، الصديق الذي كانت (ملك جهان) تراني طوال الوقت، عبر عينيه الثاقبتين، بسبب خاصية غريبة يمتلكها، مكنتها من رؤية عالمنا وتتبعي عبره، وقد علم أنني مفارق لهذا العالم كله، فاكتفى بتوديعي دون أن يطارد البابور الذي أقلني إلى (الإسكندرية).

ومن (الإسكندرية) ركبت بابور البحر إلى الجزيرة الجبلية الهادئة، التي صارت جزءًا من مملكة (إيطاليا) الجديدة، وهبطت في مرفأ (كاتانيا) على الساحل الشرقي، أرمق الجبل الرهيب يطل عليه كغول، أو وطواط كوني يسد السماء.

وبعد رحلة برية حملت فيها جربنديتي المزودة ببضعة أرغفة، تسلقت بآخر ما أدّخر من قوة، سطح ذاك الجبل الصقلي المخيف.

حتى دلتني الهمسات الموسوسة إلى مكان الساحر القديم.

وهالتني هيئته الجسيمة.

وبرغم خلوده بالنسبة لأعمارنا، وبرغم قراءته للأفكار والخواطر، وافق كبير السحرة معدوم الحدقات، على قبولي ضمن عبيده، وأنا في سري أستعيذ باللـه المعبود الأوحد، ولم أدر أهذا غرور منه، أم أنه سيتجاوز القانون الأول، الذي أخبرتني به محبوبتي النبيلة، ويقتلني حقًا؟

ولكنه أعلمني أن نصيبه من وعيي، سيكون أكبر من كل من سبقني.

سينتقم لمقتل رفاقه المتألهين في موقعة (القرم).

وأنني حتى في العالم الآخر، سأظل بلا عقل.

أرعبني تهديده.

لكن تطمينات (ملك) السابقة، أكدت لي أنه مخلص لمبدأ الغش والخداع.

وأنه لن يجد عقابًا أنكى من إرسالي لعالمهم المخرب. هكذا أسمته.

وقد فعل.

أنار عددًا كبيرًا من الكرات المعدنية الغامضة، وصوب لي شيئًا كالغدارة، ثم أمرني بالوثوب في حمم مصهورة، كبؤر الجحيم.

وبكل إيماني في رحمة اللـه، وثقتي وحبي تجاه معشوقة روحي.
تهيأت لهذا الانتحار الظاهري. ومقولة الحاج (راضي) تخالجني: (ربك رب العطا، يدي البرد على قد الغطا).
ربنا رحمن رحيم.
وقفزت.
واعتورتني ألوان وأضواء وأصوات رهيبة، ثم برودة جليدية مرعبة، متناقضة.
ثم ساد الظلام.
* * *
سقطت في بركة من الوحل.
كان إلى جواري ما يشبه نهرًا مهولاً من الوحل البني، الذي يبدو من بعيد ثابتًا، ولكنه يتحرك ببطء شديد، في تيار أزلي، إن أمعنت فيه النظر.
أي عالم هذا؟
لقد نقلني الساحر إلى حيث محبوبتي.
ولكن ما هذا الخدر العجيب؟!
إنني حتى لم أفتح عيني، ولكني أعرف أن في أثناء سقوطي في الحمم، لامس جسدي كرة معلقة خفية، في نفس الوقت، الذي أطلق فيه الساحر صوبي، شيئًا كشعاع البرق، من الغدارة في يده، صنع من حولي ما يشبه الحاجز، من الأشعة ذات البروق الصغيرة.
كل هذا أدركته رغم سباتي.
صار لي وجه عنده إلى جوار وجهها، رغم أنني سليم معافى نسبيًا.
أحد الرحالة يلمحني.
لا أقوى على فتح عيني أو التحرك، ولكني أشعر بكل شيء كأنني أرى نفسي عن بعد!
إنه يحمل عقربًا عجيبة ذات ذنبين في حزامه، ورغم أن المخلوقة مخفيةٌ جيدًا للرائي المبصر، فإنني عرفت بها، ورأيتها في مكمنها.
يقترب الفارس على جواده. يهبط. يتأمل ملبسي وحلتي المصرية في تعجب. يقول شيئًا ما بلغة عجيبة، ثم يحملني فوق حصانه.
وقبل أن يبتعد تهاجمنا فجأة فرقة من رجال شعث غبر، يحملون فؤوسًا وحرابًا مخيفة، ويبدو على محيا الفارس توتر يشي بأننا في مأزق، وأستنفر أنا كل جهدي لأتحرك بلا جدوى، ولكن الفرقة تتساقط فجأة، بهجوم مضاد من فرقة خيالة أخرى، توقفت على مقربة، وتبادلت بعض العبارات بنفس اللغة الغامضة مع الفارس، وهم يشيرون نحوي مرارًا، قبل أن يتجه الجميع بي إلى طريق بعيد عن نهر الوحل.
وبعد عدة أيام، كانوا يحرصون فيها على سقايتي في غيبوبتي الغريبة، وصلوا إلى ما يشبه مدينة أو عاصمة كبرى، عبرنا أسوارًا عظيمة، تخفي قرى بأكملها، ثم دخلنا برجًا هائلاً، وأودعوني في سجنٍ بأعماقه، وفيه رأيت ذلك الرجل السمح، وقابلتها أول مرة منذ سنوات.
(ملك جهان).
عسل (أبيب)، وورد (برمودة).
ضمتني، وبكت في زنزانتها، وقلبي يجاوب بكاءها ببكاء، دون أن أتمكن من إعلامها حتى، أنني أرى كل شيء في غيبوبتي اللعينة. قبلتني في كل مكان في رأسي، وهي تقول بحب عميق بالتركية:

ـ أخيرًا يا حبيبي وقرة عيني. أخيرًا يا (محفوظ). حفظك اللـه حتى أراك لعيني. لقد التاث الأمر وأعضل عليّ، حتى تعرف ما حل بي، وقد صدقتني رغم استحالة الفكرة. آمنت بي، كما آمنت من قبلك أنك ستفعل. لقد تتبعتك مستعينة بذلك الحكيم (نوفيو) المحترم، خاطبت أحلامك وأفكارك، وراقبتك عبر (رخ)، لقد نهضت من أجلي، وقمت بمعجزة الأحبة. واليوم أرسلنا لنقطة سقوطك جنود مدينة (الخوان) هذه، والحمد للـه أن أصرخوك في آخر لحظة من هجوم البربريين. سأحكي لك كل شيء يا حبيبي.

أراحت وضعية رأسي فوق فخذها الحاني، وذلك الرجل يقول لها شيء بلغته. شيء ما في إشارته لي ثم لأذنه، توحي بأنه يقول لها أن لا فائدة، وإنني لن أسمعها. ردت عليه بلغته بجملة فيها حب شديد، واعتزاز، وأمل، كما لو أنها لا تأبه لأي شيء ما دمت حيًا أرزق، وبين ذراعيها الحبيبتين.

لكن وضعي كان يثير حنقي وصدمتي.

أنا هنا وهي معي أخيرًا، لكني لست هنا.

أحيانًا يكون الحبيب معنا لكن بعيدًا عنا.

وتمر الشهور دون أن أستيقظ بعد، وأعرف مما تحكيه لي (ملك جهان) كأنها تخاطب واعيًا، أننا سنتحول لشبحين تدريجيًا.

ثم تحدث المفاجأة الكبرى.

يصل (محفوظ)، الابن الباحث، الشجاع، عملاقًا فتيًا، ومعه صديقة أوروبية سبق وأن قابلها فترة حرب (مكسيكا)، لكنه لا يتذكر شيئًا.

كيف جاء؟!

تدريجيًا تصله الذكريات مع عثوره عليّ.

ولكن غيبوبتي الظاهرية تمنعه من التواصل معي للأسف.

ليس له قلب (ملك جهان)، التي تعرف في أعماقها أنني أشعر بها، وأسمعها جيدًا.

أنا بالنسبة له موجود بجثتي النابضة.

لكني ميت.

وليس لوجوده معي فائدة، بدون تحرره من هذه الجدران الرطبة.

(ملك جهان) تفكر بصوت عال، وتبثني همها بصوتها الجميل:

ـ هل هناك أمل في عودتي، وزواجي بحبيبي المصري الأسمر؟

ولكن يشاء ربك أن تأتي الحرية.

يساعد الحكيم الأصلع ولدي. يخرج الذي كان من المفترض أن يكون ابنها هي. كما ظننت أنا وكما حلمت هي. يغيب بدوره طويلاً طويلاً. لماذا تأخر؟ هل سيرجع؟ ضاع الأمل في عالم شرس عنيف لا خير فيه.

لكن هذا لا يقلق (ملك جهان)، أن نموت أو ألا نرجع لعالمنا، بل يقلقها أن أموت قبل أن أستيقظ، وترى روحي روحها وجها لوجه، بعيدًا عن الأحلام والمطاردة من خلال عيني (رخ) الوفي. يقلقها أن تموت قبل أن أفتح عيني ويلتقي وعيانا في حب، لكن عزاءها الأخير ـ وعزائي ـ أننا سنرحل معًا ومعًا سنرحل.

وفي غيبوبتي بعالم بعيد بعيد، وبينما رأسي في حجرها، غمرتني مشاعر السكينة والحيرة والحب، وقلت بقلب مبتسم رغم اليأس:

ـ فوتّك بعافية يا (ملك).

* * *

من أجل الحب

- «**تعالي. هاتي يدك. وأغمضي عينيكِ**».

يناير 1883 شرق صقلية.

هأنذا في جبل النار.

لم أكن أتخيل في حياتي أن أدفع نفسي بنفسي لمكان، هو والجحيم سواء.

الرياح الشتوية الصارمة تثير الرعدات، ولكن الجبل يبعث دفئًا عجيبًا.

كلما كنت أقترب كان ظلي يتلظى أكثر، فعرفت مكمنه ومدخل عرينه في قلب الجبل الضخم.

شيء آخر شعرت به دلني على المدخل، ربما كان همسًا غير مفهوم بداخل عقلي.

وبعد عبور ممر طويل يلي تجويف الكهف، وطئت قدمي بركة من الرمال داخل النفق.

وفجأة خيل إليّ أنني في منتصف صحراء جافة مروعة، يبست أرضها واسودت وصارت يبابًا، فخانني قلبي، ووجف، ورجف، ثم سمعت صوتًا هائلاً امتقع له لوني، يضرب سمعي:

- أنت على أعتاب الآلهة الأغراب. فهل أنت بهذا مدرك، أم أنك جاهل، تستحق البقاء في هذا التيه إلى الأبد؟

- أعرف من أنتم. بل من أنت تحديدًا. فلم يتبق سواك. اسمح لي بالدخول، وأرني أنظر إليك.

- اعلم أيها الغر أنه لا نكوص. فإذا جئتنا بمحض إرادتك، فإما هالكًا تكون وإما عابدًا لنا. أما وقد علمت فتقدم.

تلفت حولي وسط هذه المفازة، ثم سألت الصوت ذا الرجع:

- في أي اتجاه؟

- أمامك.

خطوت خطوة واحدة، فإذا بها خطوة بركة الرمل الصغيرة، وقد فهمت أنها نوع من التأمين المتلاعب بدواخل النفس، فحمدت اللـه أن عقلي لم يختلط طويلاً، أو يصيبني اللمم، ويمسني الجنون، وواصلت التحرك بعد اختفاء الصحراء الوهمية، حتى أوغلت في كهف واسع، له قاع حجري، تتوسطه بئر كبيرة يخرج منها وهج حمم فائرة، وفي جداره البعيد طالعني وجه عملاق عجيب، كوجوه الآدميين، ولكنه يحتل مساحة ضخمة، بحجم سراي (عابدين)، وقد أحاطت به وفي كل أرجاء الكهف مئات الآلاف من وجوه البشر. مزروعة في صخور الجدران والسقف، حية ترزق!

كان المشهدُ لا يصدق، يصيب اتساعه بالدوار، ولكنه حقيقي هذه المرة وليس كوهم الصحراء.

وفي تماسك قلت:

- هل تضخم حجمك منذ قتل أبي رفاقك؟ لقد انتفخت مرارتك كثيرًا كما أرى!

- إذن فأنت حقًا بن (النحاس). لهذا رصدنا (النيريا) بهذه القوة.

- هل تطلقون على الظل (النيريا)؟

- وعليك وعلى والدك لقب موحد. حفيد (المهدم). منذ خراب موطني الأعظم (هيروليغا المستنيرة) بسبب جدك الأكبر، وأنا أنتظر لحظة انتقام كهذه. كانت العاصمة الذهبية درة العالم، ومكتبتها قبلة العلم. كان السادة والسيدات يقيمون الحفلات الراقصة الضخمة، ويرتدون ثيابًا من الذهب والفضة. يرتدون الأحذية الجلدية عالية الرقبة، والقبعات المزينة بالريش والعاج، والقفازات

ذات الأزرار الماسية. والعربات. ما أبهى العربات! كانت تحلق، أو تسير على قضبان، وتنقلهم في أرجاء عالمنا الواسع بسرعات لا تصدق. كل هذا كان. مضى. تحطم على يدي جدك الأكبر.

ـ (هيروليغا)! حسنًا أيها الهيروليغي. ما الذي تعرفه أيضًا عن جدي رحمه اللـه؟! وكيف ستنتقم مني، وأنا نفسي لا أعلم طريقة معينة لقتلي بشكل مباشر؟

ـ أنت تحمل نفس ذكاء جدك المهدم. لقد أدى به ذكاؤه بدوره إلى مصيره النهائي. منبوذ، وحيد. ناقم على فضوله القديم. والدك أيضًا دفع ثمن خروج (النيريا)، عندما قتلنا حبيبته ريانة الشباب.

وأرسل بصره نحو الجدار عن يساري، فتطلعت إلى ملحمة الوجوه المتلوية في ألم صامت، لأجدها تتباعد بقوة قاهرة، وتسوخ في أعماق الصخر، مفسحة مركز دائرة مفرغة إلا من وجهين بعينهما، الأول كانت له ملامح أنثوية تركية وصفها أبي في مذكراته، وصوت المخلوق يهمس في عقلي باسمها:

ـ (ملك جهان).

والثاني كان لأبي عينه.

ـ من أورثك اللعنة.

همس بمقت.

وثارت ثائرتي، فخرجت حمايتي التي يسمونها (نيريا) ـ كما قال الساحر الأخير ـ وتعملقت من حولي كالشيطان، فقال الهيروليغي محذرًا:

ـ إياك أن تطلقها. وإلا فلن تستعيد والدك قط.

سيطرت على غضبتي ببعض العقل، وقد حملت عبارته دليلاً ضمنيًا على أن أبي ما زال حيًا بطريقة ما. أيكون وجهه نوعًا آخر من الوهم؟

إن لم يكن، وكان هذا القذر قد تسبب في قتل أبي، فلن يكفيني سحق الجبل كله فوق وجهه السمج.

ـ لقد جاء والدك يا حفيد (المهدم)، وذكرني بوقعة (القرم). بالنسبة له كان هذا من زمان طويل، وقد بدا عليه أثر كر السنين، أما أنا، فكان الأمرُ كما لو أنه حدث بالأمس القريب، بل منذ ساعات معدودة، مقارنة بأعمارنا الممتدة من قبل ذلك الطوفان الذي عم أرضكم. شيء ما يجعل النمو بطيئًا للغاية هنا مقارنة بعالمنا. لقد اتخذت من جسم الجبل كله جسدًا دائمًا لي، بعد أن رحل بقية العلماء الهيروليغ، ولم تضمحل (النيريا) بعد. وأنت لن يسمح لك ضميرك أن تنسف الجبل كله، فتنطلق الحمم نحو الصقليين الأبرياء.

ـ ما لم تعد لي أبي.

ـ ليس قبل أن تفعل مثله. لقد رضخ وقبل عبادتي. أما ترى وجهه؟

نظرت لوجهه الذي يتلوى بوضوح وسط دائرة الوجوه، البيضاء والحمراء والسمراء، الشابة والمسنة، المؤنثة والمذكرة، السليمة والمصابة والمشوهة، الصلعاء والمشعرة. كلهم خدعوا في هذه الآلهة المزيفة التي استغلت تفوقها طويلاً.

ـ لكن (ملك جهان) لم تستسلم لكم قط. فكيف تدعي عبادتها لكم؟

صمت طويلاً، وكأنما أثارت نقطتي عصبيته، وأسقط في يديه. فطرقت أنا الحديد وهو ساخن:

ـ يمكننا أن نناور طويلاً ونتبادل الأكاذيب والتهديدات، ولكنك تعلم أن هذا سيؤدي لطرق مسدودة. لن أعبدك، وأضف إلى هذا أنني سوف أستعيد أبي، حتى لو اضطررت إلى تحطيم (صقلية) كلها فوق أنفك.

ـ منذ جاء (أنون) بمركبته السماوية ونحن في حيرة من أمره؛ لماذا أصر على منح أجدادكم البدائيين هذه المعرفة؟ كان هذا يفوق حكمة حضارتنا كلها. لم يفكر في إخضاعكم أو الشروع في بناء إمبراطورية تخلد سلالته إلى الأبد. فقط منحكم شعلة العلم ورحل.

ـ ربما يتشابه فكركم مع فكر الإنجليز. الجبروت الاستعماري. لهذا لن تفهموا قط فكرة المنح والعطاء.

ـ المنح لمن يستحق. وأجدادكم كانوا قبائل متناثرة متصارعة، لا تفكر إلا في الطعام والمرعى والكلأ. ولكننا قررنا الاستفادة من هذه العلوم، لعلنا نتمكن من العودة يومًا لعالمنا المتحضر. (أنون) جد أمم بنات آوي، رحل، وترك لنا ثروة، بمزجها بعلومنا واختراعاتنا، التي احتفظنا ببعضها مع انتقالنا المفاجئ لعالمكم، صرنا نمتلك عدة إمكانيات، عدها البشر محض سحر، وقدرات عجائبية خارقة. سرعان ما راقت لنا الفكرة، فنصبنا أنفسنا آلهة لهداية العالم إلى التحضر، وقلدَنا الفراعين من بعدنا، وكذا كل قياصرة، وملوك، وأباطرة، وأكاسرة الحكم الإلهي.

ـ لقد أبرزت صفحة الوقاحة من دون شك. أنت تعترف أن عبادتكم خداع قح.

ـ إنه قانون القوة يا حفيد (المهدم). حتى أنتم تعبدون المال ولكنكم لا تقولونها علانية. تعبدون الأرزاق وتسرونها في أنفسكم. تخشون الزمن أكثر من صانعه، والفقر أكثر من موجده، والموت أكثر من مبدعه. وتدعون الإيمان بإله سماوي محتجب، ولكنكم لا تكفون عن عصيانه كل يوم. فما المانع في أن نحصل على دورنا؟ بل إننا قمنا بدورنا بأعلى كفاءة ممكنة! فصُلنا وجُلنا، وصنع لنا العابدون المصانع والتماثيل الشاهقة، وأطلق عليّ البشر عدة ألقاب انتهت إلى (ديوس)، ثم (زيوس). وكان معاونونا المباشرون من البشر، أكبر دليل على قلة وسخافة عقولكم، وبدائيتها، حتى من حاول منكم التذاكي، واستغلال ثغرات نادرة في نظامنا الداخلي، قمنا بكشفه، مثل (ألفونسوا) الآبق، الذي تسبب في وصول جدك الأكبر (ابن النحاس) لعالمنا.

ـ وكيف علمتم أن جدي الأكبر تسبب في تخريب عالمكم، بينما أنتم هنا تعيثون فسادًا في دنيانا؟!

ـ لقد استطعنا تطوير بوابة للذهاب فقط إلى عالمنا القديم، وعبرها شاهدنا ما حل من خراب رهيب. أحد العلماء/الآلهة ادّعى أننا السبب الأصلي في الخراب، بسبب خطأ علمي قمنا به، أدى لوصولنا هنا ولاضطراب عالمنا هنالك، ما أدى لسلسلة الحوادث التي سببت عاصفة مدمرة؛ وانفصل غاضبًا، ليؤسس أجيالاً من الآلهة البعيدة عن عالمكم القديم (أوراسيا وإفريقية)، ولكننا تأكدنا أن (المهدما) هو السبب، لتدميره حصون الملاذات الأخيرة لحضارتنا.

ـ إذن لقد امتنعتم عن العودة بإرادتكم. البوابة وجدت، ولكنكم استمرأتم تسلطكم وتضليل البشرية.

ـ لقد سادت عبادتنا. وبُنيت حضارتكم اليونانية والمصرية، وفنكم الإغريقي والبابلي، وعمارتكم الرومانية والصينية، على ما قدمناه لكم بمساعدة الشعب الخفي؛ وبالطبع عون (أنون) ذي المركبة السماوية، والذي رسم البشر الأقدمون بعض النقوش، التي تشير إليه في (ليبية) و(إسنا). ولكن لم يمنحها الزمن فرصة لكشف ماهيتها حتى اليوم. كان كل شيء يسيرًا جيدًا، حتى مع ظهور الأنبياء، ولكن الخطر الأكبر على سيطرتنا، جاء من بعض الحكماء العنيدين، ذوي الخيال الواسع.

صمت الهيروليغي لحظة، وارتسمت على ملامحه العملاقة أمارات المقت:

ـ سيادتنا تهددها خطرهم العميق. إنهم الهرامسة. أقلقوا مضجعنا. وبلغت ذروة مهاجمتهم لألوهيتنا بظهور (يوهميروس). الذي أشار إلى أن الآلهةَ مجردُ أبطال حقيقيين، إن كنت لم تسمع عنه وعن دعوته. ولقد صدق (ميركوريوس ذو القلنسوة) أحد حكمائنا الذي قتله والدك، عندما أخبرني منذ آلاف السنين: «لم يكن لنا أن ننتقل من (مصر) إلى (أوروبة). سيكتشف بشر هذا العالم أن أصلَ الآلهة

الإغريقية مصري، وستنتهي عبادتنا بالشك». ولكننا لم نسمح للهرامسة بالمزيد من التحرر. وخير تأديب قمنا به لهم عندما حرضنا محاكم التفتيش، فأحرقت الهرمسي (جيرودانو برونو)، الذي عمل بدوره على تثبيت فكرة أن (مصرَ) مبدعةُ الكتابة والآداب هي أساس الشرائع الإغريقية. إنك لا تعرف حجم المأساة التي سببها والدك لنا، عندما قضى على تاريخ بأكمله في نوبة غضب. تمامًا كما فعل جدك الأكبر بعالمنا الأم. أنت خلاصة عذابنا وهزائمنا المُرة، أنت شعار الذل، الذي بقيت بمفردي كي أتجرعه كل يوم، ولا يكفي أن أنتقم منك بأية طريقة. لقد تخطيت الحجم المطلوب للانتقام. فلا يكفي قتلك ألف مرة. ولا أن تخلد في عذاب مسعر ما بقيت الأبدية. اقفز في هذه البئر بإرادتك. فينتهي وجودك في عالمي إلى الأبد.

لم أدرِ ما السبيل لكشف صدقه من كذبه.

أنا الطالب وهو المستعان لنقلي حيث أبي.

فإذا كان هذا هو السبيل الوحيد للانتقال، فلأحرقن ويذوب لحمي في الحمم، أو أنطلق خلف سراب محمل بالضغينة الصريحة.

ولكن الهاتف كان حاضرًا: «أطعه يا (محفوظ) وكن جديرًا بـ (فرسان المجال). قوانينهم تجبرهم على المداراة، ولكنه لم ولن يقتل آدميًا بنفسه قط. ولن يحصل منك إلا على بعض الوهم، ليحتفظ برأس خيالي يشبه رأسك. يشبع غروره. القتل المسموح به بالنسبة لعلماء حكماء مثلهم، هو نقل البشر لعالمهم المخيف. حيث يوجد والدك.

وعندما تسيطر عليه، انقل نفسك بنفسك».

لوهلة لم أصدق أذني.

إنه الدرويش الحبيب.

تلفت حولي بتوتر، لكني لم ألمح شيئًا منه، ولكن هاتفه الأشبه بحلم اليقظة أعاد لي الأمان، فأسفر ضباب المصير عن طريق ما، وبدا على غريمي أنه لم يشعر بما سمعته من ألق. نقطة صغيرة واحدة لم أفهمها. ما الذي قصده بـ (فرسان المجال)؟!. لكن بقية كلماته العزيزة كانت شديدة الوضوح والألق. وبثقة قلت للمخلوق المتغطرس:

ـ سأقفز في البئر. وليشهد اللـه أنني لا أتبع سبيلك، إذ لم يفعل إلا المضلون.

ـ كذا آمن بي والدك. ربما في سريرته آمن بالعكس، ولكنه في النهاية خضع ووثب. وهأنتذا ترى وجهه. ولسوف تلحق به.

التفتت عيناه نحو الممر المظلم الذي أتيت منه، وغمغم:

ـ الآتية تبحث عنك. الآتية استجابت لهالة الألوهية.

من يعني؟

أسرعت إلى النفق، وولجته بقلق، وفي منتصفه رأيت المفاجأة الصاعقة.

إنها (لويزت).

الذهول تام.

احتماليةُ وصولها كانت صفرًا. لم أتوقع أنها تحبني لهذه الدرجة، كي تسافر من (فرانسا)، حتى بركان يقطنه الشر.

كانت المسكينة تقف فوق البركة الصغيرة، ولا تراني، رغم أنني أمامها مباشرة، تشعر بالهلع الرهيب، وقد غمرت عينيها نظرة الخبال. حاولت التقدم، ولكن قوة خفية كانت تمنعني، كأنه حائط من دخان شفاف ضرب بيني وبينها، فصرخت بها:

ـ غادري يا (لويزت). تعالي إليّ. أنا حبيبك (محفوظ). أتسمعين؟
ـ أهو أنت يا (محفوظ). إنني أسمع صوتك البعيد. أغثني. أدركني.
ـ إنه أنا. أمامك مباشرة. هذا وهم. لا ترتعبي هكذا. لا تفقدي عقلك. انقلي قدمك خطوة واحدة.
جثت على ركبتيها في يأس وخوف عميقين. إنها ترى الآن صحراء هائلة تمتد حتى الأفق حولها كما شاهدت بعيني. ولكنها ولله الحمد زحفت في اتجاهي بصعوبة وخوف، وهي تهتف باسمي، حتى غادرت وهمها وشاهدتني بغتة، وقد انزاحت عنها الحجب فبصرها الآن حديد، فنهضت وارتمت بين ساعدي، وبكت قليلاً، ثم قالت:
ـ أين نحن يا (محفوظ)؟
ـ ما الذي فعلتِه يا عزيزتي التعسة؟ لماذا أتيتِ؟!
بكت، وكوى دمعها قلبي:
ـ لن أتركك أبدًا. وصلني خطابك. وقلت لنفسي لو غاص في أعماق بركان (إتنا) غوصًا، سأرافقه. لقد هربت معي ونحن بعد أطفال، وحان دوري لأرد لك إخلاصك بحبي.
مسحت دموعها بسرعة، فضحك أزرق عينيها أسفل غمامة باقية، من لؤلؤ الترح والفرح. نفس اللؤلؤ في كل انفعال، لكنه مرة يكون مريرًا، ومرة مبتهجًا، بنفس ملوحته القاسية. الآن اللؤلؤ الملحي يبتهج، يرتجف وسط عشق قلبها، وصخب خفقانه بلقائي، رادًا على خفقات وليفه في صدري. وكأنما تحاول كسر كل هذا الانفعال، أردفت:
ـ كما أنك.. كما أن معك شيئًا يخصني.
نظرت إلى نحري، فنزعتُ سلسلتها الفضية من أعماق صدري، وسلمتها باحترام، لعنق قادم من أساطير الحلم، والحب يبتسم على شفتي، رغم تربص القلق به فوق حاجبي:
ـ ولكني لن أكون آمنًا على نفسي، فكيف آمن عليك؟
ـ مصيرنا واحد. لن أدعك تبتعد عني مجددًا. وإذا ما كان والدك ـ كما قال الخطاب ـ يسعي خلف حبيبته، فعلينا أن نستوعب الدرس بدورينا.
كان الأمرُ شاقًا معقدًا، ولكن عبارته في خطابه هو، عادت تتجمع في ذهني، أمام حماسها، ولهفتها، وحبي: «وإذا عثرت على الحب، فاحتفظ به، وحارب من أجله الكون كله، ولا تتخلى عنه قط.
والدك النحّاس»
لم تسمح الحوادث بتفكر أكبر وتردد أشد؛ إذ جاء صوت الهيروليغي الأخير من أعماق الكهف، جسيمًا يهدر:
ـ لقد جذبت خلفك المزيد يا حفيد المهدم.
التفتّ إلى النفق، ووجدت قادمًا جديدًا.
***
مع وصول الزائر هاجمه الهيروليغي دون حتى أن ينتظر دخوله بركة الوهم. أسقط فوقه بعض الأحجار القاتلة، ولكني أسرعت بحمايته، فتتّ الصخور بطاقتي الخوارقية، ولكنه كان قد أصيب بحجر ثقيل أصاب عموده الفقري، كانت الضربةُ قويةً، وقد دخل الرجل الكهل في غيبوبة سريعة، وعندما استفاق، بدا كأنه يحتضر.
جذبته فسقطنا في وهم الصحراء، ولحقت بي (لويز). تطلع لملامحي في حبور غير مبال بألمه واقتراب منيته والتيه من حوله. لو حوصرنا بالأسود لصب كل اهتمامه على وجهي، قائلاً له بنفس

الصوت المتهدج:

ـ دعك من الإصابة. المهم أنك (محفوظ محفوظ النحاس) أخيرًا. ألست كذلك؟

لم أفهم إيطاليته وتساءلت (لويزت) عن كنهه بالفرنسية، فاعتذر وكرر تساؤله بالفرنسية التي يجيدها بشكل متوسط، وسط دهشتي أنا و(لويزت)، وأنا أرد:

ـ بلى. كيف تعرفني؟

رفعت له رأسه فوق فخذي، وأسقيته من ماء جربنديتي، وقد تأكدت أن الهيروليغي صار يتحكم في كل صخرة بالجبل بشكل ما، بعد أن زرع نفسه فيه، كي يحصل على حماية ما تقيه منّي، فلم أغادر الوهم كيلا يرتاع الزائر من شكل الهيروليغي المهول. قال:

ـ فليحفظنا الرب. بحثت عنك لسنوات طوال يا بني، تتبعتك من حيث أصول جدتك الطوارقية في (غدامس)، مرورًا بموطن والدك في (القاهرة)، وكفيلك في (دنقلة)، ثم تجنيدك في (فيراكروز)، وفرارك إلى (نيس) حيث بحثت عنك طويلاً، حتى اهتديت لتلك العائلة القوطية، انتهاء بعودتك لبلدك ثم رحلتك إلى هنا حيث غاب والدك. كنت أعرف أن المهمة لن تكون سهلة، لكني لم أتخيل الرحلة بهذا الطول، وعبر المحيط.

ـ يا إلهي. ولم كل هذا البحث يا سيدي؟ من أنت؟

ـ أنا (مارشيللو) الراهب الدومينيكاني. أو هكذا أنا معروف. لكني في الأصل الهرمسي الأخير في جنوب (أوروبة). وبفضل المعرفة الهرمسية توصلت لك.

ـ لا أفهم. ما هذه المعرفة الهرمسية؟

ـ لقد انحدرت الهرمسيات مباشرة من الحكمة المصرية القديمة، من (توت) أو (هرمس) أو (هرمسوت). إن له عدة أسماء على أي حال، وقد كان رسولاً إلهيًا للبشر، وقطبًا تتبارك به الأكوان. ولأننا نسير في ركاب الحضارات دائمًا نحن الهرامسة، فلقد احتفظ اليونانيون بحكمتنا. وعندما شاء القدر أن تولد مكتبة (الإسكندرية) العظيمة، جُمعت فيها مخطوطاتنا باليونانية واللاتينية والقبطية، كانت (الإسكندرية) ثرية أيضًا بالعرفان الصوفي والفيثاغورسية وقتئذ، وكذلك الفلسفات البطلمية واليهودية والمسيحية، ومدارس الأسراريين اليونانيين، والزرادشتيين، والفلكيين، والسيميائيين، والبوذيين، وبالطبع الديانة المصرية القديمة. كل هذا يحتاج مجلدات للكلام عنه، وقد انصهر وتمازج وأسهم في صنع عدد من المنجزات الفكرية الضخمة، التي حافظت على تسلسل الحضارات، ولولا العصور المظلمة التي أعقبت حرق المكتبة، لكان الوضع الإنساني حاليًا أكثر تقدمًا وتطورًا بمراحل، ولكننا ناضلنا واحتفظنا بكتبنا، وبعد ظهور مؤشرات التيار العرفاني الصوفي، الذي يمثل امتدادنا داخل الحضارة العربية، وتأكيد هذه المؤشرات على بدء اضمحلال تلك الحضارة الرائعة، انتقلنا مع بذور الحضارة الغربية الجديدة إلى (البندقية) ـ التي أنا منها ـ لدفع عصر النهضة إلى أوجه. والآن رحل كل الهرامسة إلى وسط وغرب أوروبة، حيث (ألمانية)، و(فرانسا)، و(إنجلترة)، سادة الصناعة والاستعمار، والمؤشرات العميقة تقول إن الإخوان سينتقلون لعدد آخر من القرون، إلى حيث العالم الجديد في الغرب. (أمريكا).

ـ هذا تاريخ وربما مستقبل العالم تقريبًا. لكن ما علاقتكم بي؟

ـ أنت من نسل (توت) سيد الكلمة. أنت الوحيد المؤكد الآن حسب أبحاثي التي امتدت لسنوات.

ـ إذا كان هذا صحيحًا، فما أهميته بالنسبة لما أنا فيه؟

ـ أن تعرف أن أجدادك من الهرامسة، كانوا أول من اكتشف مؤامرة الآلهة المزعومة، وأول وآخر من تصدى حرفيًا لهؤلاء الأغراب، الذين استعبدوا الوثنيين على مر العصور، وأن هذا الساحر

المتحصن بجبل النار، ما هو إلا مخلوق مثلي ومثلك، ولكنه اكتسب وسط عالمنا أفضلية، ناتجة عن تطور حضارته، وطول عمره وخبراته هنا على أرضنا. لقد قابلت أباك، وعرفت منه بوجودك في (دنقلة)، وتحت إلحاح منّي علمت كذلك بأنه استطاع بالفعل قتل معظم الأغراب، باستثناء كبيرهم هذا. لقد ظللنا آلاف السنين نحاول الحد من تغولهم، صدهم فكريًا ومحاولة فضحهم، لكننا لم نستطع قتل واحد فقط منهم. وجاء والدك فقتل معظمهم، هذا يعني البشارة. أن الشر أخيرًا سينزاح. وأنك قادر على سحق آخرهم، ومنع أمم بنات آوى من الخروج. لا يفل الحديد إلا الحديد. لذا لم يقتلهم إلا ذلك الشر الذي جلبه جدك (ابن النحاس) من عالمهم، والذي طوروه كطاقة ذكية لكنهم فشلوا في التحكم فيه؛ وقد علم جدك أننا الهرامسة، أكثر من نعرف عن هؤلاء، الذين شوّهوا صورة سلفك الأول (توت) عبر التاريخ، وكان تشويههم المثير للعار والخزي، بأن جعلوا له رأس بن آوى ظلمًا وبهتانًا، ولم يكتفوا بهذا بل زوروا كتبنا أيضًا، وكلما برز عباقرتنا للعلن حثوا الملوك والحكام لحرقهم هم وكتبهم؛ ومع علم جدك بخبرنا، اتخذ من إحدى حكيمات الهرامسة زوجة، وهي الصوفية الطوارقية التي كانت طرف الخيط في بحثي عنك. اقتله يا (محفوظ) وانصر أسلافك. بل وانتصر للبشرية جمعاء، ضد من تعاون مع الشيطان الحقيقي عينه. خلصنا كي نبدأ عصرًا جديدًا من النور. وما حياتي وحياتك إلا نسمة صغيرة في سجل الأحياء حتى قيام الساعة.

الآن تذكرت نسبي، الذي قيل لي في الرؤيا فوق (لاسين):

«كان الأولُ توتَ.

فأنجب هرمسوت.

الذي أنجب أنونتوت.

وأنونتوت أنجب أشجوليم، وكان الابنُ البار لتوت الذي ما انفك حيًا، وساعده في مآثر زمن الطوفان.

وأشجوليم أنجب أنغسوت.

الذي أنجب ذا القرون، حافظ الأرض من البرابرة ليمنعهم من تجفيف أنهارها.

وذو القرون أنجب آرشبائيل.

الذي أنجب كوروشيل، ملك الجيوش والمناطق الأربعة.

وكوروشيل أنجب بعد عدة أجيال هرمسيل.

الذي أنجب بعد عدة أجيال جدك الأكبر الشيخ ابن النحاس، والذي تنتهي سلالته بوالدك النبيل (محفوظ النحاس)»

الآن علمت سر لعنة بن آوي. وتذكرت أيضًا كلام الدرويش:

«اعلم أن الساحر يؤذيك لكن عليك أن تتجاهله. إنه يدفعك للجنون»

«إنه يلبس عليك أصلك»

وأقسمت سرًا على أن أدك الهيروليغي بالجبل انتقامًا من شروره اللانهائية. خرجت به من التيه إلى الكهف، فارتعد لمرأى الهيروليغي القائد. قلت للراهب الذي بدأ يرتجف ويشحب لونه بشدة، بعد صمت معبّر، زاخر بالعاطفة:

ـ لن يمكنني أن أقتله قبل أن أجد والدي. أعلم أنه سيرسلني لعالم سبق أن دمره جدي، وأنه ثمَّ خراب ما يعتمد عليه كي يمنعني هذا من العودة، ولكني أعدك يا سيدي أن أكون مخلصًا لأجدادي، شجاعًا كسلفي الأول، وسأعود لقول الكلمة الأخيرة.

ـ ستصل. لقد رأيتك في حلمي العظيم تمتطي الرخ الرهيب، الذي يعبده هناك الملوك والبشر، لكن هناك خطرًا آخر مريعًا!

ولكنه لم يتمكن من التكملة، إذ زاد عليه الألم، فغفا ببطء وسلام بجسد مسجى، في غيبوبة ثقيلة قد تكون الأخيرة.

أمتطي الرخ ؟!

بعين الخيال حاولت تخيل المنظر العجيب لهذه الرؤيا. أنا فوق عنق رخ عملاق، يجوب عالمًا غريبًا. لكن كلامه غير المطمئن، أعادني من تخيلي لتساؤلي.

خطر مريع ؟!

ترى ما الذي تحمله الأيام، ورآه الراهب.

نظر لنا الهيروليغي وقال:

ـ دعك مما قاله هذا المخرف. سأنقله بعيدًا في هذا العالم. وكذلك سأفعل معك ولكن في عالم آخر. وزمن آخر.

وفجأة أعاد المخلوق سيطرته على الصخور، وأبرز من الأرض أعمدة صخرية غليظة، نبتت حول (لويزت) وسجنتها، وهو يستطرد:

ـ ولكن كما فعلنا مع حبيبة والدك، سأفعل مع حبيبتك.

ولم أستمر أكثر في استخدام لغة العقل، عندما حال بيني وبين (لويزت) حائل.

دمدمت، واستخرجت ظلي، وقد تغول وتعملق مع شدة الغضب والخطر المحيق، ولكني لم أسمح له بالتعقل كالمرة السابقة، ودمرت الأعمدة دون أن أصيب المحبوبة بسوء، وكان كلما دمرت بعضها نبت البعض الآخر، وتجمعت مادته الصخرية، كما تشكل اليدين الصلصال والعجين، بينما تتراجع بها الأرض وسط صراخها باسمي، متجهة نحو أخدود مخيف مظلم.

كان ينفيها.

وصرخت بكل قوتي:

ـ ليست هي.

وأطلقت للـ(نيريا) العنان.

سحقت الصخور بقوة رهيبة، حتى إن الأرضية نفسها تشققت وتفتتت من تحتي، وأنا أقفز من بروز لآخر، حتى وصلت لها واحتويتها، وسط زلزال عظيم، وقد انشقت الأرض خلفي، وانبجست فيها الحمم بفحيح رهيب، فصار الجو مفعمًا بالأبخرة وقد امتزجت بغبار الدمار، وانسحقت عشرات الوجوه في قاعدة الجدران، وذابت بطريقة غريبة، مطلقة صرخات خافتة وسط المصهور، بينما ظلت الصخور تتساقط من السقف.

وقال الهيروليغي باضطراب، والزلزال يتواصل لعدد أكبر من اللحظات، منذرًا بمزيد من الانهيار:

ـ توقف. توقف. سأنقلك الآن. ولكن لا بديل عن القفز. إنه قانون الطاقة. انتقالك سيحتاج لطاقة الحمم.

وبرزت ذراع حجرية الشكل غريبة ولكن بحجم طبيعي، بدت إلى جوار وجهه هائل الضخامة، كما لو أنها إبرة يمسكها فيل، وقد احتوت أصابعها على شيء صغير، لا تجدي معه إلا الأيدي العادية حتى تسيطر عليه، وصوبه نحونا في انتظار القفز، وللحظات فكرت في فكرة خاصة.

فجأة أطلقت طاقتي فبترت الذراع، وأطاحت بالشيء الصغير نحونا. ووسط صيحة عاتية من الهيروليغي، صرخت لها (لويزت) بشدة وهي تسد أذنيها وتسقط أرضًا، وثبت لالتقاط الشيء، وسقطت في الحمم بسرعة، ولكن الـ(نيريا) سرعان ما صنعت وسادة سائلة بيني وبين المصهور، تحركت بي إلى ضفة قريبة، وفتحت يدي لأرى الشيء الذي صرخ له الهيروليغي بهذا الجزع، وهو يقول بصوت خائف للمرة الأولى ربما في حياته:

ـ إنه الجهاز الذي سينقلك. فلا تفسده. بعد رحيل بقية السادة لم ولن أتمكن من صنع بديل له. إذا دمرته لن يكون بوسعنا التحكم في البوابة من هنا.

فتحت يدي، فوجدت هذه الأداة. معدنية في حجم مقابض السيوف، ذات طرف مستدق، وتشبه الزجاج الناعم في ملمسها، وفيها بروزان مستديران كأزرار بدلتي النورفولك، واحد باللون الزيتوني، والثاني باللون الأحمر، وسألته متعجبًا:

ـ وكيف يفتح هذا الشيء الصغير بوابة كاملة بين عالمين؟!

ـ إن الزر الزيتوني مسؤول عن تشغيل عدد من الآلات المحيطة بنا، إذا ضغطت عليه، وهي المنوط بها استخدام طاقة الحمم الحرارية لفتح البوابة. أما الزر الأحمر فمسؤول عن النقل أيًا كان مكان المراد نقله. سواء هنا أو خارج الجزيرة كلها، باستخدام مسار معقّد لنقل وتكثيف الطاقة، لتحليل الجسد بشكل خلوي، وإرساله عبر البوابة هنا.

نظرت إلى الأحجار الكروية الغريبة التي لاحظتها الآن فقط، والمنتشرة في الجدران على مستوى مرتفع، وتشع بنور باهت غير ملحوظ، إلا مع التدقيق المباشر، ثم ركزت بكل طاقة عقلي لاستيعاب الآلية المتطورة لهذا النقل، ولكن ذهني المجهد بعد ما لاقاه اليوم لم يسعفني، فسألته:

ـ وأين هذه البوابة؟

صمت ولم يحر جوابًا. ترجمت لـ(لويزت) ما تبادلناه بالعربية، ثم مددت ذراعي فوق الحمم القريبة، واحتملت حرارة اللظى بقامة منتصبة، وحدقت فيه وأنا أهدده بصمت، بترك الآلة الغريبة ببساطة. فعاد إليه اضطرابه، وأسرع يقول:

ـ انتظر. إن البوابة في قلب الجبل. في جوفي.

رمقت فمه الهائل المظلم في دهشة:

ـ في وجهك؟

ـ إنه ليس وجهي بنفس المعنى. لقد تغلغلت خلاياي في الجبل، وأصبحت جزءًا منه. يمكنني الآن ردم الحمم بالصخور، ولكن قدرتك اللعينة أثبتت أنها أسرع مني.

ـ سأستخدم الشيء بنفسي. سأصوبه نحونا، وأنقلنا بالضغط على البروز الأحمر.

ـ دعني أنا أفعل هذا، لو انتقل معك أو سقط في الحمم ربما تغلق البوابة إلى الأبد على هذا الجانب، وتفشل في العودة. لا تنقل نفسك بنفسك.

لكن المرحوم (درويش) قد كُشف له الحجاب.

ولا مناص من أن أنقل نفسي بنفسي.

وتطلعت إلى عيني (لويزت) بنظرة المودع. الذي يرجو ويتضرع في نفس الوقت، كي يتخلى عنه حبيبه قبل فوات الآوان.

ولكنها فهمت حديث قلبي، فتحسست عروة سترتي، وهمست:

ـ لن أتركك. قديمًا تركت العالم من أجل المغامرة معك، الآن أترك العالم والمغامرة، من أجلك وحدك.

أمسكت بالأداة، وصوبتها إلى جسدينا، وأنا أتشبث بها بقوة، قائلاً:
ـ تعالي. هاتي يدك. وأغمضي عينيكِ.
وضغطت الجهاز.
صرخ الهيروليغي صرخة جبارة، تفتت لها أعضاء جسمينا، أو هكذا ظننا ونحن نثب في الحمم، للحصول على الطاقة بتلك الطريقة الغريبة والفريدة.
وشعرت بروحي تنسحب وتنطلق كالطلقة إلى فمه الواسع المظلم، كما لو أنني أسقط من حالق داخل حارتنا؛ وقد قاتلت للإحساس بأنني أحتوي رفيقتي. وهناك احتفظ وعيي فقط بلقطة سريعة كالبرق، خاطفة كطرفة العين، لكرة معلقة في قلب (إتنا)، تعكس صورًا لأرضين وجبال، انزلقت روحانا فيها كانزلاق قطرات الندى فوق الأوراق الناعمة.
من أجله.
ومن أجل الحب.
* * *

إلى اللقاء مع تتمة (رحلة السماور):
(ملك أوريوم)

ملحق

موسوعة العالم الخرب

كي تكون أحد مواطني (أوريوم)، ليس أمامك من سبيل إلا المعرفة!
المعلومات التالية، المرتبة أبجديًا، وضعت للمزيد من فضول عشاق عالم (أنون)، كما أُطلق عليه زمن المماليك، أو (عالم القمرين) كما لقبه الجن البحري، أو (العالم الخرب) كما اصطلح عليه الجميع بعد الكارثة العظمى. وللمزيد من التعمق:

(أ)

أبالسة: الإبليس مفترس فائق، لم يشهد العالم له مثيل، ويستطيع مباغتة الرخ العظيم نفسه إذا نام الأخير في مكان منخفض. ينحصر انتشاره في أدغال النطاق (نطاق المنايا) لوفرة الطرائد، له قوام وذكاء شبه بشريان، وفراء كثيف، ويتجاوز حجمه المتر عرضًا، والمترين طولاً، ومزود بحاسة شم جبارة، وحاسة رؤية ليلية خارقة، وهما تعوضان افتقاده التام لحاسة السمع، فهو يحيا في صمت تام، له حوافر قوية، ومسلح بعضلات متينة جدًا، ومخالب صلبة طويلة جدا، ووجه سبعي أقرن، وفك ذئبي قوي للغاية، بحيث إنه يلتهم ضحيته حتى العظام وبقدرة تامة على التكسير والطحن والهضم، يجيد التسلق والعدو، ويحيا منفردًا وليس في جماعات، ويعتقد أن أنثاه تقتل ذكرها بعد التلقيح إلا إذا هرب منها ونجا بحياته، هناك ثلاث حالات مسجلة للناجين النادرين من البشر الذين تعرضوا لهجوم الأبالسة، وقد أصيبوا بأمراض قاتلة من مجرد لمساتهم وعضاتهم. بقية عاداته صعبة الدراسة، لاستحالة مراقبته دون أن يفتك بك.

(بئر الأبالسة): هو جُب فيه أحد الأبالسة تم اصطياده حيًا على يد واحد من أمهر الصيادين والملقب بالمغوار الثاني، وعلى نحو فريد من نوعه لم يحدث من قبل، فصار البئر طريقة إعدام رسمية في أسوار (ذنب العقرب).

أراضٍ نحاسية: مستقر إمبراطورية قارة (أوريوم)، الدولة الكبرى، والتي يسيطر السادة عليها بكل ثرواتها المعدنية التي اكتشفتها الحضارة الهيروليغية القديمة، وتقع في أقصى الغرب، من محيط الشمال شمالا إلى المحيط النيميروسي وخلجان العذراء في الجنوب، ومن مرتفعات السادة في الشرق، حتى المحيط الأسود غربًا. عاصمة الأراضي النحاسية أسوار (الخوان). تتميز بعدم استقرار الأرض وكثرة الهزات الأرضية.

وأهم مدنها: (عرين النمر)، (الحلوف الذهبي)، (فحم الليل)، (المدينة الحديدية)، (البيت الأثري)، (الخوان الغربي). أهم البلدات والأماكن التي مرت بها عصبة السماور في الأراضي النحاسية: (داجيل)، (زيسانو)، (لاسما)، (آبرامسيلا)، (خثر)، (قلعة الغيلان الذئبية).

أسبيراتز: الحكيم الأكبر في بلاط (الخوان)، له لحية بيضاء هائلة، ويحمل القراطيس في ملابسه الخضراء الفضفاضة. زيّ الحكماء. من ضمن مهامه تلاوة مراسم الترحم الأميرية على قتلى قائمة عشاق (فلاديوسا)، ورعاية الأسير المحترم والحكيم (نوفيو).

إليادور: وحدة قياس جغرافية لدى حكماء (أوريوم)، وهي شديدة الاتساع والضخامة بمقاييس عالمنا، وهي على الخريطة مربع طول ضلعه 5600 كيلو متر، أي أنه يساوي 31360000 كم مربع، وتقطع جياد العالم الخرب الخارقة، قرابة ألف وأربعمئة كيلومتر في اليوم الواحد، أي إليادور كامل في أربعة أيام بالتمام والكمال. يقول (النحاس) الابن شارحًا: «على سبيل المثال منطقة نفوذ الثيران أربعة إليادورات. من (هيروليما) في الشمال الشرقي، إلى خليج (السراطين) في الجنوب الغربي، ومن نهر (الوحل) في الشمال، إلى خليج (الأيمة) في الجنوب. أي اثنتا عشرة مرة ضعف مساحة (أوروبة)!».

أوريوم: قارة عملاقة مهولة، متعددة الأقاليم. كتلة عريضة على الخريطة هي الأعظم بين القارات الأخرى، يخترق شمالها بشكل أفقي أطول أنهارها (القمر)، على شكل حدوة مفتوحة جهة الشرق، نابعًا من بحيرة (القطط الزرق) العذبة في الجنوب الشرقي، ثم يصب في البحر المتجمد الشمالي، وبالقرب من (المتناوحة) جنوبًا.

تتقاسمها عدة أجناس وأعراق ويطلق على الأجزاء المعمورة منها (المسكونة) وأحيانا الأسوار. في الشرق منها يقع جبل الصهريج الناري ويسكنه الزنوج، ووادي (الخيول المدرعة) حيث المهرطقين، في الغرب بعد مرتفعات (السادة) تقع عاصمة الحلاليف (الخوان) أكبر الأسوار/الممالك، في أقصى الجنوب الغربي خلجان العذراء وتتناثر فيها قرى فقيرة، والجرف شديد الانحدار نحو البحر (الذي شهد أولى معارك الحرب العامة، بين أسطولي الإمبراطور والحورية)، وتكثر الانهيارات الأرضية في الأراضي النحاسية بسبب انتشار الكهوف والمغارات والتجاويف الباطنية، أما في أقصى الشمال الشرقي والشمال لا لون غير لون الثلج. ولا سكان غير قبيلة الضواري وأسوار النوارس. في الجنوب الدافئ عدد من الأسوار المزدحمة مثل (ذنب العقرب) و(الأيمة) و(الفنار الجنوبي) و(المتناوحة).

أوسيزور الجاروليوسي: الإمبراطور (أوسيزور الجاروليوسي)، سليل (جاروليوس الحفار) أحد الملوك الخمسة المقدسين. من ألقابه: إمبراطور أسوار (الخوان)، وخان الأراضي النحاسية، وسيد (أوريوم)، وملك السادة، وعظيم الحلاليف. وهو أهم حاكم في القارة العظمى، والقابض على زمام أكبر جيوشها، إذ يبلغ تعداد الجيش النحاسي قرابة المئة ألف جندي، موزعون على عشرة فيالق. ويحكم من صرح (الخوان) الهائل الارتفاع، فوق عرشه من الرخام الأبيض والأزرق، مرتديًا جمة من حرير ذهبي فوقها عباءة من الكتان. له شارب كث، وذريته من الإناث باستثناء (فينالیا)، التي يفاجئه (النحاس) الابن بأنها ولي عهده.

نسبه: أوسيزور بن جاليث بن هاور المتعجرف بن مورانش بن كوهر بن شالين بن فرين الكبير بن ماجولا الهادئ بن والسو الحاذق بن جونس الأشقر بن مونتر الأعسر بن هازجير بن بالجا بن جارولیوس المقدس.

إيفسنتير: ابنة (أوسيزور الجاروليوسي) وشقيقة الأميرة (فلاديوسا). زوجها أبوها بشكل سياسي لأحد حاكمي (ليسيبيا) مدينة الكهوف، والذي يدعى (ليبيدو لجاديو أميكوليوم) الأرضي. الحاكم الابن.

آيميريوس هيميريوس: أو (المحاجي)، أحد أبرع فرسان الجن البحري، وهو مساعد وجاسوس المغوار الثاني. يتناول عظام البشر كبني جنسه، صموت، دائم تلميع الحواف الحادة لطبره المزخرف الذي يسميه (سافك)، لا يمكن اكتشاف شخصيته إلا في مواقف بعينها، ولا يبادر بالتكلم إلا في ما ندر أو عند إجابته على سؤال مباشر، عندها ينظر مباشرة إليك بعينيه الفيروزيتين ضيقة الحدقات، وينتشر صوته في كل مكان كما لو أنه لا ينبعث مباشرة من فمه، بل وحتى جسده البشري الشكل عملاق الحجم ليس شكله الحقيقي، بل هيئة مزيفة كي نستوعب وجوده، لا تقتله أسلحة البشر مرافق لـ(النحاس) في رحلته المستحيلة صوب الينبوع الفضي.

الأيمة: عاصمة شعب الثيران، وتقع وسط مستنقعات الرغام الكبرى، وتنضوي تحت رايتها عدة أسوار وبنادر حليفة، يربط بينها (طريق الثيران)، مثل بندري (مستنقع الضباب) و(هيروليما) في الشمال الشرقي، والأول يحكمه (آل روداز)، والثاني الأقرب لموضع معركة (كل الأسوار) يقوده (آل مالتوريا)، ثم بندري (أرثوزا) و(التل الزلق) في الشمال الغربي، والأول يحكمه (آل سيليمنت) أو (الموحلين)، حيث يقع بندر (أرثوزا) ـ مسقط رأس (نوفيو) القديم ـ على نهر (الوحل) مباشرة، بينما يحكم الثاني بيت شهير بثراؤه اسمه (آل كو)، ثم أخيرًا أسوار (غابة السماء) في الجنوب، شرق غابات (الثور) العظيمة، ويحكم هذا البندر (آل بيليت) ابناء عمومة (ميفراتور) ملك الثيران.

يعبد معظم سكان المستنقعات (الثور البدين)، وهو البيزون الموشك على الانقراض، ويليه في الأهمية (الملوك الخمسة). وهم الأكثر اهتماما على مستوى المسكونة بتبجيل وتقديس المعبودات، ونحت الطواطم والمعابد لها، مستغلين مهارتهم المعمارية المتفوقة، لذا يتمتع الكهنة أو (رجال الآلهة)، بمرتبة كبيرة في نظام الحكم والإدارة، تكاد تتجاوز مرتبة ونفوذ رجال البرلمان الأيميين، ومعظمهم من نبلاء التجارة والاقتصاد.

ملك الثيران هو (ميفراتور المقدس) الملقب بـ(مصافح النجوم)، سليل (ديقور الغاضب) مؤسس المملكة ذي الأصول الهيروليغية. ابنته الأميرة (موردا المجنونة) هي قائدة جيش الثيران، والمشهورين باسم (رماة المستنقعات). وهم الأبرز في الرمي، حتى إن حاميات المدن التجارية الخمس تستعين بهم.

(ب)

برابرة: البرابرة، همج رحل خطيرين، يتمركزون شمال قارة (أوريوم)، وعندما يضيق الحال ببعضهم، ينزحون فرادى أو مجموعات، لنهب مؤونة القوافل، والبلدات والقرى غير المؤمّنة، وبسبب اتساع المسافات بين هذه القرى، صاروا من آكلي لحوم البشر كذلك.

الهمج: أما الهمج المسلسلون فهم برابرة القارات الأخرى، وهم أكثر حيوانية من برابرة (أوريوم)، بسبب تداخل أصولهم مع المسوخ السود، ويتم أسرهم لاستخدامهم كمجدفين في بواطن السفن. يقول الجنوبي (رارما بن زاركا):

«هم أهلنا من نفس الأجداد، ولكنهم فقط مرضى بداء الوحشية. تداخل أصولهم مع المسوخ، جعل أبدانهم وفكوكهم أضخم، وآذانهم مسحوبة، ولغتهم ثقيلة».

بطل الأراضي النحاسية: وسام يمنحه الإمبراطور إلى أبطال السادة، وخاصة العشاق الذي يضحون بأنفسهم من أجل نيل رضا ابنته الأميرة (فلاديوسا)، والتي ترتبهم هي في قائمة خاصة.

بولبا: (بولبا) الحورية، ابنة (فارينا) الحورية، ابنة (زابيرا) الحورية المؤسسة واحدة من الملوك الخمسة المؤسسين والمقدسين وسليلة قارات (السبعة الصغار)، وهو ذات اسم سلالتها الحاكمة، وهي قائدة الجنوبيين من سكان أسوار (الفنار الجنوبي) العاصمة وأسوار (النوات)، في جزيرتا (عينا الرخ)، وهي قائدة أسطورية الجمال، لا تسقط عليها أعين رجل مكتمل الذكورة، إلا وسقط في هواها الى الأبد.

قادت (الحلف الجنوبي) في الحرب العامة.

بومات: البومات السبع هن أمهات/حاكمات لعمالقة سلالة (جبل النار)، في حجوم البشر ولكنهن عجائز للغاية، جعلهن طول العمر والبيئة القاسية، شديدات القسوة والمكر والشر، استغللن انخفاض القدرات العقلية للعمالقة الثلاثين للتحكم فيهم. وأسماؤهن: (المحنية دائما) و(بيضاء الشعر) و(المجعدة الجلد) و(الصارمة جلست) و(القبيحة الثرثارة) و(القبيحة الصامتة) و(البومة الأم).

بيزون: ثور عاشب عملاق، وزنه يتجاوز الطن بكثير، ويرتفع لمترين ونصف تقريبًا، له قرون طويلة وشهية هائلة، انقرض في أدغال (المنايا) بسبب المفترسات، كالأبالسة والرخ العظيم، وآخر ما تبقى منه عدد محدود بحوزة أسوار (الأيمة)، كمطايا عظيمة للقادة والأمراء، وكحيوان مقدس أحيانًا. كان يستعرض به وقت الحروب ودخول الأسوار على مدار التاريخ، بدلا من الخيول العادية. معبود رئيس تحت اسم (الثور البدين) بالنسبة لشعب (الأيمة)، ومحرم قتله.

الأميرة (موردا) قائدة جيش الثيران، محاربة غريبة الأطوار، مشهورة باستخدامها بيزون ضخم، جميل، ونادر.

(ت)

تقويم نحاسي: وضعه (نوفيو المحترم) لظروف عمره المديد، وحسب التقويم النحاسي المستمدة أسماء شهوره وأيامه من تقويم (أوريوم) الغربية، منذ عهد الشعب الأزرق، فالأشهر بالترتيب تبدأ: بشهر (دال) ومدته مئة يوم، بخلاف بقية الأشهر وكلها أربعة وعشرين يومًا، وهي أشهر (أهول)، (سادون)، (الرخ)، (شارماراند)، (ماجران)، (نيفاشتا)، (ساوو)، (نيميروسيوس)، (شاجين)، (ووروز)، (آما)، على الترتيب. أما أيام الأسبوع الستة فهي: اليوم (الأبيض)، فـ(السماوي)، فـ(الحريري)، فـ(المعشوشب)، فـ(الأسمر)، فـ(الذهبي).

تي كواريو: الكونت (تي كواريو) متنبئ من طراز خارق، يمتلك مرآة أشبه ببوابة تطل على عوالم أخرى، تتيح رؤى مستقبلية خاصة. وهو عظيم قلعة (الغيلان) ذو الأعين الذهبية البراقة، تلك القلعة التي اكتسبت سمعتها من خدعة الدمى المنتصبة في شرفات القلعة ليلاً، مغطاة بالفراء المحترق، ولها هيئات مسخية مخيفة، ومن أمره لخادمه (شورا) في النهار تعذيب دابة في القبو؛ حتى يظن المار أن بالقلعة غيلان حقيقية. من أغرب أفعاله واختلالاته، احتفاظه بجثة زوجته وعشيقته الكونتس (كريتا) محنطة، على أحد عرشي القاعة الرئيسة، واستمراريته في مخاطبتها كما لو أنها على قيد الحياة.

كان في شبابه قبودان شهير في المحيط النميروسي، قبل أن يتوجه للدراسة في (مدرسة الحكماء)، وهي مدينة جامعية قديمة. تنبأ لأحد بحارته من حمر الشعور، بنبوءة خطيرة يرتبط فيها مصير حفيدته بحلول جلباب الليل، ومن ثم العاصفة الثانية الماحقة.

(ج)

جاش الظريف: الزنجي العملاق من سلالة (جبل النار). مرافق لـ(النحاس) في رحلته المستحيلة صوب الينبوع الفضي.

جارولیوس الحفار: (3949 - 4200 ن)، مؤسس السلالة الحاكمة لشعب السادة، وأحد (الملوك الخمسة) المقدسين، وأحد (الملوك الثلاثة) العظماء.

أهم أعماله تشييد أسوار (الخوان). ومن مآثره التاريخية إجماع كلمة الملوك الخمسة لحفر خندق (الحذر)، الذي هو أضخم عجائب هذا العالم الخرب، وذلك لمنع نشوب أزمة عالمية بسبب الينبوع الفضي، الذي لم تفهم شعوب ما بعد الخراب، أنه آخر لمحات الحضارة وحكمة عصر الأخلاق، واستمر الحفر لمدة قرن كامل منذ 4000 ن أو سنة الخراب، فسمي القرن الخالي من الصراعات والكوارث بـ(قرن السلام).

يذكر كتاب (تاريخ الأعمال الحربية) أن حروب التسعمئة عام (نزاع 4101 ن - 5584 ب)، بدأت في عهده بالحروب الفنارية الخوانية السبع. ويمتد هذا النزاع الطويل في مجمله حتى 5005 ن (عام الهدوء)، الذي وصلت فيه (ملك جهان) للعالم الخرب.

أشهر هذه الحروب هي الحرب الأولى، التي شنت فيها (زابيرا الحورية) هجومًا شاملاً على نفوذ الحلاليف، في نصف (أوريوم) الشرقي بكامله، وذلك سنة 4102 ن، بعد شعور قائدة جزيرتي (عينا التنين)، وزعيمة الجنوبيين، بأن (جاروليوس) خدع الكل بحفر الخندق حول الينبوع، واحتفاظه هو بالأسير المحترم؛ وقد فشلت مفاوضاتها سنة 4101 ن لتداول الحكيم (نوفيو) بين أسوار (الخوان) و(الفنار الجنوبي)، وكذلك فشلت محاولتها اختطاف الأسير، وتسبب الهجوم المباغت في تعرض أساطيل الخوانيين لكسرة فاحشة، خاصة وأن السادة لم يكونوا على تحالف مع الأرضيين أو الشماليين حينذاك، ما مهد مباشرة للحرب الخوانية الفنارية الثانية عام 4199، والتي سيطر فيها الإمبراطور على الطريق التجاري البحري بين الأراضي النحاسية والمدن التجارية الثلاث وقتئذ (انضمت أوزاع وطروقة فيما بعد)، ولكنه قضى نحبه في نهاية الحرب عام 4200 وله من العمر إحدى وخمسون ومئتا سنة؛ أصيب فؤاده بالجرب كما يقول الأوريوميون، فكان نصرًا بطعم الهزيمة بالنسبة للحلاليف.

الجُحر: مربض (الجحر) منطقة كهفية تقطنها الدببة العاقلة (الضواري)، وتقع أقصى شمال شرق قارة (أوريوم)، على محيط (الشمال)، وشرق (الخليج الأبيض)، وشمال شبه جزيرة (رأس الدب). يقول الوحش (سقارس) كبير الدببة العاقلة، مخاطبًا (النحاس): « ـ حول مربضنا. تتناثر حقول (الجلاميد الجليدية)، وفي (الخليج الأبيض)، تنتصب (الأمواج الجامدة)، شاهقة، ملساء. وقد تجمدت بغتة منذ مئات السنين. هنالك نحن فقط من نواجه عنكم المسوخ، الذين تسبب الصقيع والبرد في إبطاء تكاثرها. هنالك. نحن الأخيار. وقد وهبتنا الطبيعة هذه الفلسفة. فلسفة (البقاء أحياء). هنالك تحتمي بنا جماعات البشر الصغيرة، والحيوانات المسكينة، بما يوفره مربضنا من مأوى وغذاء، ومعاطف الفراء. في العواصف الثلجية المستمرة وحدها، ستتعلم حكمتنا..»

جن بحري: جنس قديم جدًا، نشأ في قاع المحيط (النميروسي)، ثم لم يلبث أن استوطن البر ببناء مدينة (المتناوحة) العاصمة البرية بعد البحرية بقرن. كانوا سادة (أوريوم) قبل تزايد عدد البشر، حتى ظهر (سالحادور الفاتح)، وأسس (هيروليغا)، وانتزع البشر منهم السيادة. وسنة الخراب 4000 بالتقويم النحاسي (ن)، تعد بالنسبة لتقويمهم البحري سنة 5483 (ب).

يمكن للجني الواحد فيهم التشكل في هيئات متعددة، كهيئة البشر، أو هيئات منمنمة لا تلاحظ بالأعين بسهولة. يعبد الجن البحري (سيهوج) إلهة الجن البحري، وتقام لها (الصلاة الكبرى) عند تنصيب ملك جديد، أو قبل النزوح الوقائي إلى (التوأم)، ثم بناتها الأربع (نكباء) و(جرباء) و(ريدانة) و(نافجة) ولكل منها وظيفة معينة، فالأولى تقام لها صلاة الجاسوسية، والثانية صلاة الحرب والتي يؤديها الشعب كله، والثالثة صلاة الطيران، والأخيرة صلاة السرعة.

وتحكم سلالة (برنسبس الملتمع) الجن البحري منذ بداية عصر الأخلاق، بقيادة الملكين الزوجين والشقيقين في نفس الوقت، (إكسمبلار الثامن) و(سوميسي الثالثة). معظم الجيش جواسيس في أوقات السلم، وقائده المباشر (بروبا زخاروبا).

مدينة (فاغية) ضمن المدن الخمس التجارية هي منفى الجن المتمرد، حيث يحبس في قماقم نحاسية مختومة بالختم الهيروليغي المسحور، السلاح الوحيد تقريبًا القادر على قتل الجن أو حبسه، ولقد اكتشف في قلعة الساحرات على خليج السراطين، بعد استخدام الساحرات لسحر الأشجار السبع.

يرهبهم بعض البشر، لأنهم يتغذون على العظام الحيوانية، وهم لا يمانعون في التهام العظام البشرية كذلك، ولكن يندر العثور عليها بكميات مناسبة! ويطلقون على الفواكه والخضراوات (غرس البشر)، ولا يأكلونها لأنها تضر بصحتهم.

(أرتيجان ماريجان): جني بحري. النذير القائد، الذي يقطن إلى الأبد برج (النذير)، المقام فوق جزيرة (مهبط العاصفة)، أول مكان جنوبي مأهول يحذر من اقتراب (جلباب الليل)، أو الظلام الذي يسبق العاصفة الكبرى المنتظرة منذ ألف عام.

(ح)

حذر: أضخم عجائب العالم الخرب، وقد حفره العمالقة برعاية الملوك الخمسة وعلى رأسهم (جالوريوس الحفار)، لإحاطة الهضبة المحظورة إحاطة السوار بالمعصم. وهو أكبر عوائق (نطاق المنايا) المحيط بالينبوع الفضي، للحؤول بينه وبين الطامعين في حكمة مياهه المذهلة.

عرضه يزيد عن الميل (أكثر من ألف وخمسمئة مترًا). الجدران الداخلية مائلة بزاوية مقدارها ثلاث وتسعون درجة تقريبًا، بحيث يكون القاع أضيق من الفوهة. العمق يفوق الأمتار الخمسة والعشرون. المادة المبطنة بها الجدران مادة زجاجية داكنة لكنها تلتمع بشدة، وناعمة بطريقة تدعو للانبهار، إذ إن هذا جعلها مستحيلة التسلق بالنسبة للوحوش التي في قاع الخندق.

الحرب العامة: أو حرب المسكونة، أو حرب كل الأسوار. نشبت أواخر عام 5006 ن، بين عدد من الأحلاف المتنابذة، فوق (الأراضي المحطمة) جنوب الهضبة المحظورة، وتمركز في شمال وغرب ميدان المعركة (حلف السادة)، تحت رايات الحلوف والبرج الجليدي والأفعى، وفي الجنوب والشرق كان (الحلف الجنوبي)، تحت رايات الكراكن وشعاع البرق والوجه الصارخ، وفي الشمال الشرقي (حلف الصيد) تحت راية العقرب ذات الذنبين، وفي الجنوب الغربي (حلف الثور الغاضب)، تحت رايتي الثور والسوط ذي الشُعب.

أشعل المعركة (حشمسون المهرطق)، ودارت بداياتها رغم حلول (جلباب الليل)، ولم تتوقف رحاها إلا بهبوط (النحاس) الابن فوق رخه، ومعه سماور الماء الفضي، وتاج الملك العام.

حُمر الشعر: قرية من القُرى الإبريسمية السبع، وهي الأقرب لمدينة (إبريسم) التجارية الحرة الكبيرة، حيث تقع القرية شرقها على الساحل الجنوبي لـ(أوريوم)، والمطل على المحيط النيميروسي أو الدافئ، ولا يفصل بينهما إلا النهر الإبريسمي.

تتخصص في الصيد البحري والنهري. وكان حمر الشعور مقسمين لثلاث عائلات رئيسة، لا يدخل بينهم دخيل، عائلة (ثام) التي تتولي صيد أفراس النهر، وعائلة (مام) أبرع صيادي فيل البحر، وعائلة (زام) وهم أهل تجارة ومال، والمسؤولون عن نقل إنتاج العائلتين الأخريين لبيعه في المدينة الكبيرة.

وكانت عائلة (مام) الأكثر مرحًا بين العائلتين الأخريين، فيفضل أبناؤها الرقص والموسيقى والتفاؤل، بينما يغرق الثاميون والزاميون في التشاؤم، والخوف من غارات البرابرة، والطقس الضبابي السيئ، وكساد حركة البيع. وبين الماميين توجد نبوءة (حمر الشعر)، التي تنبأ فيها الكونت (تي كواريو) باندثار حمر الشعر، مع انتهاء عهد السادة، بالتزامن مع (جلباب الليل) الذي يسبق العاصفة الكبرى الثانية، وتقول كلماتها التي وجهها لمؤسس عائلة (مام): «يرحل السادة قبل المسوخ، ويأتي الطاغية مع صفير العاصفة، ولا يكون الخلاص إلا على يد حمراء الشعر، ذات الشعرة الذهبية، فيسعى لتقويضكم كلكم، حتى يظفر بها. هي من ظهرك أنت يا (مام)».

(خ)

خارميل: أحد قمري العالم الخرب وأحد المعبودات، مأهول بالمسوخ ذات الحضارة السوداء، وهي الوحوش التي لا تشبع، والمحتجزة تحت ووسط جباله الوردية، لها أجساد الغيلان ورؤوس مستديرة شديدة الصلابة كالتروس. وتقول الأسطورة إن المسوخ سوف تهبط إلى العالم الخرب من (خارميل) داخل صخور خاصة، وسيلتهمون كل شيء، الرجال والخيول والحقول، وإنهم سيهبطون إبان العاصفة الثانية.

فلكيًا، يقترب القمر من مدار الكوكب ببطء عامًا بعد عام، وتضربه النيازك الجبارة بمعدلات متزايدة. وقد سقطت منه صخرة بالفعل محملة بالمسوخ، ولكن فوق قارة غربية اسمها (فاما)، بعيدة عن المسكونة.

الخراب: سنة 4000 بالتقويم النحاسي، هبت على معظم (أوريوم) العاصفة الكبرى الأولى، واستمر هبوبها الساحق عام كامل، تسبب للأسف في تدمير الحضارة الهيروليغية وعاصمتها الذهبية (هيروليغا المستنيرة)، في عهد ملكها (خلكادور المعظم)، بعد عشرين قرنًا من النمو والتطور العلمي، لتتكون مكانها مستنقعات (الرغام) هائلة المساحة؛ ولا يتبقى من هذه الحضارة الرائعة التي سادت عصر الأخلاق، سوى الينبوع الفضي في قلب القارة، و(الأعجوبة) أو قطار المعادن في الغرب، وبعض الكتب التي ترجمها (ابن النحاس) إلى العربية، فظنتها شعوب ما بعد الكارثة أنها اللغة الهيروليغية المنقرضة.

خفاش الفاكهة: خفاش مدرب على المراسلة بين الأسوار، ولا تملكه إلا السلالات القوية، بسبب ندرته وتكلفة تدريبه ورعايته. يمكن للوطواط البريدي مثله أن يقطع مسافات كبيرة بسرعات عالية جدًا، إذا توفر تيار (الفضاء الخارميلي) الجوي، إذ يمكنه الطيران بشكل هائل السرعة، في قلب التيار، وبسرعة تفوق سرعة الجياد الخارقة بعشرين ضعفًا على الأقل. تفترسه في الطبيعة طيور (البغاث الشاكوشية).

خلكادور المعظم: سليل متأخر لـ(سالحادور الفاتح)، وآخر ملوك أسوار (هيروليغا). جاءت أيامه في نهاية عصر الأخلاق، إبان الخراب العام (4000 ن سنة الخراب)، عندما وصل (النحاس) الجد وساهم في تدمير الحضارة الهيروليغية. تسبب (خلكادور) بشكل غير مباشر في الخراب، عندما ساعدت أوامره على مقتل (ثد) زوجة (ابن النحاس)، وإشعال غضبه المريد.

تلى رحيله مباشرة سقوط (هيروليغا)، وبدء (قرن السلام). وهي مئة عام من الهدوء، الخال من الكوارث والحروب، أعقبت العاصفة الكبرى.

الخوان: عاصمة شعب السادة/الحلاليف، الذي يستوطن الأراضي النحاسية، في غرب قارة (أوريوم). وصرح (الخوان) هو مقر الحكم، وهو عبارة عن برج شاهق، وقصر منيف يحمل شعار الحلوف. وسجون (الخوان) في أعماق قاع البرج. أطلق على المدينة اللفظة الهيروليغية/العربية (خوان)؛ عندما نصب لمؤسسيها القدامي خوانًا للطعام، ولكن عندما تأخرت الوليمة، ولم يتحول الخوان لمائدة عامرة، أطلق على المكان كله الخوان. وهي المائدة الخالية من الطعام. وللمدينة أسوار ضخمة سميكة جدًا، حتى إن الأسوار نفسها مكتظة بقرى الجنود، ومعسكراتهم، ككل أسوار الممالك الكبرى. تبسط (الخوان) سيطرتها كاملة على الأراضي النحاسية، وكل سواحل (أوريوم) الغربية، ومتحالفة مع أسوار (الشمال) و(ليسيبيا). هي الإمبراطورية الأغنى والأكثر تطورًا، حتى إنهم يمتلكون (الأعجوبة) آخر سكك حديد باقية من العالم البائد، لسرعة نقل مستخرجات المناجم من نحاس وذهب وفحم الى المعامل (تعمل بطاقة البخار ومكلفة في الإصلاحات)، ويسمى الطريق الشمالي الرئيسي المنطلق من (الخوان) حتى مناجم (جارولويوس)، على اسمها، طريق (الأعجوبة).

الطرق الرئيسية الأخرى، طريق (المحيط) الممتد نحو الغرب حيث المحيط الأسود، وفي الشرق طريق (الحلاليف) الموصل حتى أسوار (ليسيبيا)، وفي الجنوب (الطريق المعبد) الذي سلكته قافلة (النحاس).

ورثوا السيادة من بعد انهيار سيادة الهيروليغيين القدامى، إثر الكارثة العظمى.

(ذ)

ذنَب العقرب: تقع أسوار (ذنب العقرب) جنوب (أوريوم)، ويشتهر الحصن بكونه مستقَر العقارب أو المغاوير، أشهر صيادي طرائد في المسكونة، وهم بلا أسماء، بل مرقمين، فقائدهم هو (المغوار الأول)، يليه قائد جيشه (المغوار الثاني). وهكذا دواليك. شعارهم العقرب ذات الذنبين، وهي عقرب مدربة عندهم فقط، ولهم في هذا فنون وأسرار، حتى إن كل منهم يحمل واحدة في حزامه.

أرشدهم (النحاس) الابن، فشقوا قناة من نهر (الذَنَب)، شرق عاصمتهم، لمعاونتهم على زراعة الأرز، وأطلق عليها (النحاس) اسم (أوججي)، بمعنى (البطل) في اللغة النوبية. فضلاً عن إشرافه على تطويرهم ـ مضطرًا ـ عسكريًا، وإستراتيجيًا.

(ر)

الربيع: تيار (الربيع) البحري، يعتبر أسرع تيار مائي في العالم الخرب، ويساعد على سرعة حركة السفن بشكل مهول، ويوجد في الأساس في المحيط النيميروسي، جنوب قارة (أوريوم) العظمى. سرعته ثلاثة أضعاف سرعة الجياد الفائقة.

رخ: اسم النسر الذي يتتبع (النحاس) الأب وترى (ملك جهان) عبره (محفوظ النحاس) من العالم الخرب، ومن ثم ترشده اليها. وهو وليف الأب منذ اشتراكه في حرب (القرم).

الرخ العظيم: طائر عملاق في العالم الخرب، لم يستطع مخلوق أسره تقريبًا، ومن يصنع من عظامه تاجا يحكم العالم، ولذا تقدسه معظم الشعوب، وهو مفطور على ألا يقرب الرضع أو من يحملون رضيعا، له عنق طويل كجمل عملاق، لون عنق فرخه شديد البياض مطوق بصفرة، أما بقية جسده فمتعدد الألوان ويغلب عليه لون التراب الأحمر، وعند البلوغ يكتسب ريشًا أزرقًا، زاهيًا، جميلاً، يغطيه بالكامل. هو مخلوق فريد ولا مثيل له، ويحيا الواحد منهم بين 500 الى 1000 سنة، وفي نهاية حياته يجثم على عشه في استكانة وغموض، حتى شروق شمس اليوم التالي، وهو عاجز عن الحركة مغردًا لآخر مرة بصوت خفيض حزين، مثير للبكاء، ويقال إنه عندما تطلع عليه الشمس، تتزايد درجة حرارته الداخلية بطريقة متسارعة، حتى يحترق تمامًا، وعندما يتحول لرماد تخرج يرقة صغيرة من وسط البقايا، لتتحول بعيدًا الى فرخ رخ آخر.

روفالديا: شقيقة الأميرة (فلاديوسا)، زوجها أبوها الإمبراطور (أوسيزور) بشكل سياسي لحاكم أسوار (الشمال)، العاهل الحليف (سكابوليوس) العادل، ملك النوارس.

(ز)

الزرق: أو الشعب الأزرق؛ كان يحيا في سلام حول الخلجان العظيمة، تحت قيادة الملكة العذراء، وفي عبادة الربة العارية، إلى أن فرقهم غزو الأراضي النحاسية بددًا. يقال إن سبب لون دمائهم الذي يميل للون الأزرق، أن أسلافهم هم أصحاب الدم الأزرق، وهم نوع غامض من البشر، تكتنفه الأساطير، فتارة يحكى أنهم رجال قساة، كان يقودهم رجل يطير بمركبة في قارة (انجورجيتو) المجهولة، وتارة يحكى أنهم نسوة شقراوات، نجت منهم واحدة، ينسب إليها شقراوات (ماليش).

كان الجيش يتميز بتجربة تعايش نادرة، ولم تتكرر في التاريخ، إذ كان الجنود من الجنسين، كل جندي له زميلة، يحترمها، وتحترمه، بحيث يقاتل كل زوج، بينما يحمي كلاهما ظهر الآخر. سخر الحلاليف من هذا، وآمنوا أن سبب انتصارهم على الزرق،

عندما تم تسميم الجيش سنة 4160ن في (ليلة السم) الشهيرة، ليس المكيدة والخيانة، بل وجود النساء في ميادين الحرب.

زمان أول: الزمان الأول هو (عصر الأخلاق)، ويمتد لألفي عام قبل الخراب، ويؤرخ الحكماء بدايته بسقوط السادة القدامى من الجن البحري، وتأسيس عاصمة الهيروليغيين، بينما وضعت الكارثة نهايته وبداية (عصر الخراب).

سمي بالأخلاق بسبب تميز معاصريه بالعادات الحميدة، والحرص على الشرف والفروسية.

قال (نوفيو) ضمن حواره التأريخي الطويل أيام سجون (الخوان):

ـ «قبل ألفي سنة من الخراب العام، أي سنة 2000 ن بالتقويم النحاسي الذي وضعته، وحد (سالحادور الفاتح) قبائل (أوريوم) المتناحرة، وأسس العاصمة الذهبية (هيروليغا المستنيرة)، وهو أقدم شخصية تاريخية تدرس لأبناء النبلاء في أسوار المسكونة».

لمزيد من فهم خط الزمن، وتقسيم الدهور والأحقاب، راجع مختصر (الأيام القديمة)، عقب الموسوعة.

(س)

سالحادور الفاتح: موحد قبائل (أوريوم) وفاتحها. مؤسس (هيروليغا) العاصمة الذهبية، ومدينة الربيع. أهم أعماله انتزاع سيادة الجن البحري، وتأسيس (هيروليغا) المستنيرة سنة 2000 ن. بدأ عصر الأخلاق (الزمان الأول) مع نهوض الحضارة الهيروليغية على يديه، ولم تظهر في عصره أية قوى في القارة العظمى بأكملها، إلا فلول الجن البحري في الجنوب، والزرق المسالمون في الغرب. تدرس أعماله المقدسة للأمراء وأبناء النبلاء في أسوار المسكونة كافة.

أرسى (قاعدة المُلك) العام، عندما استطاع أسر طائر (الرخ) المتوحش منذ ثلاثة آلاف سنة، صانعًا من بعض عظامه تاج المُلك، ومن بعده لم تخضع المسكونة لحاكم وحيد، لعدم حصول أي ملك على تاج من عظم الرخ. حتى فعلها (النحاس) الابن.

سقارس: وحش أرض الثلج وعظيم الضواري. له جسم دب قطبي عملاق، وقرون وعل، وتاج حديدي فاغي، وهو أطول من (النحاس) بمترين ارتفاعًا. تلقبه الدببة العاقلة بـ«الوحش (سقارس) الممزق الأكبر، رب الدببة العاقلة، وحش (أرض الثلج)، عظيم مربِض (الجُحر)».

سماوَر: وعاء ذو صنبور أو أكثر تحفظ فيه السوائل الساخنة، وقد سلمه الحكيم (نوفيو) لـ(النحاس) الابن، ليحفظ فيه ماء الينبوع الفضي، وقال له: «هذا السماور من نفحات السادة الراحلون، ومن آخر الأشياء التي احتفظت بها قبل الخراب. وماء الإكسير الشريف لا يصلح أن يحتويه إناء عادي، بل هذا السماور الملكي المصنوع من سبعة معادن مختلفة. هو لك».

(ش)

شبحية: حالة من تغير المادة، من الحالة الآدمية لأثير من طاقة كالأشباح، تصيب زوار العالم الخرب، بعد مدد غير معروفة من بقائهم فيه طويلاً، وقد أصيب بهذا (النحاس) الأب، والنبيلة التركية (ملك جهان)، في سجون صرح (الخوان)، فانتقلا كشبحين لـ(وادي الحيرة) وكل الأشباح ـ حسب رواية الحكيم المحترم نوفيو ـ أقصى جنوب شرق (أوريوم)، ينتظرون الدينونة.

(ص)

صاجوت: نمر الإمبراطور (أوسيزور) الشخصي، المروض، سيفي الأنياب، وهو مفترس ضخم نادر، يتواجد في غابات (الثور) وبراري الأراضي النحاسية الشاسعة. يقوم بحراسة الإمبراطور في رحلات الصيد، والجلوس بجواره في القاعة الإمبراطورية عند استقبال الوفود والسفراء، لتشاؤم الإمبراطور من حضور غرباء انتحاريين قادرين على النيل منه. ويقوم (صاجوت) بإنقاذ الإمبراطور في النهاية في أثناء رحلة الرخ.

الصغيرات السبع: أو (الصغار)، هي سبع قارات تقع جميعها شرق قارة (أوريوم) في المحيط (الأسود)، يسرى بينها بحر (الصغار). يقول الحكيم الجنوبي (غورغا) عن القارة الأولى:

«أنت تعرف (ويليك) وأدغالها الممتدة من الساحل للساحل، تمرح فيها الميموريا، وأنها أولى القارات الصغيرات من بعد الأرخبيل الشرقي، الذي يصلها بـ (أوريوم) في المحيط الأسود. تعرف معقلنا الأخير هناك، والمعرض لهجمات الهمج بشكل شبه يومي».

وعن القارتين الثانية والثالثة:

«(المرضى) يوجدون في بقية القارات، ولكن بندرة شديدة في (زاليك) و(جوشليك) أقصى الشمال، قرب محيط (الشمال) المتجمد، الأولى يعني اسمها في لغتنا المندثرة قارة (براكين الثلج): (ليك) قارة، و(زا ـ آلي) براكين الثلج، وندمجها في كلمة واحدة (زاليك).، وهي اسم على مسمى، حيث تملأها الجبال القاذفة للثلج بدلا من النار، وتجوبها (عظاءات الجليد) العملاقة، والثانية قارة (الأنهار المتيبسة)، مصدر الوباء، وحيث هبط المسوخ السود من الجبال الوردية، التي تزين (خارميل) المقدس في الليالي المقمرة، ويتميز

سطحها الأكبر بين بقية القارات الصغيرة، بالشفافية المنبسطة حتى الأفق، ويضيء ليلاً عاكسًا لمعان بللورات الثلوج الجوشلية، متنوعة الألوان، صانعًا أغرب وأجمل مشهد ممكن، لولا وجود المسوخ التي لا تشبع».

وعن القارتين الرابعة والخامسة:

«العواء الذي تسمعه الآن بسبب نوة الموتى، هو أهم معالم قارتنا الثالثة (شيليك)، جنوب (زاليك)، ولكنه هناك عواء حقيقي، من حناجر حيوانية عميقة التردد؛ فـ(شيليك) تعني (قارة الذئاب)، حيث تنتشر القطعان الهائلة بطول القارة وعرضها، فوق سهول لانهائية، من العشب والحشائش والأحجار، وهي من الكثرة حتى إنها تأكل بعضها بعضًا. إلى الجنوب منها (روليك) أو (بحر الجبال)، إذ تتجاوز قممها الثلجية أعلى قمم (أوريوم)، وتتجاور سفوحها أكثر مما تتجاور مرتفعات السادة، بلا أي وديان أو سهول، وتحتوي على أنظمة كهفية أوسع من كهوف (اللجمة) وأضخم، فهي قارة الجدران في بعض ألقابها، والقارة المجوفة في أخرى. الروليكان كانوا أعظم متسلقي الجبال في التاريخ، ويقال لمهرة التسلق في (أوريوم): لقد أوتيت من خفة الروليكان».

وعن القارة السادسة. مورليك:

«هي (أرض الأشجار). وأشجارها كما نعرف ليست كأي أشجار شمالاً، في القارة العظمى، إذ أن الراكب حول أحد جذوعها العملاقة، بحاجة لساعتين كاملتين حتى يصل لنقطة الانطلاق، بأقصى سرعة لحصانه، لذا أطلقوا عليها اسم (أشجار الآلهة)، وتتمدد أغصانها المهولة فيما بينها، صانعة سقفًا كونيًا من الخشب الصلب، ما زال يحمل قصور ومنازل وحوانيت المورليون القدماء، سادة النحت والنجارة».

وعن القارة السابعة والأخيرة:

«(سوبليك) هي أرض السواحل بالفعل. الرمال في كل مكان بأطرافها، ويروى أنها كانت آخر موطئ قدم لنا، قبل وصول الوباء لها، بتزامن غريب مع الخراب المشؤوم، ولكن (زابيرا الحورية) المقدسة كانت قد أعدت العدة لهجرتنا إلى هنا، بعد أن تحورت على شواطئها الخلابة مؤسسة سلالة الحوريات، لهذا أطلقنا على هذا البوغاز اسم القارة الأخيرة، التي جمعت أجدادنا يومًا فوق الصغيرات السبع. أما في القلب من (سوبليك) فتلتهم البحيرات العذبة معظم الأراضي، وتنتصب على ضفافها أطلال آخر منجزات حضارتنا، من أبراج وقلاع حجرية».

الصهريج: جبل هائل له عدة قمم وفجوات بركانية، يقع في شمال شرق (أوريوم). قبل سنة 3000 بالتأريخ النحاسي، كانت تقطن سفوحه قبيلة من الزنوج، وتسببت حملة علمية عسكرية في إبادة معظمها، وفي التمهيد للكارثة العظمى، التي تسببت في انقلاب مغناطيسية العالم ذو القمرين كله، ونشر طاقة (النيريا) حول الجبل، وتضخم حجم الزنوج حتى صاروا عمالقة مردة، تتجاوز أطوالهم الثمانين قدمًا، ويتنقلون عبر المسافات البعيدة، باستخدام أفيالاً حرشفية تفوقهم ضخامة.

سنة 4000 ن، أو (سنة الخراب)، تسبب (ابن النحاس) في تدمير أمل الهيروليغيين في البقاء، وفي أثناء العاصفة الكبرى الأولى، هاجم الزنوج لينتقل إلى عالمنا عبر طاقة جبل (الصهريج)، وتعرض الزنوج لمذبحة ثانية لكن من فرد واحد، مسلح بآخر جرعات طاقة (النيريا).

وفي نهايات سنة 5006 ن، زار (النحاس) الابن زنوج الجبل الثلاثين، وأمهاتهم البومات السبع، واستطاع تجنيد واحدًا من أهم عناصر فريقه، وهو العملاق (جاش الظريف).

(ض)

الضواري: دببة متحورة عاقلة، على هيئة الدببة القطبية، لكن بقرون وعول كبيرة، وقد أنشأت أكبر قبائلهم (القبيلة المعدنية) قرية أو مربض (الجحر)، أقصى شمال شرق القارة العظمى، وأطلقوا على جنسهم اسم (وحوش أرض الثلج). وللدببة العاقلة حكيم محتمل يعمل لحسابهم في مدينة (فاغية)، وقد زودهم بالختم المسحور الممنوع تداوله، والقادر على قتل الجن البحري.

قبل الغزوات الكبرى، ينتظرون حتى يتضورون جوعًا، ثم يطلقون (زمجرة الحرب) عشر مرات، قبل الانطلاق والهجوم. شعارهم دب يمزق فقمة، ولقد التقى (النحاس) الابن بكبيرهم (سقارس الوحش)، الملقب بـ«الممزق الأكبر، رب الدببة العاقلة، وحش (أرض الثلج)، عظيم مربض (الجُحر)».

(ع)

عالم خرب: أطلق عليه هذا الاسم بعد كارثة عظمى أطاحت بحضارته قبل ألف سنة على مجيء (محفوظ النحاس) الأب، وسبب الخراب جد (محفوظ) الأول الشيخ (ابن النحاس). يطلق عليه الجن البحري اسم (عالم القمرين). الكوكب فيه إحدى عشرة قارة، القارة العظمى (أوريوم)، والقارات الهمجية العشر الغارقة في جهلها ووحشيتها بعد الخراب العام، وهي الصغار السبع في الشرق: (سوبليك)، و(مورليك)، (جوشليك)، (روليك)، (زاليك)، (شيليك)، و(ويليك) بينهم بحر (الصغار)، والقارات المتوسطة الثلاث في الغرب:

(إنجورجيتو) الزرقاء أو الأرض المجهولة، وإلى الجنوب منها (إديسا) و(فاما) العامرتان بالبهارات الباهظة. ونادرًا ما تقترب منها سفن (أوريوم)، فقط في حالتي الوفرة السمكية واللؤلؤية، أو لاصطياد العبيد المسلسلين.

عالم أنون: تسمية (النحاس) الجد وعلماء (لشبونة) للعالم الخرب، وهي تسمية غير دقيقة.

العفريت: أشجار العفريت، نوع من الأشجار غير المثمرة الموجودة على أطراف (المفازة) و(الوادي الدموي)، وهي كئيبة المنظر، ذات جذوع سود مجعدة، وأغصان رمادية غير مورقة، حادة الزوايا بشكل غريب، تؤوي بعض أنواع العناكب الصحراوية.

أشجار القدر: تشبه أشجار العفريت في الشكل، ولكنها لا تنبت إلا فرادى، كما أنها تتنفس حية، وتهمس بالمستقبليات.

العذراء العظيمة: أو خلجان العذراء الست. خلجان هائلة، أو بحار بمقاييس عالمنا، تحد قارة (أوريوم) في جنوبها الغربي، وهي بالترتيب من الغرب للشرق:

خليج الرمال (الخليج الأول): وأهم بقاعه (الشاطئ الأزرق)، و(صدر المحيط).

خليج عذراء الرمال: بين شبه جزيرة الرمال، وشبه جزيرة (ليمير)، وأهم بلداته: (فيجور)، (ليث)، (لير).

خليج عذراء الماء: بين شبه جزيرة ليمير وشبه جزيرة (لوهان)، وأهم ثغوره (ميناء العبيد)، و(الترسانة الإمبراطورية)، وبلدتي (لوهير) و(ليمير). يصب في شماله نهير (التمساح).

خليج العذراء الثالثة: بين شبه جزيرة لوهان، وشبه جزيرة (العذارى) وأرخبيل (العذارى)، وأهم بقاعه (محلة الآلهة)، و(لوهان).

خليج عذراء الكواكب: بين شبه جزيرة العذارى وشبه جزيرة (روغول)، وأهم بقاعه جبل (الكواكب)، و(خثر)، وقلعة (الغيلان)، وخرائب (روغول)، و(حاطبو الليل). يمتد في المحيط (الأسود) حتى الجزيرة (المعلقة).

خليج العذراء الطويلة (الخليج السادس): هو الأكبر، ويمتد من مرتفعات (السادة) وحوض نهر (الدموع)، وحتى جزر (الربيع)، وأهم المناطق المأهولة القريبة منه: أسوار (ليسيبيا)، (مدرسة الحكماء)، (الحلازين)، (التل الزلق) في الشمال، (الشجرة الوحيدة)، مصب نهر (العذراوات) في الجنوب.

(غ)

غزوات التوابل: حملات عسكرية تقوم بها قوات الحلاليف، للحصول على الهمج (العبيد المسلسلين) والتوابل من قارات الهمج خارج (أوريوم). اقترحها (نوفيو) الحكيم على أباطرة (الخوان) المتعاقبين، لتحسين الاقتصاد المنهار من بعد الخراب.

الغيلان الذئبية: مثلهم مثل رجال النجوم وبنات آوى والأفاعي الطائرة، مخلوقات أسطورية، أو حقيقية لكن تقادم بها الزمان، وتكفلت القصص الخيالية في تضخيمها، فصارت تذكر في حكايات نساء (ليمير) لأطفالهن، وفي بقية البلدات في الخلجان العظيمة، حيث ساد الشعب الأزرق قديمًا. واستخدم الكونت (تي كواريو) الأسطورة لردع الطامعين في قلعة (الغيلان).

(ف)

فضاء خارميلي: تيار (الفضاء الخارميلي)، تيار هوائي خارق السرعة، يجعل خفافيش الفاكهة البريدية وطيور الرخ على السواء، يقطعون مسافات هائلة بسرعات فائقة. في حالة عثورهم عليه بين طبقات الجو العليا، يمكن للوطواط مثلاً أن يقطع خمسة إليادورات في يوم واحد فقط، والإليادور يساوي عند حكماء (أوريوم) 31360000 كم مربع.

فلاديوسا: الأميرة (فلاديوسا) جميلة جميلات (الخوان) وابنة الإمبراطور (أوسيزور الجاروليوسي) حاكم أسوار (الخوان)، وهي مهووسة بعقد مسابقة انتحارية لمن يستحق الاقتران بها من جموع عشاقها، ما تسبب في مقتل مئات الأبطال والفرسان والنبلاء، من أجل الظفر بزيجتها. تسقط سرًا في حب المغوار الثاني.

الفنار الجنوبي: أسوار (الفنار الجنوبي)، عاصمة الجنوبيون، وتقع في جزيرتا (عينا الرخ)، تحديدًا في الجزيرة الغربية الأكبر (العين اليسرى)، ويربط بينها وبين (العين اليمنى)، وتحديدًا بمدينتها الوحيدة (النوات)، طريق (جسر الحوريات)، الذي يصل بين الجزيرتين فوق مياه المحيط النيميروسي، حيث تقع مملكة القائدة (بولبا الحورية). ومن اسم العاصمة يشتق أحيانًا لقب (الفناريون) لسكانها من البحارة.

أهم النوات التي تهب على (الفنار الجنوبي): السموم، ذات الصواعق، الرجفات، الشراع، الدرقات، القارسة. وأخطرهم على الاطلاق نوة الموتى.

فينااليا: الرضيعة ابنة إحدى سجينات (الخوان)، وكانت أمها واحدة ممن حملن سفاحًا من الإمبراطور، وقد قررت مطالبة الإمبراطور بالإنفاق عليها بسبب فقرها الشديد، ولكنه رفض مجرد الرد عليها، وعندما هددت بفضحه ـ رغم الإشاعة المعروفة عنه بانجابه للإناث فقط ـ أمر (هوريندوز) بسجنها رغم عدم مبالاة الإمبراطور نفسه، ومع المصير الأسود الذي ينتظر الأم، قررت منح الرضيعة لرحلة (النحاس)، لأنها مهمة كما أوصى (نوفيو) لسبب ما سيظهر فيما بعد، وهو قدرتها على ردع طائر الرخ العظيم، الذي يحب الرضع ويتركهم في سلام هم ومن معهم! والمفاجأة التي تتعلق بها، أنها ليست أنثى بل ذكر، تعرف (لويزت) المكلفة بحملها ورعايتها هذا، ولكنها تخفيه عن (محفوظ) لسبب ما، وبهذا ترتفع أهمية (فيناليا) فجأة بصورة فائقة، لأن الذكر أهم من الأنثى في موضوع ولاية العهد الإمبراطورية، وتكون سببًا لنجاتهم من بطش الحرب العامة على يد (أوسيزور) في النهاية. مرافقة لـ(النحاس) في رحلته المستحيلة صوب الينبوع الفضي.

(ق)

قائمة قرمزية: (القائمة القرمزية) لقب لحزمة من الموبقات، كالعربدة والفحش والسرقة والقتل، وهي تنتشر بين شعوب الأسوار، لعدم وجود نظم للبوليس المدني.

تليها في الخطورة (قائمة التجار): وهي أيضًا مجموعة جرائم، لكن في نطاق المال والتجارة، كالربا والغش التجاري والاحتكار والاحتيال... إلخ.

(ل)

لاترو: (لاترو الخاشع) ناسك شهير وخطيب، ومبشر في أسوار (الخوان)، يلقبه السادة بـ(النبي)، وهو يدعو أتباعه من الفقراء لعالم أفضل، بدون حروب أو مظالم أو شهوات، يذكر الحلاليف بعصر الأخلاق، وتأتي نهايته باغتيال سياسي خطط له الفيكونت (هوريندوز). يتعرف بشكل ما على (النحاس) الابن. يجيد الهيروليغية القديمة.

من أقواله التي سمعها (النحاس) عندما مر به:

« ـ إن عقولنا الصاغية أحطاب، جمعتها قوة أسمى منها، لتستدفئ في ساعة سحر بليل بارد طويل. لتصيخ لها السمع. تأتنس بها. بطقطقاتها. طقطقتها أفكارها، وشراراتها أفعالها».

لتر إتر: كابتن السفينة (الخارقة) الفيجوري الأصل، وهي السفينة التي نقلت (النحاس) ورفقته من ميناء (خثر) وحتى قلعة (الغيلان الذئبية)، عبر الخليج الرابع من خلجان العذراء، خليج (عذراء الكواكب). وهو من مدينة (فيجور) الواقعة على الخليج الأول (عذراء الرمال)، أقصى غرب خلجان العذراء العظيمة.

(م)

المتناوحة: أو (أرض الجن)، عاصمة الجن البرية، وقد شيدت سنة 1383 ق. ن وتوزاي سنة 100 ب أي قبل 6383 سنة من وصول (النحاس)، وذلك على منحدرات جبال (الريح) الرأسية، والتي يستحيل غزوها من قبل البشر بسبب انحدارها غير الطبيعي، وتوجد تلك الجبال جنوب شرق (أوريوم)، عند بداية لسان (الكوبرا)، المكونة تربته من عظام ملايين من حيوانات الكراكن الجبارة آكلة الحيتان، وتشير نهاية (اللسان العظمي) كما يلقب أحيانًا، لموضع العاصمة (التوأم) في قاع المحيط، والمشيدة سنة 1483 ق. ن أو قبل النحاس، قبل قرن من العاصمة البرية؛ وإن كان اسمها الأصلي ليس (التوأم) بل (مدينة الجن)، ولكن شاعت تسمية (التوأم) لتشابه تضاريس المدينتين، كما يؤكد سفراء الجن البحري. وأيضًا على الرغم من أن العاصمة البرية قد سميت بـ(أرض الجن)، إلا أن تسميتها الهيروليغية الواضحة، شاعت بدورها بين البشر بسبب الطقس العنيف، الذي صار علامة مميزة لجبال (الريح) بعد الخراب، ولخليج (العواصف) كله الذي تطل عليه هذه الجبال، والذي يصب فيه الفرع الغربي لنهر (الجان) بعد اختراقه (المتناوحة).

مجنوريس: طبق متحضر هو الأفخر في العالم. مكون من لحم الخنازير والخضراوات المتبلة، وسبب سعره الباهظ اقتصاره على منطقة (الأراضي النحاسية)، واستخدام التوابل التي تأتي عبر غزوات حربية خوانية خاصة، خارج قارة (أوريوم)، تستهدف أشجار البهارات في قارتي (إديسا) و(فاما) البربريتين، وأيضا بسبب انهيار الحضارة ومعها فن الطبخ، وكذلك وجود أزمة غذائية في العالم الخرب كله.

المدن التجارية الخمس: مدن اقتصادية مستقلة، ذات حكم ذاتي، مزودة بحاميات خاصة، وتقع كلها على ساحل المدن الخمس جنوب (أوريوم)، والمطل على المحيط النميروسي، وهي من الشرق للغرب (فاغية)، (إبريسم) الأكبر، (طروقة)، (أوزاع)، (مبذلة)، ولا يعبد سكانها إلا نقود القرش الذهبي. يقول الأسير المحترم (نوفيو) الحكيم:

«أما بقية المدن فهي (مبذلة) أحط المدن الخمس، وحاكمها (ري تولتو) السكير والد الفيكونت (هوريندوز) القاس، وأحد عشاق (بولبا) الجنوبية أيضًا. ومدينة (فاغية) المشهورة بصناعة السيوف والدروع. حاكمها (جاريول الخوسي) شقيق ملك العبيد، ثم (أوزاع) مصدر أوبئة وأمراض العالم الخرب، بسبب صناعة دبغ الجلود ببول الجياد وبراز البشر هنالك، حتى أنها تلقب أحيانًا بـ (أوزاع القذرة). حاكمها (شاكري المهرطق) أخو (حشمسون) غير الشقيق، وأخيرًا (طروقة) الجميلة ذات الأهرامات العشرة، وحاكمها هو (مولور) من سلالة (ديقور) الثور الغاضب».

المصراع: أشجار المصراع خشنة الأخشاب، غليظة الجذوع جدًا، حتى إن سكان (داجيل) يحفرون فيها الغرف والحوانيت، تبرز أغصانها على ارتفاع ثلاثة أمتار، بينما قد يمتد الجذع عاريًا من الغصون والأفرع لعشرة أمتار أخرى، وتنتشر في جنوب وغرب (أوريوم). تؤوي أعشاش طيور البصاق الخضراء.

المغوار المؤسس: الملقب بصائد الرخ العظيم، والذي يعد أحد (الملوك الخمسة) المقدسين، وقد سن لقومه سنة عدم التسمي لأن البيزونات لا أسماء لها، فقط الترتيب تبعا للمهارة ثم النفوذ كالمغوار الأول والثاني... إلخ.

ينحدر المغاوير مباشرة من (المغوار المؤسس)، الصياد التاريخي الشهير الذي اصطاد رخًا بمفرده، ولكن العاصفة الأولى هبت في الوقت غير المناسب، ففقد عظام الرخ، وبالتالي كان ثاني مرشح يمكن أن تطبق عليه قاعدة المُلك العام من بعد (سالحادور الفاتح)، ولأنه امتلك شهودًا على صيده الثمين الضائع، بقوا أحياء بعد الخراب، فقد ساعده هذا على ادعاء الملك المحدود على أمهر صيادي

البراري، فلحق بعض رجاله بملحمة حفر الخندق الكبير لتشريف العقارب، وبقى الآخرون لتشييد قلعته (ذنب العقرب). يلقبون بالعقارب لترويضهم الخارق للعقارب مزدوجة الأذناب، ويتميزون بعدم الخوف من الموت، ومقت ركوب البحر، ولا تحظى علاقاتهم مع الثيران بأي ود، وينضم كبارهم تلقائيًا كي يكونوا مرافقي صيد ملوك وحكام الأسوار والقلاع الكبرى في (أوريوم).

مغوار أول: حاكم أسوار (ذنب العقرب) وسليل (المغوار المؤسس). كان في شرخ الشباب مرافق صيد للإمبراطور (جاليث) والد الإمبراطور (أوسيزور)، واستحق ترتيبه لصيده الكراكن الجبار ذات مرة، حتى إنه فقد إحدى عينيه في أثناء هذا الصيد، فصار أعور، يمقت شيبته، ويحن باستمرار لأيام الصيد المجيدة.

مغوار ثان: المغوار الثاني ككل سلالة المغاوير لا اسم له، بل ترتيب رقمي يدل على الكفاءة واحتراف الصيد والقنص، وفي حالته فقد اشتهر بصيده لإبليس حي، وهو الصيد الذي لم يكن له مثيل، فقفز ترتيبه من السادس عشر للثاني في الحال. وهو قائد جيش العقارب شعب أسوار (ذنب العقرب). يحترم ثقافة القوة، ويقدر العنف كأبناء جلدته.

من رجاله المغاوير: السادس (قوي الأعصاب متجهم) والثامن عشر (قصير سريع ودمث ودقيق الملاحظة، قتل في هجوم الأخوية بالأيمة) والعشرون (نحيل وعنصري، كسرت ساقه في معركة الضواري) والواحد والعشرون (طيب ظريف ودميم وثرثار). مرافقين لـ(النحاس) في رحلته المستحيلة صوب الينبوع الفضي.

البيوت التابعة لسلطة العقارب: آل (فرا) في بندر (الذنب)، وآل (قوزو) في بندر (غابة العقارب)، ويختلفون عن (ذنب العقرب) في اتخاذ وجهائهم للأسماء. كان آل (لانو توبو) في بندر (هالام) شمال البحر اللزج، تابعين لسلطة المغوار الأول قبل ثمانمئة سنة، ولكن الصراعات الداخلية تسببت في ضم الفناريون لـ(هالام) عام 4288 ن.

الملوك الخمسة: هم الملوك المتحدون لدرء حربًا عامة طاحنة، وذلك بحفر خندق (الحذر)، ومع تعاقب الدهور اتفق الناس على تقديسهم. بالنسبة للعالم الخرب كله هم (جارولیوس الحفار) مؤسس إمبراطورية (الخوان)، و(زابيرا) الحورية موحدة شعوب القارات السبع الصغار، و(برنسبس الملتمع) سيد الجن البحري غير المؤسس، ثم (ديقور) عظيم الثيران ذو الأصول الهيروليغية، والملقب بـ (الثور الغاضب)؛ لكونه أول الخارجين من التحالف بعد حفر خندق (حذر)، وخامسهم (خوس النخاس) ملك العبيد. ولكن بالنسبة للمغاوير فهم يرون أن (المغوار المؤسس) وصائد الرخ العظيم، أحد الملوك الخمسة بدلاً من الثور الغاضب.

الملوك الثلاثة: يقدسهم البعض اختصارً للخمسة، وهم (جارولیوس) و(زابيرا) و(برنسبس)، الذين نمت سلالاتهم وجيوشهم بشكل فاق بقية القوى.

ممر النجاة: معبر بين عالم (النحاس)، والعالم الخرب. ويعمل (نوفيو) الحكيم على مخطط الممر منذ مئات السنين. أطلق عليه الهيروليغيين (المجاز)، فكان الأول الذي نشأ بالمصادفة (المجاز الأول) وظل مدمرًا، مفتوح بشكل جزئي، ثم (المجاز الثاني) الذي كانوا يعدون العدة لفتحه إبان وصول (ابن النحاس).

(ممشى الزمان): الاسم الذي يطلقه الجن البحري في ثقافتهم على المعبر بين العالمين، والذي كانوا قد توصلوا لفتحه عبر (الطاقة الفضية) الغامضة، وتمكن بواسطته والد (إكسمبلار) و(سوميسي)، من العبور إلى الأرض زمن سيادة الجن، ومساعدة ملك الأرض في حرب قديمة، وترك سلالة من الجن البحري هناك، قبل أن يرجع ويغلق الممشى ويحرم استعمال الطاقة الفضية.

مهدم: (المُهدِّم) هو الاسم الذي يطلقه سكان العالم الخرب على الشيخ (ابن النحاس)، الذي تسبب في انهيار حضارتهم القديمة في نهاية الزمان الأول. الحضارة الهيروليغية.

سليل المهدم: (النحاس) الابن. وأطلق عليه في العالم الخرب ألقاب أخرى، مثل: (الزائر)، (العاشق 404)، (رجل السماور)، (رجل الظلال)، (ملك التاج). نطقت (لويزت) اسمه بطريقة أوروبية: (مافوز)، ونطق بعض المهرطقين اسمه سماعيًا: (ناهاس).

مهرطقون: فرسان (وادي الخيول المدرعة). وعظيم (معسكر الفرسان) هو (حشمسون المهرطق)، أفضل مرتزقة للعائلات والبيوت المستقلة والمدن التجارية، وأبرع مبارزي سيوف فوق صهوات جيادهم، والتي تعد بدورها أفضل أنواع الجياد الأصيلة، القوية، والشجاعة، في المسكونة، حتى إن مراكز تبديل الخيول لا تعتمد إلا عليها في الطرق الطويلة، عبر تجار (أوزاع) من مستوردي الجياد.

يلقب عظيمهم بـ«فارس الفرسان (حشمسون)، منكر الآلهة، وسليل (أثيرميون) المهرطق الأول». يعشق سب آلهة العالم الخرب، ولا يستثني إلا آلهة الجن البحري، بسبب غرامه بملكتهم (سوميسي الثالثة)، رغم ارتباط الأخيرة بأخيها! يتسبب في اندلاع أولى معارك حرب كل الأسوار، بعد انضمامه لحلف (الجنوب).

يتميزون بحبهم للجدل، وشعارهم الوجه الصارخ. وإذا نفق لأحدهم جواده الخاص، فإنه يلقي بنفسه في بركان (البرد واللهب)، أو ينتحر بلقاء الضواري أو الذئاب المتحورة.

كان منهم (فولوغدا) وجواده (بانولو)، وقد رافق (النحاس) الابن في الجزء الأخير من رحلته نحو الينبوع الفضي.

ميموريا: جياد نارية اللون لها قرون وحيدة قصيرة، ولوامس كهربية تبرز من جوانبها، يستجلبها ويروضها الجنوبيون فقط، بالحصول عليها من قارات الهمج، وذلك لتجر وتقود عربة حربية خاصة اسمها (العربة الخارقة). وتبرز من عجلات هذه العربة رماح طويلة قوية ذات رؤوس ونصال ثلاثية ورباعية حادة، تدور مع دوران العجلات، في مستوى صدور الجياد ورؤوس الرجال، مما يعني أنها قادرة على تمزيق العشرات إذا ما اندفعت بينهم. ويكفي جواد (الميموريا) بمفرده في صعق عشرات آخرين بلمسات سريعة، وكانت (العربات الخارقة) قد استخدمت في حرب الأسوار العامة للمرة الثانية منذ معركة الضواري.

تقول الأساطير الخاصة بمجلس قيادة آلهة القارات الصغار، والمسمى بـ(أبناء سادون)، إن رب الشرار (سادون) شخصيًا هو من أوجد (الميموريا)، عندما ود معاقبة ابنه المحارب ورب الأبطال (شاجين الأحمر) على معصية ما، فنزع منه الخيل العادية، ومنحها للبشر، وأجبره هو على ركوب (الميموريا) بلا ترويض، فتظل تثير سخطه طوال الوقت بلوامسها اللاسعة.

(ن)

نطاق المنايا: سوار جغرافي في قلب (أوريوم)، يتكون أساسًا من خندق (حذر) المحيط بالهضبة المحظورة، وما يحيط بالخندق من أدغال خطيرة، تنتشر فيها (الأبالسة) المفترسة وطيور (الرخ). وخارج الأدغال توجد مناطق مقفرة، مثل (الوادي الدموي) وصحراء (المفازة) شرقًا، و(الأراضي المحطمة) جنوبًا، و(الصحراء الحمراء) المخيفة شمالاً وغربًا.

نوفيو: معمر من (أرثوزا)، يحيا منذ مئات السنين، رغم أنه يبدو كرجل في بداية الأربعينات، وذلك لأنه شرب قطرة من ينبوع الحكمة، وهو أسير في سجون صرح (الخوان)، لكنه أسير من طراز خاص، إذ يعمل في نفس الوقت على مشروع (ممر النجاة) العملاق، لإنقاذ البشرية في عالمه الخرب، ونقلهم الى (عالم المُهدّم)، لذا يلقب بالأسير المحترم. أسس (مدرسة الحكماء) منذ مئات السنين، لإعادة تخريج حكماء لأسوار المسكونة، وتقع على خليج (العذراء الفارعة) جنوب أسوار (ليسبيا)، وقد اجتمع فيها حكماء وسفراء الأسوار، لمناقشة أخطر قضية مرت بالعالم الخرب منذ الخراب العام، هي حلول (جلباب الليل).

يمكنه الاتصال عقليًا بإنسان يجلس قبالته، كما فعل مع (النحاس) الابن، أو حتى لو كان في عالم آخر ما دام هناك وسيط يعرفه، كما فعل مع (النحاس) الأب عبر (ملك جهان)، وذلك كجزء من هبات الينبوع. يجيد الهيروليغية القديمة.

نيريا: أو الطاقة الإلهية المقدسة كما سميت، نتجت عن كارثة قام بها علماء هيروليغيون عند جبل (الصهريج)، وما تبقى منها سيطر عليه (ابن النحاس) في زيارته للعالم ذي القمرين، وظلت سلالته ترثه، حتى وصلت الـ(نيريا) لـ(محفوظ محفوظ النحاس).

نيميروسيوس: (نيميروسيوس) معبود الجنوبيين، وهو اله المحيطات ومخلوقات الكراكن الجبارة، الذي يحمل رمح مهول في شعار الجنوبيين، ومن اسمه اشتق اسم المحيط (النيميروسي) الجنوبي الدافئ. أشهر أبناء رب الشرار (سادون)، في عائلة آلهة القارات الصغار السبع.

(هـ)

هوريندوز: وزير خمسيني أول لإمبراطور (الخوان)، وقائد لجيوشه، يلقب بالفيكونت (هوريندوز القاسي). يرتدي ثوب أرجواني حربي قصير، مرصع بدروع بيضاء عليها نقش دقيق لخنزير بري، وهو شعار السادة. أصلع، وله شفتين نحيلتين قاسيتين، وعينين غائرتين، وشارب متوسط ولحية صغيرة. يعتوره الحقد على الإمبراطور بسبب رغبته في الجلوس على العرش مكانه.

هيروليغية: الحضارة السابقة على الخراب العام، كانت تنتسب إلى (هيروليغا) العاصمة الكبرى، ولما انهارت أواخر عصر الأخلاق، نسبت إليها اللغة العربية التي دون بها (ابن النحاس) ما تبقى من كتب هذه الحضارة، فصارت العربية ببعض التحوير هي الهيروليغية، وصارت الصنائع المتفردة المميزة المتقنة تنسب لهذه الحضارة، فيقال سيف هيروليغي إذا كان مصنوع من حديد فاغي ممتاز ـ الحديد الفاغي نسبة لمدينة (فاغية).

(و)

وازميل: أحد تابعي العالم ذي القمرين، ولكنه أقل ضياءً من القمر الوردي المأهول (خارميل). مقفر بسبب نشوب حرب قديمة عليه.

(ي)

ينبوع فضي: فعليًا هو جدول مائي شفاف، تحيط بها مخلوقات رقيقة كالفراشات، تتحول إلى حفنة من الحسناوات. يوجد في قلب (الهضبة المحظورة) التي تتوسط قارة (أوريوم)، محاطة بـ(نطاق المنايا). أذابت فيها الحضارة الهيروليغية خلاصة حكمة (عصر الأخلاق) أو (الزمان الأول) بتقنية متطورة جدًا، وأمنت لهذه الخلاصة الاستمرارية بعد الكارثة العظمى، بزرع مصدر طاقة خارقة، يطلق عليها الجن البحري (الطاقة الفضية). يصبح أمل (النحاس) و(لويزت) الوحيد للعودة إلى الأرض التي يعرفونها، وذلك في نفس العام الذي تشتعل فيه حرب عامة بين الأسوار، لنيل حكمة الينبوع.

من كتاب تاريخ الأعمال الحَربيّة

كتاب تاريخي مخصص للقادة والملوك، يهتم بتسعة قرون من حروب المسكونة، أو ما يسمى بـ(نزاع 4101 نحاسية/5584 بحرية)، وهو النزاع الذي يشمل كل حروب (أوريوم)، التي أعقبت (قرن السلام)، وحتى عام 5005ن (عام الهدوء)، ولا يذكر المعارك الصغيرة، أو غارات البرابرة وقبائل الحرب العشوائية، الدورية، تلك التي تستهدف القرى غير المحصنة، البعيدة عن الأسوار والقلاع قوية الاستحكامات. وأهم تأريخات هذا الكتاب، الذي وضعته (مدرسة الحكماء) لاستخدام الأسوار الكبرى، الآتي:

ب الثور الغاضب: خرج (ديقور الغاضب) مؤسس أسوار (الأيمة) في 4101 ن على حلف (الملوك الخمسة)، وحاول الوصول للينبوع الفضي لاستعادة مجد الهيروليغيين، فتصدي له الجنوبيون بمعاونة مغاوير (ذنب العقرب) ضمن حلف (العقلاء). دارت المعركة قرب جبل (مالتوريا)، وتسببت في تدمير قرى الجبل الثمان، وكان بخار أنفاس البيزونات الأبيض يملأ السهل كملحمة خيالية، قبل أن يباد معظمها في هذه الحرب، وقد استهدفها الصيادون العقارب، مطلقين الآلاف من عقاربهم السامة، ما هدد بانقراضها الوشيك. ونجحت الحيلة في دحر الثيران، مع ارتباكهم من هجوم العقارب الحقيقية، إلى جوار الهجوم العسكري العادي.

و الأراضي النحاسية: (4105 - 4159ن)، قام جيش الأمير ـ وقتئذ ـ (جاروليوس) مدعومًا من الأنجوريين (ملوك الجليد) أسلافه الأوائل، بغارات ومعارك كبرى في الأراضي النحاسية، بغرض تأسيس إمبراطورية عظيمة؛ ورغم عبقريته الحربية، فإن قبائل ومدن الغرب الصناعية كانت شديدة الصلابة، متمسكة بالمحاجر والمناجم الغنية، مصادر طاقة الحضارة الهيروليغية البائدة، وكانت ذروة المعارك معركة (الحلوف الذهبي) 4150ن، والتي بسببها اتخذ (جاروليوس) الحلوف شعارًا أبديًا له، وكان الفضل لانتصاره الساحق فيها تشكيلاته المفرغة المتناثرة على مساحات كبيرة، في حين تسبب التشكيل المزهو، المتكتل، لأمراء الغرب، في تصدع الجيش، واندحار 80% منه بضربة واحدة، تحت خسف أرضي تسبب فيه زلزال هائل، يقال إن صوت دمدمته ارتعدت له فرائص النخاسين في (ميناء العبيد) على مسافة ضخمة، وسمي بـ(خسف الرعب) أو (ضربة الآلهة)، واستمرت المعارك منذ عام 4105 ن بمعركة (الجبال الزرقاء) من الشمال، ومعركة (المدينة النحاسية) في الشرق في صيف نفس السنة، عقب قرن السلام والبناء وحتى معركة (الخوان الغربي) الأخيرة سنة 4159 ن، حينما وضعت الحرب المباشرة أوزارها بانتصار الحلاليف، وعودتهم لمعسكر (الخوان)، واستكمال تشييد أسوارهم وبرجهم الضخم.

السم: (4160ن)، قام عبيد (خوس النخاس) بتسميم جيش (الملكة العذراء) في مدينة (الغرب الأزرق) بالكامل، حيث آخر قوى (الأراضي النحاسية) الصامدة، وإحدى أهم ممالك عصر الأخلاق ـ وكان شعبها يلقب بـ(الزُرق) قبل تفرقه ـ وذلك لحساب (جاروليوس الحفار) كمؤامرة أو حرب بالوكالة، فانتحرت الملكة بيدها لا بيد العبيد. وبهذا انتهت حروب الغزو بانتصار الحلاليف، وحصولهم على لقب (السادة) الجدد.

ة الحدادين الزرق: (4163ن)، حرض (مورسو) حداد الزرق الحاذق على الانتقام للملكة العذراء، وجمع كل حدادي الشعب الأزرق، وهاجموا (ميناء العبيد) انتقاما من (خوس النخاس)، وكان الحدادون يبغون من وراء هذا الاحتلال الصغير، حث بقية الشعب المتفرق في خلجان العذراء على

الانتفاضة الشاملة، لكن الجيش النحاسي بقيادة (بالجا) ولي العهد قمع هذه الحملة، وألقى بأعداد كبيرة من الزرق لتماسيح خليج (عذراء الماء) الطنانة، بينما فر المئات إلى شبه جزيرة (السرطان).

ـروب الخوانية الفنارية السبعة: بين سادة الأراضي النحاسية، وجنوبيي جزيرتي (عينا التنين) أبناء الصغار السبع، الأولى وهي الأشهر جرت بقيادة (زابيرا) الحورية المؤسسة عام 4166، عندما كشفت خدعة (جارولیوس) مؤسس إمبراطورية الخوان، والخاصة بمنع الكل من الينبوع الفضي، واحتفاظه هو بالأسير المحترم، وقررت مهاجمته وعقاب أي متحالفين معه في نصف (أوريوم) الشرقي كله، ونتج عن الحرب الخوانية الفنارية الأولى (حرب الغضب النيميروسي) خسائر كبرى في أساطيل (الخوان) الحربية والتجارية، أهمها حدث في أثناء حملة (رأس الخنجر) 4167ن بضرب أسطول خواني ضخم هناك وإغراقه بالكامل، وهو ما أدى لاندلاع الحرب الخوانية الفنارية الثانية (حرب الجنوب الأحمر) والتي سيطر فيها الإمبراطور (جارولیوس المقدس) على الطريق التجاري البحري عام 4199، لتأمين أسطوله التجاري مع المدن التجارية على الأقل، ورغم انتصاره خاصة في معركة (أوزاع) وتراجع الأسطول الجنوبي، فإن المرض قضى عليه في أثناء الحرب سنة 4200، فكان انتصارًا بطعم الهزيمة.

في الحرب الخوانية الفنارية الثالثة (حرب الطريق البحري): (4208 - 4225 ن) حاولت (زابيرا) التحرش بالخط التجاري الخواني البحري، مستغلة جرب فؤاد (جارولیوس)، فتحركت عام 4208ولكن الإمبراطور (بالجا الجارولیوسي) ابنه استطاع الدفاع عن الطريق البحري عبر تحالف دائم مع سلالة (أميكوليوم) الأرضي، ما أدى به لنصر أمن الطريق التجاري، أهم لحظاته معركة (الأرض اليباب) والسيطرة على خلجان (العذراء) بعد حرب دامت 17 عاما، انتهت بمقتل (زابيرا) على يد جني خائن يعمل لصالح السادة.

في الحرب الخوانية الفنارية الرابعة (حرب الأنفاق): حاولت الحورية الابنة (تيموت الأسطورية) الانتقام من الهزيمة الأخيرة، بمهاجمة كهوف (اللجمة) لمعاقبة الأرضيين على تحالفهم، فهجمت بقواتها عام 4271 عبر تجاويف تحت أرضية لنهر الدموع، راسية بأسطولها في خليج (العذراء الفارعة)، ولكن الصواعق التي ضربت الأسطول ووصول إمدادات السادة بأمر مباشر من الإمبراطور (هازجير بن بالجا) وبقيادة ابنه الأكبر (مونتر الأعسر)، حال بين سلالة الصغار السبع والنصر.

في الحرب الخوانية الفنارية الخامسة (حرب جونس الدموي): قرر الإمبراطور الدموي (جونس الأشقر بن مونتر الأعسر بن هازجير) منع أساطيل (الفنار) من التقدم غربًا، والإغارة مجددًا على الطريق التجاري البحري، وشن هجومًا واسع النطاق على الجنوبيين عام 4383. قاتل الحكيم المبارز (جوفث مار) أعظم سيافي عصره، والملقب بـ(فارس الأمواج)، ليذود عن مليكته (تيموت بنت زابيرا)، ولكن مقاتلي السادة استعانوا على بطولته العظيمة بكثرتهم، وتغلبوا عليه بعد معركة هائلة، خلدتها قصص الفناريين. انتصر (جونس) على (تيموت الأسطورية)، واستطاع أسرها مع المئات من رجالها البواسل، ومن ثم أرسلهم جميعًا مع ولي عهده (والسو) ليعدمهم بوسيلة لم تخطر على قلوبهم، بوضعهم مكبلين فوق جليد خليج (الإمبراطور) بعد نزع فرائهم المدفئ، فتجمدوا في غضون ثوان،

بينما تقول الأسطورة أن الحورية (تيموت) تغلبت على التجمد، وهربت على ظهر حوت الشمال الأحدب.

في الحرب الخوانية الفنارية السادسة (حرب الجوع): جمعت (موئاس بنت تيموت) الجنوبيين وهاجموا الطريق التجاري البحري عام 4414، من أجل الانتقام لروح (تيموت الحورية) المحاربة، وبث الثقة والروح المعنوية، وتهديد السادة بالجوع، ورغم استعانة الإمبراطور (والسو الحاذق بن جونس الأشقر) بحلفائه من الأرضيين، فإن هجوم الجنوبيون كان ضاريًا قويًا، فطلب العون من (جارزر الثمل) ملك الشماليين، بعد أن امتنعت الواردات لأشهر، وتوقفت الأسواق، فانتصر في هذه الحرب على الأساطيل الفنارية جنوب (إبريسم)، بمساعدة الشماليين العنيدين، وبطلهم الأسطوري (فوليوس الأنجوري) الملقب بفارس البلّور. ورد (والسو) الجنوبيين في نهاية الحرب البحرية الشرسة، إلى (عينا التنين) وقرر ضرب حصار التجويع.

في الحرب الخوانية الفنارية السابعة / حرب الحصار (4415 - 4492 ن): لم ينتصر أي من الفريقين، وطال الحصار فبلغ حزن (موئاس) مبلغه، فلما حل عام 4490 ن وضعت وليدتها الوحيدة كعادة أمهاتها وسلالتها الخاصة، أسمتها (فارينا) أي الخالدة بلغة الصغار السبع القديمة، وهربت لتبحث عن أمها الأسطورية في محيط (الشمال)، ولما تطاول العهد قرر الإمبراطور (والسو) على فراش الموت، إنهاء الحرب باتفاقية شكلية مع (فارينا) الحورية، بعد استبسال أسوار (الفنار الجنوبي).

هالام: (4288ن)، تسببت الصراعات الداخلية العنيفة بين العقارب، في حصول الفناريون على آخر مستعمرة جنوبية شمال البحر اللزج، والرابعة من مستعمرات الفنار على البر الجنوبي لأوريوم، وهي (هالام) التي كانت تابعة للعقارب، رغم أن منزل (لانو توبو) الذي يحكمها اشتهر بمخالفته لقاعدة عدم حمل الصياد لاسم،

التي يعممها المغاوير على أنفسهم اقتداءً بالمغوار المؤسس (لهذا فكل مغوار عقرب، لكن ليس كل العقارب مغاوير). الغريب أن فرقة كاملة من المغاوير حملة الأقواس المستعرضة والمقالع، قد شاركت في الفتح لصالح أبناء الصغار السبع، وذلك عندما ساعدت الحورية (تيموت) المغوار الأول في (ذنب العقرب)، في صراعه ضد مناوئيه في (غابة العقارب) و(الذنب)، مقابل منحها (هالام) جنوب الغابة الرطبة بشكل سلمي، كي تنضم إلى مواطئ أقدام بحارة الصغار السبع: (الميناء الجاف) و(بيت البلوط) و(الحانة)، فوافق المغوار الأول ـ يلقب بالمغوار الذي حنث ـ مقابل احتفاظه بنفوذه على جميع قلاع نهر (الذنب)، ولما رفض منزل (لانو توبو) الحاكم الانصياع لهذه الرشوة المخزية، أرسل المغوار الأول فرقة لمعاونة البحارة، حتى فتحت (هالام) قسرًا لحساب الجنوبيين.

ة المدن التجارية: (4366 - 4367 ن) قام بها العبيد واللقطاء والفقراء بأسوار (القمراء) وليس بالمدن التجارية، وإنما سميت بهذا لدعم بعض تجار المدن التجارية الخمس لها، عقابا منهم لجشع النخاسين وبخلهم، وتحمس العبيد للتغلب على العذابات اليومية التي يلاقونها؛ ولكن سلالة النخاسين قمعت ثورتهم بقسوة هائلة، فمما كانوا يقومون به جر الإماء من شعورهن كما تجر الخيول، لسحلهن واغتصابهن أمام أزواجهن من العبيد، فلما انتهت الثورة بالفشل وإقرار عدم اتخاذ العبيد لزوجات في بداية سنة 4367 ن، أرسل الخوسيون المعاقَبين بالمئات للضواري، وذلك كهدية عدم اعتداء، وهو ما كان بمثابة حكم دموي بالإعدام أو الإبادة الجماعية.

ب العشرين عامًا: (4451 - 4471 ن) كانت بين تحالف الجبابرة الذي ضم الجن والعقارب والثيران من جهة، و(فرسان الصحراء الحمراء) الذين شكلوا تنظيمًا إجراميًا واسع النطاق، يعتمد على النهب والسلب والخطف والاغتيال لمن يدفع من جهة أخرى، وبسبب سيطرة الفرسان التامة على الصحراء ومعرفة دروبها ومسالكها وشعابها، طالت حرب إجلائهم، لكن بسبب تنظيم تحالف الجبابرة، انتهت سلسلة معارك الحرب الدامية، بطرد الفرسان من قلب القارة تمامًا، وفتح الطريق جزئيًا للمتحاربين في سبيل الوصول للهضبة المحظورة. بينما شكل الفرسان الفارين لوادي الخيول نواة سلالة حاكمة في أقصى الشرق، نتج عنها شعب من المقاتلين، الذين يبيعون خدماتهم لجميع السلالات الأخرى ويعملون على حماية بعض المدن التجارية كذلك، ما منع الأسوار من تكرار حرب إجلاء شاملة ثانية للفرسان. وكانت الحرب في عهد الملك الثيراني (خاريفال الأقنى بن فاروت بن بيثون الجاف بن ديقور المقدس).

و الخوسي لـ(الجولجا): (4504 - 4543ن)، قام به (خوس العاشر) ضد شعوب (الجولجا) شمال (القمراء)، ليصبح أهم عمل حربي في بداية القرن السادس والأربعين نحاسية، وأتمه ابنه بتدمير حضارتهم تمامًا، بسبب اعتبارهم (كفارًا) يمقتون العبودية ويعتزون بحريتهم، وهو ما تم اعتباره بحاجة للإصلاح، وسيقت النساء الجولجيات البيضاوات بالآلاف، كجوائز حرب للعبيد الغازين.

وسمى الابن نفسه بـ(كاربو الأول)، و(كاربو) في لغتهم تعني الملك، في أول تغيير منذ قرون لتسمية ولي العهد بـ(خوس) والتي تعني السيد، وتم فرض تسمية أولياء العهد في سلالة (خوس المؤسس) باسم (كاربو) منذ ذلك الغزو.

وب الحليف الأرثوزي: (4574 - 4586ن)، أو حرب (الاثنتي عشرة سنة). وكان أن تحالفت إحدى الأسر الحاكمة لبندر (أرثوزا) وهي أسرة (سيليرا)، مع كبار شيوخ قبائل الحرب، وذلك بعد خلاف مع الثيرانيين، فدخلت القبائل (أرثوزا) بدون نقطة دم، ولكن الملك (مهوليتور الأكبر بن عازعول بن خاريفال الأقنى) الذي لم يكن يحبذ خروج رماة المستنقعات في حروب خارج (الأيمة)، لخشيته من المؤامرات والقلاقل الداخلية، أرسل للنبلاء السيلير أمراء الثيران الأقوياء من أنسبائه، وأقرباء شيوخ عشيرة البنائين القدامى، وهم حكام أسر (مالتوريا) و(كو) و(بيليت) و(روداز)، التي تسيطر على بنادر/قلاع (هيروليما) و(التل الزلق) و(غابة السماء) و(مستنقع الضباب) على التوالي، فاستمرت حروبهم حتى تم هزيمة قبائل الحرب، وإعدام أسرة (سيليرا) المناضلة حتى آخر طفل وكلب وحصان! وتنصيب أسرة (سيليمنت) مكانها على قلعة (أرثوزا) مسقط رأس الحكيم الأعظم (نوفيو الخالد). وكان آل (سيليمنت) يلقبون بـ(الموحلين) لأنهم كانوا خدم آل (سيليرا)، ينظفون الإسطبلات ويطعمون الخنازير، ويغوصون في نهر (الوحل) الطيني، لصيد طعامهم من ثعابين الماء الشحيحة.

حرب الثلاثمئة وعشرين سنة: (4230 - 4550ن) صراع اقتصادي بين شعوب (شبه جزيرة القواقع) وملوك (الجُورب)، بدأه الملك (فاتكا) الجوربي الذي كان طفلا ـ كما تقتضي قوانين الملكية في بلاده ـ وكان السبب مجرد مرضه لخمسة أيام، بسبب تناوله محارًا مستوردًا من (ذات القواقع)، أهم مدن شبه الجزيرة.

حرب الخلافة الفيجورية: أو (تمرد آرم) (4611 - 4618 ن) مع انقراض خط الورثة المباشر من آل (شميد) سنة 4610 وتعثر الحكماء في إيجاد ملك شرعي لـ(فيجور)، وجدها (آرم المستدق) أحد آخر

ملوك الجليد المارقين، فرصة سانحة للحصول على ميناء جنوبي على المياه الدافئة لخليج (عذراء الرمال)، بتحريض ماكر من حكيم الفناريين أعداء السادة الأزليين، ولأن الإمبراطور (فرين الكبير بن ماجولا الهادئ بن والسو الحاذق) قد تعهد أبًا عن جد، بعدم قتال أي ملك من ذرية ملوك الجليد القدامى، لفضلهم التاريخي على السادة الجدد، وأن (خلافات ملوك الجليد لا يحلها إلا ملوك الجليد)، كما يقول المثل الراسخ عبر قوانين أجيال السادة الخوانيين، فلقد فوض كبير أقاربه في أسوار (الشمال)، وهو الملك (فوربادول القارئ بن جاروز بن والسو الحاذق)، وتناحرت النوارس مع الجليديين في هذه الحرب الداخلية النادرة التي تدور فوق الأراضي النحاسية، والتي لم يحدث لها مثيل منذ (حرب الجوع) قبل قرنين كاملين من الزمان، حتى سيطر النوارس على (فيجور) واكتشفوا بين القتلى أسلحة مصنوعة بأيدي الجنوبيين، فعلم بأمر التحريض الفناري والذي يرجع لبقاء (فارينا الحورية) حية وشابة على مر القرون، ساعدها هذا على عدم نسيان الحروب الخوانية الفنارية المريرة، أو تراجع حقدها ورغبتها في الثأر. وكان من نتائج الحرب قرار السادة حصر سطوة ملوك الجليد بين أسوار (الشمال)، لينتهي بذلك وجود ملوك متوجين في أرض ملوك الجليد، بمغامرة (آرم الأنجوري) الأخيرة أمام نفوذ الإمبراطور (فرين الكبير).

حرب عصبة فارينا: أو (عصبة الجنوب) (4624 - 4628ن)، دعت (فارينا الحورية) الجن البحري والعقارب والمهرطقين وأمراء الدلتا، وكلك قادة (الجُورْب) والجرميين و(ذات القواقع) والبدو النماريين، للحد من خطورة الضواري، ومهاجمتهم في الشمال الأسود أول مرة، بدلاً من الاكتفاء المرير بالدفاع وعد الضحايا عقب غاراتهم الوحشية، ونجحت عصبة الجنوب في منع تقدم الضواري جنوبًا لما يقترب من القرن، بعد تدمير أكواخ وكهوف (الجحر). تفشت عضة الثلج بين المئات من فرسان وقادة العصبة في هذه الحرب.

حروب ريجسوز: (4720 - 4741 ن) إن حروب (ريجسوز) تطلق عادة على الصراع الأكثر دموية في شمال (أوريوم)، والذي أشعلته قبائل (ريجسوز) على قوس نهر (القمر) الجنوبي مدعومة ومسلحة من شركائها، التجار الإبريس من المدن الحرة، وتجار (المتناوحة) من الجن البحري، ضد قبائل (الفأس المرمرية) و(الكبش الرمادي) بسبب احتكار هؤلا لتجارة الفراء، ولكن دعم الخوسييون لقبائل الشمال، تسبب في تدمير وإخلاء العشرات من قرى الريجسوز، وإبادة قبائل (الجبال السوداء) حلفاء الريجسوز، حتى أعلن الريجسوز استسلامهم خشية من سحق وتدمير مدينتهم، خاصة بعد انسحاب التجار البحريين المفاجئ من زمرة داعميهم.

انتفاضة دراخين: (4770ن) كان منزل (دراخين) وشعاره العقاب ذو المنقارين، مبجل من سكان قلعة (الحلازين)، فلقد جمع بين الحسنيين، إذ كان مؤسسه (دراخين) من أصول هيروليغية عريقة كالثيرانيين، ولكن كبار قياداته كن النبيلات العذارى بنات الأميرة (موسهاي)، زوجة (دراخين) وصديقة الملكة العذراء التي تجري في عروقها الدماء الزرقاء، وهذه القيادة تبجيلاً للملكة العذراء المنتحرة ملكة الزُرق، والتي كان المنزل أحد حلفائها القدامى؛ وبسبب تسلط الثيران عليه، بدأت بعض مبادئ المنزل القديمة المستمدة من شريعة الملكة العذراء، والتي تركز على السلم وعدم الهجوم على الآخرين بل الدفاع فقط عن النفس، في التغير، والغيظ من قسوة الثيران ونفاقهم، وعندما جف نهر (الأيمة) سنة 4770 ن، وأصيب الثيران بالقحط، قام آل (دراخين) بثورة قادتها النبيلات العذارى، تحت قيادة (لاونة) حاملة لواء السلام (أي الحاكمة) للتخلص من عبادة الثور البدين، واستبداله بالربة

العارية ممثلة في الملكة العذراء المقدسة، أو ما يسمى بعقيدة (حلول الربة) المستحدثة، ولكن الثيران استطاعوا قمع الانتفاضة واسترداد قلعة (الحلازين) شمال (أرثوزا) بعد عشرة أشهر، ووضع ملكهم (جاذدموث الشرير بن مهوليتور) (لاونة) في الثور النحاسي.

حصار الجزيرة المعلقة: (4809ن) حدث في عهد الإمبراطور (هاور المتعجرف بن مورانش بن كوهر بن شالين بن فرين الكبير)، وكانت لتأديب الرجال الصلع كما يلقبون، بسبب قيام أحد أبطالهم ويدعى (أجراز الساخر)، بإشاعة الرعب في ميناء (الغرب الأزرق) الخواني، ولكن هبوب عاصفة من عواصف المحيط الأسود، مع انتشار وباء قاتل بين الحلاليف، أدى للانسحاب وعودة الأسطول إلى (الترسانة الإمبراطورية). تتميز الجزيرة المعلقة بأجراف صخرية شاهقة بدلاً من الشواطئ، لذا لا يمكن لأحد الصعود إليها إلا إذا أدلى السكان السلالم له.

الحروب المولارية النَمارية: (4878 - 4882ن) وكانت بين (ذات النمارق) التي استطاعت الحصول على غض طرف من المهرطقين، وبين (مولار) جنوب النهر الشرقي، للسيطرة على أراضي النهر التي تقل فيها عواصف الرمال التي يعاني منها سكان شبه جزيرة الخيول، ولكن المولار الذين ينحدرون من مملكة (آلفسار) القديمة، تلقوا دعمًا متواصلاً من أمراء الدلتا وعلى رأسهم الأمير (مارسر)، حتى لا يتقدم البدو النماريين إلى حيث أراضي النهر الهادئة، فلم يظفر البدو إلا ببعض الأراض شمال (منزل العلف)، والتي كانت ضمن نفوذ قلعة (المرعى).

حرب النهر البروني: (4976ن) لما طال انتظار أمراء (قاعة الأقزام) لعودة ملكهم (شويشور)، تأكد لديهم الظن بأن الوثنيين الذين يسكنون على ضفاف (النهر البروني) يحتجزونه، رافضين عرضه لهم بالحصول على أحد الأسرى بطريقة سلمية، فاندلعت انتفاضتهم عارمة، واتصلوا بأصدقائهم في (غابة السماء) مورّدي الأخشاب واللحاء، لصنع الورق والصحائف التي يتميز الأقزام ببراعتهم فيها، واستعان منزل (أوزاريتي) حكام (غابة السماء)، بمشورة أهم رجال عشيرتهم ذوي الأعين الذهبية، وهو القبودان الشهير (تي كواريو)، فجمع هذا بعض من أشرس قراصنة أرخبيل العذارى، وحرر ملك الأقزام الأسير من شبه جزيرة السرطان، بينما قتل الأسير الأول في أثناء القتال. وكان من بحارة (تي كواريو) أحمر الشعر (مام)، كبير الماميين، أهم عائلات قرية حمر الشعر الثلاث.

حصار القمراء: (4993 - 4999 ن) قام به السادة لعقاب النخاسين، وكان آخر الأعمال الحربية المهمة في نزاع التسعة قرون، بسبب معركة قديمة تجرأ فيها الملك السابق (كاربو الخامس عشر)، وهاجم قافلة خاصة بالسادة لأسر العبيد، ما تسبب في مقتل أحد النبلاء وقائد القافلة، وكان من سلالة جارولويوس الحاكمة، فأرسل الإمبراطور جيوشه لحصار أسوار (القمراء) في موقعة سنة 4993 ن، وانتهى الحصار باستسلام ملك العبيد لإرادة الإمبراطور (أوسيزور بن جاليث بن هاور المتعجرف بن مورانش بن كوهر بن شالين بن فرين الكبير)، الذي أسر عدد هائل من عبيده، وأخذ عليه في المعاهدة دفع جزية سنوية مقدارها ألف عبد، على رأسهم إحدى نبيلات السلالة الحاكمة، وكان هذا الحكم بالنسبة للإمبراطور مهينا لأي شخص، أما بالنسبة لملك العبيد فقد سُر به ووافق حتى ينفض الحصار وتعود التجارة، وبالفعل انتظم لسنوات في إرسال الجزية المهينة). (آخر تسجيل رئيسي في نسخ الكتاب الموجودة بمكتبات الأسوار الكبرى).

رب العامة: (5007 ن) مواجهة كبرى وسباق للوصول إلى قلب (أوريوم)، حيث الينبوع الفضي الأسطوري، وشملت الأسوار القوية كلها. قد بدأت بمعركة (الجرف) البحرية 5006 ن، بين أساطل الحورية والإمبراطور، وقد دخل الفناريون القارة بحجة خوض معركة (المتناوحة) ضد الضواري.
أحلاف الحرب العامة: الحلف الجنوبي بين الفناريين والجن وفرسان الخيول ـ حلف السادة بين الحلاليف والنوارس والأرضيين ـ حلف الصيد بين المغاوير والعمالقة ـ حلف الثور الغاضب بين الثيران والعبيد. (الأحلاف مضافة يدويًا إلى نسخة الكتاب في أسوار ليسيبيا).

مختصر عام، أو ما يسمى في مدرسة الحكماء بـ(الأيام القديمة):

5000 قبل النحاس (تاريخ خيالي/لا مصادر بشرية): يتكون الزمان كله من دهرين، بكل دهر عدة أحقاب، بكل حقبة عدة عصور، بكل عصر مئات أو آلاف السنين. العصر الأول في (حقبة الفجر) ـ أولى أحقاب الدهر الثاني ـ كان يشهد نهايات الدهر الأول، والمكون من مئة حقبة، كانت الأرض تتكون فيها. يعتقد بعض الحكماء أن (حقبة الفجر) هذه، مكونة من سبعة عصور مجهولة، موزعة على مئة وثمانين ألف سنة، كان يسود الستة عصور الأخيرة منها شعبين، أو جنسين، انقرضا فجأة، اسمهما حسب أساطير المشرق (الهاون) و(الباون) بألف ولام التعريف، أو حسب أساطير الغرب (تام) و(رام). لم يسجل من تاريخهم شيء، ولا يعرف سبب انقراضهم الرهيب.

في هذا العام 5000 ق.ن. أو بنهاية حقبة (الفجر)، ظهر أبو البشر تقريبًا.

1483 ق.ن.: بدء الحقبة الثانية من الدهر الثاني، (حقبة العواصف)، وهي أربعة عصور تم تسجيلها خلال ستة آلاف سنة، العصر الفضي، وعصر الأخلاق، وعصر ما بعد الخراب، وعصر الآسى. تقاسم السيادة في حقبة العواصف شعبين أو جنسين رئيسين، هما الجن والبشر.

في هذه السنة انتهى تشييد (مدينة الجن) في قاع المحيط، ويطلق عليها البشر (التوأم) لأنها تشبه مدينة (المتناوحة). توازي السنة الأولى في التقويم البحري.

1383 ق.ن.: تشييد عاصمة الجن البرية (المتناوحة). توازي سنة 100 بحرية.

980 ق.ن.: فتح الملك (إزفادار) لـ(ممشى الزمان) بين عالمين. واكتسب العصر الأول في حقبة العواصف اسمه، من الطاقة التي استعملها (إزفادار). الطاقة الفضية.

974 ق.ن.: إغلاق الممشى وإخفاء الطاقة الفضية، فتسبب هذا في تكوُّن حزب (الفضيين)، ولاحت نذر الحرب.

1 ن: انتهاء حرب الجن العظيمة، وهي حرب أهلية بين الإزفاديين (جنس ملكي برمائي) والفضيين (خمسة أجناس مائية وثلاثة هوائية)، انتهت بانتصار الإزفاديين، والقيام بإبادة شاملة للفضيين. توازي سنة 1483 بحرية.

7 ن: عائلة (برون) تؤسس حصن (الغربان) أحد أقدم حصون وقلاع البشر.

1919 ن: بدء آل (برون) حروب غزو (أوريوم)، بعد اكتشاف الختم السحري في (قلعة الساحرات)، بتحطيم قواعد الجن في قلب القارة، وإجبارهم على الجلاء.

2000 ن: (سالحادور البروني) الفاتح ينتهي من توحيد قبائل (أوريوم)، وتأسيس العاصمة الذهبية (هيروليغا المستنيرة). انتهاء (العصر الفضي) الذي دام لثلاثة آلاف عام ونصف تقريبًا، وبداية (عصر الأخلاق). بداية التطور الصناعي والتكنولوجي شديد السرعة. نهاية سيادة الجن البحري.

3000 ن: كارثة بعثة جبل (الصهريج)، التي صاحبت إبادة شعب الزنوج، والتأثير في مغناطيسية الكوكب. فتح بوابة (المجاز الأول) بين عالمين. بداية تحور بعض الأجناس، وظهور العمالقة والأبالسة والضواري.

4000 ن / 5483 ب: العاصفة الأولى والخراب العام، وساعد عليه وجود (المهدم) أو الشيخ (ابن النحاس)، الذي حطم الملاذات والحصون الهيروليغية. استخدام طاقة (نيريا). وضع التقويم النحاسي على يد الحكيم الأكبر (نوفيو) من (أرثوزا). دمار الحضارة الهيروليغية، ونهاية عصر الأخلاق الذي دام لألفي عام.

4001 ن: بدء قرن السلام، وعصر (ما بعد الخراب). حفر خندق (حذر) على مدار القرن، برعاية الملوك الخمسة المقدسين، الذين أسسوا وقادوا سلالات تحكم أسوارًا قوية، وعلى رأسهم (جارولیوس الحفار)، فكان ترتيب هذه الملحمة كالتالي: 4002 ن نجح اتصال (جارولیوس) بـ(برنسبس الملتمع) في إقناعه بالانضمام له في فكرة الخندق، ورغم معارضة (إكسمبلار) و(سوميسي) إلا أن جدهم كانت له كلمة نافذة، فأمر بمنع التحارب لمنح البشر فرصة التعمير، ووافق على المشاركة في بناء آلات حفر ضخمة تناسب الزنوج.

4005 ن أمر (جارولیوس) (خوس النخاس) حليفه المستقبلي في حروب الغزو، وسفير (القمراء) الهرم، بتوريد آلاف العبيد للمساعدة في حفر الخندق الهائل، وكذلك في استقدام مهندسي عشيرة البنائين من الجنوب، رغم رفض مهندسهم الأكبر (ديقور).

4006 ن انضمت (زابيرا) ومعها بعض العقارب، واشتركت في محاولات الضغط على (ديقور)، الذي كان يسعى لإكمال تشييد أسوار (الأيمة)، فلم ينضم إلا سنة 4023 ن على مضض، واجتمع الملوك الخمسة للمرة الأولى في مكان وسط مرتفعات (السادة)، فسمى لاحقًا بـ(المائدة المرتفعة).

4101 ن: حروب التسعمئة عام أو النزاع الأعظم. بدأ بانقلاب (ديقور). الانتهاء من خندق (الحذر).

4105 ن: غزو الأراضي النحاسية. 4154 ن اندلاع معركة (الحلوف الذهبي) قرب قلعة بنفس الاسم، وحدوث (خسف الرعب). 4160 ن انتهاء حروب الغزو بانتحار الملكة العذراء واستسلام قلعة (الغرب الأزرق)، كما لو أنها دلالة على استسلام كل الغرب الأزرق.

4166 ن: بدء الحروب الخوانية الفنارية السبع.

4451 ن: بدء حرب العشرين عامًا.

5005 ن: عام الهدوء.

5006 ن: اندلاع الحرب العامة، وظهور سليل (المهدم) وإعادته لقاعدة المُلك العام. تجفيف (الينبوع الفضي) الأسطوري. نهاية عصر ما بعد الخراب الذي دام لعشرة قرون.

بداية (عصر الآسى) لاحقًا، وانتهاؤه في مطلع الألفية الخامسة.

الملاحظات

[1←]

() بربر berbers: اسم أطلقه الإغريق على من سواهم من الشعوب، ثم اقتصر تاريخيًا على سكان الصحراء الكبرى من (مصر) وحتى (المغرب)، وهم ذاتهم من تذكرهم المصادر المتنوعة بأسماء أخرى منها: الأمازيغ، والنوميديون، والليبيون، والماسيد.

[2←]

() تقع البلدة على (النيل) شمال (السودان).. وقد دخلها المماليك بدءا من سنة 1811 وما تلاها من سنوات، جرت لهم فيها مذابح منظمة، فارين من تطهير (محمد علي) الكبير للمحروسة منهم، فعانى منهم الدناقلة، ثم عانوا من قبيلة نوبية محاربة رجالا ونساءً تدعى (الشايقية)، وصلت لذروة جبروتها فى نهاية هذا القرن، حتى خلصتهم حملة (إسماعيل باشا كامل) الابن الأصغر لـ(محمد علي باشا) سنة 1820 من فلول المماليك إلى الأبد، وكذلك دحر هذا الابن ملوك الشوايقة بجيشه الممزوج من مرتزقة الترك والبدو والمغاربة، وقطع آذان جنودهم لإرسالها إلى والده في المحروسة؛ دليل انتصاره الساحق!

تأخر (محمد علي) فى إرسال ابنه العشريني لفتح (السودان) حيث الجنود الأشداء والذهب الوفير، بسبب مقاومة الوهابيين القوية في (الحجاز) التي لم تلبث أن انهارت، لكن الحملةَ وصلت جنوبًا في سهولة على أي حال. عدم تسلح الأهالي بالأسلحة النارية، واكتفاؤهم بالسيوف والرماح كان عاملًا مهمًا. وأسس (إسماعيل كامل) في (دنقلة) معسكرًا لجيشه أسماه (الأورطة)، التي تحرفت فيما بعد إلى (الأوردي) ثم (العُرضي)، فصار لقبًا لـ(دنقلة العرضي) كما تلقب (مصر المحروسة)، وقد كانت قبله شونة لجمع الغلال والبهائم كضرائب وعشور، ترسل بانتظام لسلطان (الفونج)، أقوى ممالك المنطقة.

بالطبع طلب (إسماعيل) من سلطان (الفونج) أن يدين بالولاء للخليفة العثماني، ولما امتنع قضى على السلطنة إلى الأبد، مثلما جرى مع المماليك، فلم يعد التاريخ يذكر شيئا بعد هذه الحملة سواء عن المماليك أو عن سلطنة (الفونج)، ما شجع (محمد علي) على= = إرسال المزيد من الجنود لفتح بقية (السودان)، وأسفرت الحرب القاسية عن عشرات الآلاف من القتلى، حتى استقرت الأوضاع، وقسم (محمد علي) البلاد على النظام الإداري التركي إلى سبع مديريات، أشهرها (دنقلة) و(بربر) و(كُردفان) و(سنار) التي كانت عاصمة سلطنة (الفونج)، كلها تحت قيادة حاكم عام بمنصب (حكمدار)، ثم جاء (عباس حلمي) وافتتح أول مدرسة في (الخرطوم) سنة 1853 على يد العظيم (رفاعة الطهطاوي)، وفي عهدي (محمد سعيد باشا)، و(إسماعيل باشا الثاني) أفندينا الحالي صاحب الأربعمئة وخمسين جارية، بدأ التطور يزداد في المدينة! (الابن)

[3←]
() لمتابعة أكثر دقة، يمكن الرجوع لرواية (النحاس).

[4←]

() قناطر السباع: أول من أنشأها على (الخليج المصري) كان السلطان الملك الظاهر (ركن الدين بيبرس البندقداري)، ونصب عليها سباعًا حجرية، لأن رنكه (شعاره) كان السبع (الفهد)، فعرف الحي بـ(خط قناطر السباع) طوال العصرين المملوكي والعثمانلي، ولكن بعد ردم الخليج المصري وبروز المشهد الزينبي، عرف باسمه الحالي.. حي (السيدة زينب).

[5←]
() بابور: أو (وابور)، لفظ درج على ألسنة الناس منذ نهاية العصر العثماني، وقد اشتق من vapeur التي تعني البخار، وذلك لوصف القطار؛ ولتمييز الباخرة عن القطار كانوا يسمونها (بابور البحر).

[6←]
() القمز: مشروب مسكر من لبن الخيل

[7←]
() أوستريا: هي إمبراطورية (النمسا)، وهو الاسم الذي كان يطلق عليها في النواحي العربية، نهايات القرن التاسع عشر.

[8←]

() الخليج المصري: كان يخرج من نهر (النيل) جنوب قصر (العيني) الحالي، وهي المنطقة المعروفة باسم (فُم الخليج)، ويتجه مجراه إلى ميدان (السيدة زينب)، حيث تعبر من فوقه قنطرة (السيدة زينب)، ثم يمر من (درب الجماميز) أمام المدرسة الخديوية، ليصل إلى (باب الخلق) فـ(باب الشعرية) فـ(الحسينية) على الترتيب، ثم يعبر بين المزارع إلى المناطق السكنية التي استحدثت فيما بعد تحت اسمي (الزاوية الحمراء) و(الأميرية)، ثم يتجه خارج مديرية (القليوبية)، ويمر جزء من مجراه بمجرى ترعة (الإسماعيلية) الحالية، ثم يمر بالقرب من (بلبيس) و(التل الكبير)، حتى يصب أخيرًا في بحيرة (التمساح) والبحيرات المرة التي كانت مفتوحة على البحر الأحمر. وردم الخليج المصري سنة 1898.